

19



يقظة امرأة

(رواية)



ترجمة

أحمد الشيمى



الهيئة العامة
لقصور الثقافة

آفاق عالمية
يناير ٢٠٠٣
١٩

يقظة امرأة

تأليف : كيت شوپان
ترجمة : د.أحمد الشيمى

- **تصميم الغلاف** : محمد بغدادى
- **لوحة الغلاف** : للفنان چاكسون پولوك
  (١٩١٢ - ١٩٥٦)
- **التدقيق اللغوى** : شريف حسين

آفاق عالمية : سلسلة شهرية تعنى بنشر ترجمات مختارة

المرسلات : باسم رئيس التحرير على العنوان التالي :
١٦ أ ش أمين سامي - القصر العيني - رقم بريدي : ١١٥٦١

رقم الإيداع ٣٥٩٨ /٢٠٠٣
I.S.B.N : 977 - 305 - 380 - 6 الترقيم الدولى



المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤
e-mail : pic@6oct.ie-eg.com

مُقَدِّمَة

ظلت هذه الرواية منسية ما يزيد عن نصف قرن منذ نشرها فى عام ١٨٩٩ إلى أن لفت إليها الأنظار الناقد : « **كينيث إلبى** » فى عام ١٩٥٦ وسماها « **الرواية المنسية** » . ولم تلبث بعد ذلك أن أصبحت من مقررات الدراسة فى الجامعات والمعاهد العليا جنبًا إلى جنب مع الأعمال الأدبية الكبيرة فى الأدب الإنجليزى والأمريكى مثل : « **حكايات كانتربرى** » **لتشوسر** ، و « **الفردوس المفقود** » **لملتون** ، و « **موبى دك** » **لملفل** . لم تلق هذه الرواية الرواج الذى تستحقه حتى تغير المشهد النقدى فى الولايات المتحدة ، ولم يعد العمل الأدبى ، والروائى – على وجه الخصوص – يستمد قيمته من خلال الرسالة الأخلاقية التى يضطلع بها فحسب ، وإنما بدأ يستمدها من قيمته الفنية كذلك . ومما ساعد على رواج هذه الرواية أيضًا ذيوع النقد الأدبى النسائى ، وما استتبعه من : « انتصار للمرأة ، وحقها فى أن تقرر حياتها بعيدًا عن سلطان الرجل ، وأن تقاوم نظرة الرجل إليها بوصفها مصدرًا للمتعة لا غير » .

كان المجتمع الأمريكى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يشبه – فى كثير من الوجوه – المجتمع الڤيكتورى فى

إنجلترا : مجتمعًا بيورتانيًا يشتط فى الحفاظ على القيم والأخلاق التى يراها من وجهة نظره ، ويشتط مع ذلك فى تكريس قيم التعصب والتمييز . ولم يكن للمرأة مستقبل يمكن أن تتصوره غير الزواج والإنجاب ، وفيما عدا ذلك فإنها مذعنة لسلطان الرجل إذعانًا ظنت – فى البداية – أنه من طبائع الأمور . فقد كان الرجل هو رب الأسرة وحاميها ، وكانت الأسرة من المقدسات الاجتماعية دون أن تكون المرأة فى ذاتها شيئًا مقدسًا .

ولكن الأمور لا تقف عند نقطة واحدة ؛ فقد هبت عواصف التغيير من كل صوب : « ازدادت الديمقراطية رسوخًا فى الحياة النيابية ، وأصبح للجميع الحق فى الانتخاب ما خلا أصحاب العاهات العقلية ، ولعب الفلاسفة دورًا فى تدمير القيم الراسخة وتغيير نمط التفكير القديم ، وانطلقت الصيحات التى تنادى بتحرير المرأة من أغلالها الاجتماعية ، وإفساح المجال أمامها لتحقق توازنها النفسى والروحى ككائن لا يختلف عن الرجل إلا فى هيئته الجسمية كما يختلف عنها الرجل فى هيئته الجسمية » .

وكانت رواية « **شوپان** » واحدة من تلك الأعمال الأدبية التى تناولت وضع المرأة فى المجتمع الأمريكى فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التى انطلقت فيها الدعوات لتحرير المرأة من أغلال القيود الاجتماعية . فبطلة الرواية – شأنها فى ذلك شأن مدام : « **بوڤارى** » فى رواية « **ڤلوبير** » الشهيرة – تسعى للفكاك من

أسر تقاليد مجتمعها فى محاولة منها لتحقيق ذاتها . إن أكثر ما يضايق « **إدنا پونتلييه** » ذلك الإحساس بأنها من ممتلكات زوجها الخاصة ، شأنها فى ذلك شأن قطع الأثاث والحديقة . جاء ذلك صريحًا على لسانها فى بداية الرواية . إن علاقة « **إدنا** » بـ : « **أروبين** ، و« **روبرت** » ، وحتى انتحارها فى نهاية الرواية ما هى إلا رموز استخدمتها الكاتبة للإشارة إلى تخبط البطلة بسبب صدامها مع مجتمع محافظ ، لا يقر سعيها لاكتشاف ذاتها ، والوعى بالذات هو ما يتصدى له المجتمع من خلال قيمه التى وضعها وتقاليده التى يثير غضبه مجرد محاولة التمرد عليها . إن البطلة تطرح الأسئلة وتجيب عنها فى مجتمع يحدد المفاهيم ويقر القوانين ولا يقبل بغير ما يقر به ويحدده . وعلى بساطة أحداثها تمتلئ الرواية بالرموز المحيرة والأسئلة التى تحتاج إلى من يبحث عن إجابات ، وبذلك تصبح الرواية أشبه بالقطعة الموسيقية التى يجد فيها القارئ متعة عند قراءتها ، وحتى بعد أن يعود إلى قراءتها من جديد . إنها رواية بحث عن ذات أسيرة عند قوى لا تفهمها تحدد مصيرها وتضطرها إلى حياة لا تريدها ، وهى ذات تواقة إلى أن تشغل مكانها فى عالم تريد أن تشارك فيه مشاركة فاعلة . وهى لا تستطيع أن تشارك فى هذا العالم ؛ لأن القيود والأعراف تقف حائلاً دونها ، وتضطرها إلى التسليم والرضى بذلك الدور الثانوى الذى لا تستطيع البيئة الاجتماعية أن تتيح لها غيره .

ولدت « **كاثرين توماس أوفلاهارتى** » المعروفة « **بكيت شوپان** » لأسرة تنتمى للطبقة التى تسمى فوق المتوسطة ، فى الثامن من فبراير من عام ١٨٥٠ فى « **سانت لويس** » إحدى ولايات الجنوب الأمريكى . نزح أبوها من « **أيرلندا** » وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، وكانت أمها : « **إليزا فارس أوفلاهارتى** » – وهى زوجة « **توماس** » الثانية تنحدر من أصول فرنسية وتصغر توماس بأكثر من ثلاث وعشرين سنة . ماتت عنه زوجته الأولى وهى تلد طفلها الثانى بعد خمس سنين من الزواج . تعلمت « **كيت شوپان** » الفرنسية على يد جدتها « **مدام ڤكتوار فردون تشارلوفيل** » التى كانت تحكى لها القصص التى تعلى من قيمة المرأة وتقدر الدور الذى كان يجب أن تلعبه فى محيطها ، وهو الدور الذى لم يسمح المجتمع المحافظ فى ذلك الوقت للمرأة بأن تلعبه . اشتغل الأب بالتجارة وحقق ثروة كبيرة ومات فى حادثة سقوط جسر « **كاسكونيد** » الذى شيدته الدولة فى غرب « **سانت لويس** » عندما دعت بعض وجهاء المدينة للاحتفال بعبور أول قطار سكة حديد على الجسر فى الأول من نوفمبر من عام ١٨٥٥ لم تكن « **كيت** » قد تخطت السادسة بعد . تخرجت فى أكاديمية القلب المقدس فى عام ١٨٦٨ . لم تكن رواية « **اليقظة** » هى كل ما كتبت « **كيت شوپان** » ، فقد سبقتها برواية تحت عنوان « **الواقع فى الخطأ** » ، كما كتبت مجموعة من القصص القصير

قامت بنشرها « **دار هوتن مفلن** » الشهيرة فى عام ١٨٩٤ . توفيت « **كيت شوپان** » فى أغسطس من عام ١٩٠٤ عن عمر يناهز الرابعة والخمسين . لقد أصبحت « **كيت شوپان** » فى نظر النقاد اليوم ، وبفضل هذه الرواية ، واحدة من أعلام الأدب فى القرن التاسع عشر ؛ وذلك بسبب : أسلوبها الأدبى الرفيع ، وتناولها الجرىء لمشاكل المرأة ، وسعيها للوصول إلى الوعى بذاتها ، وهو سعى لم تتخل عنه حتى أواخر أيامها .

- ١ -

ببغاء أخضر مائل إلى الصفرة يتململ فى قفصه المعلق خارج الباب ، كان يردد بالفرنسية :

- اذهب من هنا ! اذهب . . عليك اللعنة !

كان بوسعه ترديد كلمات من الإسبانية ومن لغة أخرى لا يفهمها أحد ، أو لعلها كانت تصدر من الطائر المحاكى الآخر الذى علق على الجانب الآخر من الباب ، ومضى يرسل ألحانه العذبة عبر النسيم بإصرار غريب .

نهض السيد پونتلييه الذى اكتسى وجهه بعلامات السخط والاستغراب ، بعد أن عجز عن التركيز فى قراءة صحيفته ، ونزل إلى الشرفة حيث كان يرى من موقفه المعديات الضيقة التى تصل بعض منازل لبرن الصغيرة ببعضها الآخر . كان يجلس أمام المنزل الرئيس ، وكان الطائران ملكًا لمدام لبرن ولهما الحق فى إصدار ما يحلو لهما من الجلبة وللسيد پونتلييه الحق فى مغادرة المكان إذا رأى أنهما يقلقانه . توقف أمام منزله الذى كان الرابع من ناحية المنزل الكبير ومجاورًا للأخير . جلس على مقعد هزاز كان هناك وكرس اهتمامه من جديد فى قراءة الجريدة . كان اليوم : الأحد ، وكانت الجريدة التى بين يديه جريدة السبت؛ فجرائد الأحد لم تكن قد وصلت إلى جراند آيل بعد . مر بعينيه على

صفحة المال والاقتصاد ، وألقى نظرة سريعة على عناوين الأخبار التى لم يتح له قراءتها قبل أن يغادر نيو أورليانز أمس الأول .

كان السيد پونتلييه فى الأربعين من عمره لا تغادر النظارة عينيه ، متوسط الطول ضامر الجسم ، ذا انحناءة خفيفة عند منكبيه . أما شعره فقد كان بنيًا سبطًا ، ومفروقًا عند جانب من رأسه ، وكانت لحيته منسقة متقنة التهذيب . غادرت عيناه الجريدة بغتة وألقى نظرة على ما حوله . كانت الضوضاء أكثر من المعتاد ، وكان المنزل الرئيس يدعى المنزل تمييزًا بينه وبين الشاليهات الصغيرة التى تنتشر فى المكان . لم يغادره الطائران ، وإنما كانا يملآنه ثرثرة وصفيرًا . كان الصغيران توءما فاريڤال يعزفان لحنًا ثنائيًا من أوبريت زامبا على البيانو ، فى حين كانت مدام لبرن تروح وتجىء فى نشاط صاخب دون أن تمل من إصدار الأوامر للخادم بصوت متميز كلما دخلت ، ولا تمل من إعطاء توجيهاتها بنبرة حادة عالية للطباخة كلما خرجت . كانت سيدة طلقة الوجه مفعمة بالنشاط أنيقة الملبس ، ترتدى فستانًا أبيض على الدوام بأكمام تغطى مرفقيها ، تتغضن تنورتها المنشية فى غدوها ورواحها . ثمة سيدة أخرى تمشى متثاقلة أمام أحد تلك الشاليهات الصغيرة ، مشغولة فى إحصاء حبات مسبحتها فى طمأنينة واضحة . لقد قدم عدد لا بأس به من سكان البنسيون إلى تشنيير كامينادا فى مركب شراعى لحضور القداس ، بينما كان

بعض الشباب مشغولين بلعب الكروكى تحت أشجار البلوط المائى . كان طفلا السيد پونتلييه هناك أيضًا مفعمين بالحيوية والنشاط ، أحدهما فى الرابعة من عمره والآخر فى الخامسة ، ومربية نصف زنجية تتبعهما أينما ذهبا بترفع حالم وطبع متأمل .

أشعل السيد پونتلييه سيجارة وشرع يدخن تاركًا الصحيفة تغادر يده دون اكتراث بعد أن تحولت عيناه إلى مظلة تمشى الهوينى قادمة من جهة الشاطئ . استطاع أن يراها بوضوح من خلال جذوع أشجار بلوط الماء المتباعدة وعبر نباتات البابونج الصفراء . بدا البحر بعيدًا وذابت زرقته فى زرقة الأفق على نحو غامض . اقتربت المظلة ببطء وعرف أن ظلها القرمزى كان يحتوى زوجته مدام پونتلييه والشاب روبرت لبرن ، وعندما وصلا إلى المنزل جلس الاثنان على آخر درجة من درجات سلم المدخل كل فى مواجهة الآخر يتكئ إلى عمود وقد بدا عليهما الإعياء الشديد . قال السيد پونتلييه :

– من الحمق أن ننزل البحر فى ساعة كهذه ودرجة حرارة كتلك ! !

لقد قام هو نفسه بجولة فى أول النهار ولهذا بدا له الصباح طويلاً . أضاف وهو يحدق فى زوجته كمن يمعن النظر إلى قطعة ثمينة من ممتلكاته أصابها عطب :

– لقد لسعتك الشمس كثيرًا !

رفعت يديها الجميلتين القويتين وتفحصتهما وهى تشد أكمامها الشاسية حتى رسغيها ، عندئذ تذكرت خواتمها التى أعطتها لزوجها قبل أن تذهب إلى الشاطئ ، وعندما اقتربت منه فى صمت فهم ما كانت تريده ، وأدخل يده فى جيب صدرته ، وأخرج الخواتم ووضعها فى راحة يدها المفتوحة ، وأعادتها إلى أصابعها . التفتت إليه وهى تتحسس ساقيها وراحت تضحك . كانت الخواتم تلمع فى أصابعها ، أما هو فقد رد عليها بابتسامة مهذبة ، وسألها وهو ينظر بفتور وبهجة مفتعلة إلى أصابعها :

- ما هذا ؟

لم يهتم عندما أرادت أن تقص له مغامراتها فى مياه البحر . لقد كانت لديه حكاية مماثلة . وبدا لهما أن مثل هذه الحكايات لا تستحق الاهتمام . تثاءب السيد پونتلييه وتمطع ثم نهض وهو يقول إنه لم يكن فى كامل عقله حين عرج إلى فندق كلن ولعب البلياردو . عرض على روبرت أن يذهب معه إلى لبرن ! ولكن روبرت قال إنه يفضل المكوث فى مكانه والتحدث مع مدام پونتلييه . قال لإدنا وهو يهم بالذهاب :

- حسنًا ! دعيه وشأنه عندما تملينه يا إدنا !

- عندئذ هتفت به إدنا وهى تمد يدها :

- خذ الشمسية معك !

تناول الشمسية وأرسلها فوق رأسه وشرع يخطو درجات

السلم . . وذهب . قالت زوجته فى إثره :

- هل ستعود للعشاء ؟

توقف لحظة وهز منكبيه وتحسس جيب قميصه ليتأكد من وجود الدولارات العشرة . ربما يعود وربما لا يعود ، يرجع ذلك لعدد الأصدقاء الذى سيجده هناك فى فندق كلن وطبيعة اللعبة . لم يقل ذلك ولكنها فهمت وضحكت وهى تلوح له بتحية الوداع . تشبث الطفلان بالأب عندما هم بالذهاب ولكنه قبلهما ووعدهما بالبونبون والفول السودانى .

- ٢ -

كانت عينا مدام بونتلييه قلقتين تشعان سحرًا ، يغلب عليهما اللون البنى الضارب إلى الأصفر القريب من لون شعرها . كانتا تتحركان فى وجهها حركات سريعة ثم لا تلبثا أن تثبتا على شىء ما وكأن مدام بونتلييه قد غابت عن الوعى فى نوبة من التأمل والتفكير العميق .

أما حاجباها فقد كانا أكثر سوادًا من شعرها . كانا كثيفين ومشرعين مما يزيد من عمق عينيها . كانت بادية الأناقة يقطر وجهها بالجاذبية بفضل تعبيراته الصريحة وملامحه التى يشوبها تناقض فتان . كانت ساحرة .

كان روبرت مشغولاً فى إعداد سيجارته؛ فهو يدخن السجائر ، لأنه لم يكن فى وسعه الإنفاق على السيجار كما قال .

كان لديه سيجار أهداه له السيد پونتلييه ، يدخره لما بعد وجبات العشاء . لم يكن يبدى امتعاضًا من ذلك ولا ضيقًا . لم يكن فى مظهره مختلفًا عن صاحبه : وجه نظيف باش ، وذقن محلوق ، وعينان تنطقان بالسعادة ، ولا يبدو أنّ همًا يستولى عليه . تستجمع عيناه قوتهما لتعكس حرارة الصيف وكسله .

تناولت مدام پونتلييه مروحة مصنوعة من سعف النخل ، كانت هناك فى الشرفة ، وشرعت تذب بها الذباب بينما راح روبرت يرسل سحب الدخان المتقطعة من سيجارته . بدأ يبادل إدنا أطراف الحديث حول مثبطات الحياة . حكت له عن غوصها فى الماء وعن الريح والأشجار والناس الذين ذهبوا إلى تشنيير ، وعن الصبية الذين كانوا يلعبون الكروكى تحت أشجار البلوط المائى ، وعن توءمى فاريڤال اللذين يقدمان أوبرت « الشاعر والفلاح » . تحدث روبرت كثيرًا عن نفسه . كان شابًا غرًا يفتقر إلى خبرة السنين . تحدثت مدام پونتلييه عن نفسها قليلاً . كان كل منهما ينصت لما يقوله الآخر . كشف روبرت لها عن نيته فى الذهاب إلى المكسيك فى الخريف القادم حيث الثروة فى انتظاره . كثيرًا ما أفصح عن نيته فى الذهاب إلى المكسيك ولكنه لم يذهب قط . ظل متمسكًا بوظيفته المتواضعة فى مؤسسة تجارية فى نيو أورليانز ، ولم يشفع له حسن اطلاعه على الإنجليزية والفرنسية والإسبانية فى أن يحسن مركزه الوظيفى .

كان روبرت يقضى إجازة الصيف ، كما اعتاد دائمًا ، مع

والدته فى جراند آيل . وفى أيام سابقة لا يتذكرها ، كان المكان بمنزلة المصيف لعائلة لبرن . الآن وقد أحيط بدستة من الأكواخ تمتلئ على الدوام بزوار معروفين من الحى الفرنسى ، فإن البيت لم يزل قائمًا يؤكد على حق مدام لبرن فى ملكية المكان الذى ولدت فيه . تحدثت مدام پونتلييه عن مزرعة والدها فى الميسيسيبى ، والدار القديمة التى نشأت فيها كفتاة فى ريف كنتكى الذى يغطيه العشب الأزرق على الدوام . كانت سيدة أمريكية تجرى فى عروقها دماء فرنسية بدت ضائعة فى غمرة الاختلاط وتعاقب السنين . قرأت خطابًا من أختها التى كانت فى رحلة سياحية فى الشرق وعرفت منه أنها تشغل نفسها الآن بالإعداد للزواج . كان روبرت مهتمًا بمعرفة الفتاتين وطبيعة أبيهما وأخبار الأم قبل رحيلها . وعندما طوت مدام پونتلييه خطاب أختها كان الوقت قد حان لتناول العشاء . قالت وهى تتفحص الاتجاه الذى اختفى منه زوجها :

- أرى أن ليونس لن يعود !

وقال روبرت إنه لن يعود لأنه سيجد الكثير من أصحابه فى نادى نيو أورليانز فى كلن . وعندما غادرته مدام پونتلييه ، ودخلت حجرتها نزل الدرج واتجه صوب لاعبى الكروكى ، حيث راح يسلى نفسه خلال نصف الساعة التى سبقت العشاء بطفلى پونتلييه اللذين كلفا به وأحباه .

كانت الساعة الحادية عشرة عندما عاد السيد پونتلييه من فندق كلن فى تلك الليلة . كان يحس بنشوة عالية وثقة مهيمنة ويكثر من الكلام إلى حد الثرثرة . أيقظ زوجته التى كانت فى سريرها تغط فى نوم عميق . بدأ يتحدث معها وهو يتخفف من ملابسه . حكى لها عن نوادره وأخباره وما جمعه خلال يومه وما وقع بين الناس من القيل والقال . ثم أخرج من جيب بنطاله حفنة من أوراق العملة المتغضنة وعددًا من العملات الفضية التى اختلطت فى جيبه مع المفاتيح والسكين والمنديل وكل ما تصادف وجوده فى جيبه يومئذ . أما هى فقد راحت تغالب النعاس وتجيبه عن أسئلته بإجابات مقتضبة مبهمة مما ثبط همته وأفتر حماسه . فزوجته التى يعدها مصدر حماسه للوجود لا يأنس منها اهتمامًا يذكر بالأمور التى تهمه ولا بحديثه كله .

لم يتذكر السيد پونتلييه أن يحضر معه البونبون والفول السودانى للصبيين رغم الحب الجم الذى يكنه لهما . وها هو ذا قد دلف إلى حجرة نومهما ليطمئن على حالهما ، فآذته الطريقة التى كانا ينامان بها على السرير فراح يعدل من وضعهما ، فى حين كان أحدهما يركل بساقيه ويهذى عن سلة مليئة بسرطان البحر أو شىء من هذا القبيل . عاد السيد پونتلييه إلى حيث ترقد زوجته ليخبرها بأن راؤول يعانى من حمى شديدة ويحتاج عنايتها

الفائقة ، ثم أشعل سيجارة وجلس قريبًا من الباب المفتوح وشرع يدخن .

كانت مدام پونتلييه تعلم أن راؤول لم يكن يعانى من الحمى ، فقد ذهب إلى فراشه وهو فى أحسن صحة ، ولم يعرض له شيء خلال يومه . وكان السيد پونتلييه يعرف أعراض الحمى ، وكان يعرف أن غناء الصبى أثناء النوم لا يعنى الإصابة بها . ولكنه راح يؤنب زوجته بسبب إهمالها وعدم اكتراثها المعتاد بالصبيين . فإذا لم تهتم الأم بأطفالها ، كما قال ، فمن يهتم بهم إذن ؟ إنه يأتى إلى البيت وقد جلب المال من مهنة السمسرة التى يعمل بها ، ولا يمكن أن يوجد نفسه فى مكانين فى وقت واحد : يكافح من أجل لقمة العيش خارج البيت ، ويمكث فى الوقت نفسه فى البيت ليعتنى بالصبيين . كان يتحدث بنبرة حادة حازمة . نهضت مدام پونتلييه من فراشها بسرعة وذهبت إلى حجرة الطفلين وما لبثت أن عادت لتجلس على حافة السرير وقد وضعت رأسها على الوسادة . لم تقل شيئًا ، ورفضت الإجابة عن أسئلة زوجها ، وعندما انتهى من سيجارته ذهب إلى فراشه ، وخلال نصف دقيقة كان قد غط فى نوم عميق .

لقد ذهب النوم من عينى مدام پونتلييه بعد هذا الفاصل من الشجار المفتعل . مسحت دموعًا انسابت على خديها بكم جلبابها . أطفأت شمعة تركها زوجها مشتعلة ، وأدخلت رجليها

العاريتين فى شبشب من قماش الستان عند حافة السرير وذهبت إلى حيث جلست على المقعد الهزاز وطفقت تتأرجح للخلف والأمام .

كان الليل قد تجاوز منتصفه . وكانت الشاليهات قد أطفأت أنوارها الزاهية ما خلا ضوء واحد ضعيف ينطلق من مداخل البيوت . لم يكن ثمة صوت فى الخارج إلا نعيب بومة عجوز على شجرة بلوط قديمة يستجيب لصوت البحر السرمدى الذى لا تكاد تسمعه فى ساعات هدوئه ، يخترق السكون مثل تهويدة حزينة فى جوف الليل .

امتلأت عينى مدام پونتلييه بالدموع حتى أن كم فستانها المبلل لم يعد يصلح لمسح الدمع المنساب . أمسكت مؤخرة المقعد بيد وقد انحسر كمها الواسع عن سمانة ذراعها المرفوعة ، وبحركة مفاجئة دست وجهها المتوتر المبتل فى ثنية ذراعها واستمرت فى النحيب دون أن تكترث لتجفيف وجهها وعينيها وذراعها من الدمع الذى انهمر . لم تكن تعرف لماذا كانت تبكى ، فلم يكن ما حدث من زوجها منذ ساعة بالشىء النادر فى حياتهما الزوجية . لم تكن هى ولا ولداها يقيمون وزنًا لعطف الأب وحنانه المفقود . امتلأ كيانها كله بِهَمٍّ لا سبيل إلى وصفه . أصبح الحزن مثل ظل ثقيل أو ضباب رقيق يجثو على روحها المعذبة . كان حزنًا غريبًا لم تألفه من قبل ، تمكن الآن منها حتى أصبح من

طبيعة حياتها . لم تجلس هناك لكى تلقى باللوم على زوجها فى قرارة نفسها ، وعلى القَدَرِ الذى قاد خطواتهما إلى الطريق الذى جمعهما . كانت تبكى لتخلص قلبها من هم طغى على مشاعرها المحبطة . راحت الحشرات تمرح من حولها ، وأخذ البعوض يعضها بقوة حول ذراعها ويقرص قدميها العاريتين .

استطاعت لسعات البعوض على ضآلة شأنها وأصوات الحشرات الهينة أن تخفف من الحالة التى كان يمكن أن تبقيها جالسة بقية الليل . وفى الصباح استيقظ السيد پونتلييه مبكرًا لكى يذهب إلى الميناء فى الوقت المناسب . كان عائدًا إلى المدينة ليباشر تجارته ، ولن يروه فى الجزيرة مرة أخرى حتى السبت القادم . لقد استعاد الآن هدوءه الذى أفسده ما حدث فى الليلة المنصرمة . ازداد شوقه إلى الذهاب؛ لأنه كان يتطلع لقضاء أسبوع مثير فى شارع كاروندلت .

أعطى السيد پونتلييه زوجته نصف النقود التى جلبها من فندق كلن فى المساء المنصرم . أخذت النقود برضى لا ينكر . كانت تحب النقود شأنها فى ذلك شأن جميع النساء . قالت وهى تحصى الورقات وتتحسسها واحدة واحدة .

- تكفى لشراء هدية أنيقة لچانيت أختى بمناسبة زواجها .

ولكنه ضحك وقال بينما كان يهم بتقبيلها قبلة الوداع :

- آمل أن نتمكن من شراء هدية أكبر من هذه لچانيت يا حبيبتى .

أسرع الطفلان يتعلقان بساقيه ويتوسلان إليه أن يحضر لهما الأشياء التى يريدانها . كان السيد پونتلييه محبوبًا من الجميع ، من السيدات والرجال والأطفال وحتى الخادمات كن يودعنه . وقفت زوجته تلوح وتبتسم ، وأخذ الصبيان يصيحان بينما هو يختفى شيئًا فشيئًا على الطريق الصخرى العتيق المؤدى إلى الطريق الرملى .

وبعد أيام قليلة تلقت مدام پونتلييه صندوقًا من نيو أورليانز . كان من زوجها ، وكان مليئًا بأشهى الطعام والحلوى اللذيذة والفطائر ، وزجاجة أو زجاجتين من شراب نادر ، وكمية كبيرة من البنبون . كانت مدام پونتلييه كريمة دائمًا عندما تصل مثل هذه الصناديق التى اعتادت عليها من زوجها الغائب . وضعت الفطائر والفاكهة فى حجرة السفرة ، وقامت بتوزيع البنبون على السيدات اللاتى رحن ينتقين منها بأصابع رقيقة وشىء من الشره وهن يعلن أن السيد پونتلييه أفضل زوج فى العالم ، واضطرت مدام پونتلييه إلى أن تقول إنها لا تعرف رجلًا أفضل منه .

- ٤ -

لم يكن من اليسير على السيد پونتلييه أن يثبت لنفسه أو لأى واحد آخر أن زوجته مقصرة فى واجبها تجاه زوجها وولديها . كان ذلك شيئًا يشعر به أكثر من أن يتلمسه بيديه وحواسه . لم يحدث أن عبر عن هذا الشعور دون ندم وكأنه اقترف ذنبًا . فإذا

وقع أحد الطفلين على الأرض وهو يلعب لا يندفع باكيًا إلى صدر أمه الحنون ، كان ينهض واقفًا ويزيل دموعه التى تقفز إلى عينيه ، والرمل من فمه ويواصل اللعب . كانت المعارك تحتدم بينهما وبين الأطفال الآخرين ، فيصر كل على رأيه ، وترفع القبضات والأصوات فى الهواء مما كان يلقى الخوف فى نفوس أقرانهم . وكانت المربية نصف الزنجية عائقًا كبيرًا فى نظرهم ، فهى لا تجيد تزرير الصدرات والبنطالات وتمشيط الشعر وفرقه حسب العرف السائد فى المجتمع .

باختصار لم تكن مدام پونتلييه أمًا وزوجة بما تحمله هاتان الكلمتان من معنى . الزوجات الأمهات هن من يأتين إلى جزيرة جراند كل صيف . تعرفهن وهن يضربن على صدورهن حين يتهدد فلذات أكبادهن خطر حقيقى أو خيالى ، يهمن حبًا بأطفالهن ويعبدن أزواجهن ويفسحن لهم مواقع مقدسة فى قلوبهن ، حتى إنهن يتحولن إلى أجنحة حانية أشبه بأجنحة الملائكة .

الكثيرات أحببن هذا الدور ووجدن فيه متعة ، منهن آديل راتجنول التى كانت آية فى الجمال والأنوثة الطاغية . لو لم يعشقها زوجها عشقًا لاستحق وصف وحش ينبغى أن يموت موتًا بطيئًا . لا توجد الكلمات التى يمكن أن تصفها إلا فى الروايات الرومانسية ، ولا توجد لها مثيلة إلا من بين بطلات الأحلام التى

هن من نسج الخيال . الحسن يقطن جسدها ، و الفتنة تشع من جوانبها . شعرها المنسوج من الذهب ترسله على ظهرها دون أن يرده دبوس أو يكبحه مشط . عيناها الزرقاوان أشبه بالياقوت الأزرق ، وشفتاها الناتئتان عليهما حمرة الكرز أو أية فاكهة أخرى لذيذة . تعلو جسدها بعض السمنة دون أن تنقص ذرة من ملاحتها التى تقطر منها فى كل خطوة ونأمة . لا يتمنى المرء أن تكون رقبتها أكثر امتلاءً ولو بمثقال حبة من خردل ، ولا أن يكون ذراعاها أكثر نحافة . لا توجد يدان أكثر إتقانًا من يديها . السعيد من يراهما وهى تخيط بإبرتها أو حين تعدل من الكشتبان المثبت على طرف خنصرها وهى تخيط قطعة من ملابسها التحتية أو تعدل من شأن صدارة فوقية .

كانت مدام راتجنول تحب مدام پونتلييه حبًا جمًا ، وكثيرًا ما كانت تشاركها فى الحياكة أو تذهب إليها لقضاء الأمسيات . كانت هناك فى مساء ذلك اليوم الذى وصل فيه الصندوق من نيو أورليانز . جلست على المقعد الهزاز وشغلت نفسها فى حياكة قطعتين صغيرتين من ملابس الليل التحتية . لقد أحضرت نموذج القطعتين لمدام پونتلييه لقصهما لأنها معروفة بمهارتها فى القص . كانت الملابس قد أعدت لحماية جسم الوليد وقت الشتاء حين تدخل تيارات الهواء الغادرة من مداخن البيت ، أو تقتحم تيارات البرد الماكرة الحجرات من خلال الثقوب والفجوات .

كانت مدام پونتلييه مطمئنة لتوافر الحاجات المادية لأسرتها ، ولم تر حاجة إلى صنع المزيد من ملابس الشتاء الليلية ، أو أن تشغل بذلك نفسها طوال الصيف . ولكنها لم ترد فى ذات الوقت أن تظهر بمظهر غير المهتم ، ولذا فقد أحضرت الجرائد وبسطتها على أرض البهو ، وبناء على تعليمات مدام راتجنول شرعت تقص نموذج الرداء المنيع .

كان روبرت هناك يجلس على المقعد نفسه الذى كان يجلس عليه الأسبوع الماضى ، فى حين جلست مدام پونتلييه على درجة السلم نفسها التى كانت تجلس عليها فى المرة الماضية ، تتكئ على العمود فاترة الهمة وبجوارها صندوق البنبون تمده بين الفينة والفينة للمدام راتجنول ، وفى كل مرة تقع مدام فى حيرة عند الاختيار ثم تستقر على قصبة من حلوى النوغة ، وتتساءل عن مقدار الدسم فى الحلوى ومدى الضرر الذى سوف يصيبها منه . لقد مضت سبع سنوات الآن على زواج مدام راتجنول ، وهى تضع مولودًا كل عامين . لديها الآن ثلاثة أطفال وتفكر فى الرابع . إنها تتحدث دائمًا عن حالتها الصحية دون سبب واضح لذلك .

راح روبرت يطمئنها ويؤكد لها أنه يعرف سيدة عاشت على حلوى النوغة طويلاً . . ولكنه لم يكمل بعد أن نظر إلى وجه مدام پونتلييه فكبح جماح نفسه وغير الموضوع تمامًا . ورغم أن مدام پونتلييه تزوجت من كريولى [١] إلاّ أنها لم تكن على وفاق

تام مع مجتمع الكريوليين ، لم تشعر بالألفة بينهم إلا بعد أن أصبحت واحدة منهم . إنهم يترددون على منزل لبرن هذه الأيام . إن الكريوليين يعرفون بعضهم بعضًا مثل أفراد الأسرة الواحدة ، بينهم أشد أواصر المحبة ، وتميزهم ميزة تعجب بها مدام پونتلييه أشد الإعجاب وهى الغياب الواضح للاحتشام المتكلف بينهم . لم تكن حريتهم فى التعبير مفهومة بالنسبة لها فى البداية ، ولكنها لم تكن تجد صعوبة فى عَزْوِهَا إلى البساطة المختلطة بالكبرياء التى كانت تبدو من طبيعة المرأة الكريولية .

تَمَلّك إدنا العجب حين حكت مدام راتجنول للسيد فاريڤال القصة الفظيعة لإحدى ولاداتها دون أن تدخر أية تفاصيل . كانت قدرتها على استقبال الصدمات يزداد مع الأيام ولكنها لا تستطيع أن ترد لون الدم الأحمر المتصاعد إلى وجنتيها . غير مرة كان يقطع دخولها قصة كان روبرت يسلى بها بعض النسوة المتزوجات ممن كن ينشدن التسلية .

ثمة كتاب كان ينتقل فى الفندق من حجرة إلى حجرة . وعندما جاء دورها لتقرأه قرأته وهى مندهشة . قرأته فى خلوة بعيدًا عن أعين الناس رغم أن أحدًا لم يفعل مثلها . كانت تخفيه عندما تسمع وقع أقدام قادمة . أما الكريوليون فقد كانوا يقرؤونه فى العلن ويتناقشون حوله دون حرج أو تحفظ مما جعل مدام پونتلييه تتوقف عن الدهشة وتعلم أن عجائب هذه الدنيا لا تنفد أبدًا .

كان الجميع فى جراند أيل يعرفون بعضهم بعضًا حق المعرفة ، مدام راتجنول تمارس الخياطة فى أوقات فراغها ، تتوقف بين الحين والآخر لتروى قصة أو حادثة طريفة بتعبيرات معبرة من يديها . أما روبرت ومدام پونتلييه فكانا يجلسان دون عمل ، يتبادلان كلمات أو نظرات أو ابتسامات بين الحين والآخر تدل على مرحلة متقدمة من الحميمية وطيب الصحبة ، توطدت بينهما طوال الشهر المنصرم دون أن يلتفت إلى ذلك أحد . كان الكثيرون يظنون أن روبرت سوف يخلص فى خدمة مدام پونتلييه عندما يصل . فمذ كان فى الخامسة عشرة أى منذ أحد عشر عامًا وروبرت يكرس نفسه خادمًا لسيدة من سيدات المجتمع البارزات أو حسناء شابة أو أرملة فاتنة أو حتى متزوجة جميلة فى كل صيف عندما يصل إلى جراند آيل . فى الصيفين الماضيين كان يقوم بخدمة الآنسة دوفچين . ولكن الآنسة دوفچين قضت نحبها بين الصيفين ، وحزن روبرت بعض الوقت . إنه الآن يجلس عند أقدام مدام راتجنول لعلها تمن عليه بعزاء أو تعاطف .

كانت مدام پونتلييه تحب الجلوس والتطلع إلى صاحبها الوسيم وكأنها تطالع وجه مريم العذراء . قال روبرت لنفسه :

إن وراء هذا المظهر الجميل قسوة كامنة ! هل تعرف أننى عشقتها حقًا ذات يوم ؟ كانت تقول : روبرت ، تعال هنا ، اذهب

هناك ، توقف ، اجلس ، افعل هذا ولا تفعل ذاك ، انظر إلى الوليد هل ينام؟ أعطنى كثتبانى من فضلك ، نسيت أين تركته ، تعالَ واقرأ هذه الجريدة وأنا أخيط هذه الملابس .

- حقًا ! لم أتوقف لأسأل نفسى ، لقد كنت دائمًا تحت قدمى مثل القط المزعج !

- تعنين مثل الكلب الولهان ، وعندما ظهر مدام راتجنول أصبحت مثل الكلب فقط .

ابتعد ، اذهب ، غادر المكان فى الحال ، مع السلامة .

قالت بسذاجة مفرطة جعلت الجميع يضحك .

- ربما خفت من غيرة ألفونس . اليد اليمنى تغار من اليد اليسرى ! والقلب يغار من الروح ! ولكن فى هذه الأمور لا يغار الزوج الكريولى أبدًا ؛ لأن عاطفته تضمحل بسبب البعد .

استمر السيد روبرت يحدث مدام پونتلييه عن عاطفة مقهورة شعر بها ناحية مدام راتجنول ، والليالى التى ظل فيها مؤرقًا ، والأوقات التى كان يظل فيها شاردًا يفكر وهو على شاطئ البحر أو يعوم فى الماء ، فى تلك الأثناء علقت المدام المنكبة على الإبرة تعليقًا مقتضبًا مفعمًا بالضيق :

- مهرج ، منكت ، دجال . . ابتعد عن هنا !

لم يكن يحب استخدام هذه اللغة التى تخلط الجد بالهزل

عندما يكون وحده فى معية مدام پونتلييه . ولم تكن هى تعرف بالضبط ماذا كانت ستفعل حيال هذه اللغة . عندئذ كانت ستجد صعوبة فى أن تفرق بين جده وهزله . كان أحيانًا يحدث مدام راتجنول حديث العشاق دون أن يأخذه أحد مأخذ الجد . كانت مدام پونتلييه سعيدة لأنه لم يتبن هذا الدور فى علاقتهما . وإلا لكان الأمر ثقيل الوطأة على نفسها .

أحضرت مدام پونتلييه أدوات القص والرسم التى كانت تتسلى بها على سبيل الهواية لا الحرفة . بيد أنها كانت تهوى الرسم حقًا . كانت تحس برضى وهى مشغولة بالحياكة لم تتحها لها هواية أخرى . لقد كانت تود لو تشتد الروابط بينها وبين مدام راتجنول التى لم تبدُ قبل اليوم أكثر جاذبية وحضورًا ؛ جالسة هناك أشبه بالعذراء مريم وقد تألق وجهها بآخر أضواء النهار الذهبية .

رقى روبرت الدرج وأجلس نفسه على درجة السلم عند أقدام مدام پونتلييه فاستطاع أن يرى ما تفعل . تناولت فرشها بأريحية وحرية اكتسبتها ليست من طول العشرة بقدر ما هى من استعداد فطرى جبلت عليه . راح روبرت يراقبها باهتمام بالغ بدا من عبارة هتف بها بالفرنسية يخاطب بها مدام راتجنول :

– لا بأس بما تفعله لأنها تتقنه ، فهى تحبه ولديها موهبة حقيقية فيه .

وفى غمرة اهتمامه أسند رأسه دون تفكير على ذراع مدام پونتلييه فردته فى رفق ، ولكنه كرر فعلته مرة أخرى وعزت ذلك إلى كثرة نسيانه دون أن تقنع نفسها بهذا السبب . لم تحتجّ ولكنها ردته أيضًا دون رقة بل بحزم واضح . ولم يقدم لها اعتذارًا .

ولم تكن الصورة المكتملة تشبه مدام راتجنول التى أبدت خيبة أملها عندما أحست بأن الصورة لا تشبهها ، بيد أنها قطعة من الفن الجميل على أية حال . ولكن مدام پونتلييه ألقت نظرة ناقدة على الرسم وألقت بكمية من اللون على سطحها وأخذت تغضن الورقة بين يديها فى غيظ .

أقبل الصغار يتشقلبون على السلم تتبعهم المربية الزنجية على مسافة متفق عليها بينها وبين الصبية . دعتهم مدام پونتلييه لحمل ألوانها وأشيائها إلى البيت بعد أن فكرت فى أن تستوقفهم لحديث قصير وبعض من مزاح ، ولكنهم كانوا فى شغل من أمرهم . لقد كان مجيئهم من أجل إلقاء نظرة فاحصة على صندوق البنبون . قبلا دون اعتراض ما اختارته لهما وكل منهما يمد يدين ريانتين بكفين تشبهان الملاعق الكبيرة طمعًا فى الامتلاء .

كانت الشمس تميل إلى الغروب ، وكان النسيم عليلاً قادمًا من الجنوب ، ضعيفًا محملاً بعبق البحر الفتان . كان الصبية يحتشدون استعدادًا لألعابهم تحت أشجار البلوط . سوف تعلو أصواتهم وتخترق الآذان بعد قليل .

نشرت مدام راتجنول أدوات الخياطة ووضعت الكشتبان بين إصبعيها والمقصات والخيط بدقة وعناية فى الأوراق التى ربطتها بدبابيس باهتمام فائق . أحست فجأة بدوار فأسرعت مدام پونتلييه إلى ماء الكولونيا ورشت بعضًا منه على وجهها بينما هرع روبرت لإحضار المروحة بحماس لا داعى له . ولم تلبث أن ذهبت النوبة ، ولكن مدام پونتلييه تساءلت عن أصلها وأرجعت ذلك إلى نوبة من الخيال الجامح استحوذت على صاحبتها؛ فوجهها لم يفارقه لونه الوردى .

وقفت تراقب المرأة الفاتنة وهى تقطع الصف الطويل من الشرفات فى خفة وجلال خليقين بالملكات . هرع صغارها لمقابلتها ، وتعلق اثنان منهم فى جونلتها البيضاء ، وتناولت الثالث من مربيته وحملته عند صدرها بعد أن أشبعته بالقبلات والملاطفات رغم أن الطبيب حذرها من رفع ما يرقى إلى وزن الدبوس . سألها روبرت كأنه يريد أن يذكرها :

- هل ستذهبين للاستحمام فى مياه الشاطئ؟

فأجابته فى نبرة مترددة :

- أوه ، لا ، أنا متعبة جدًا ، لا أعتقد أنى سأذهب .

وتعلقت عيناها بمياه الخليج وقد سمعت همس مياهه تناديها وتذكرها بعهد الحب الذى بينهما . عندئذ قال روبرت :

- أوه ، هلمى : لا يجب أن تفوتك الفرصة ، الماء لذيذ ، لن يؤذيك ، تعالى .

تناول قبعتها المصنوعة من القش المعلقة على مشجب خارج الباب ووضعها على رأسها ونزلا الدرج وقد تعلقت أنظارهما بالشاطئ . كانت الشمس تميل إلى الغروب وكان النسيم رقيقًا والدفء يشيع فى كل مكان .

- ٦ -

لم تعرف إدنا پونتلييه لماذا كانت تريد أن تذهب إلى الشاطئ مع روبرت . ولم تعرف لماذا تراجعت فى البداية ثم أذعنت لدوافع متناقضة لم تعرف لها كنهًا . ثمة ضوء خافت لاح فى داخلها؛ ضوء يهدى إلى الطريق ويضع المحاذير فى الوقت نفسه . كان ضوءًا مربكًا يحركها نحو الأحلام ، نحو التفكير الكثير ، نحو الحزن المبهم الذى سيطر عليها عند منتصف الليل عندما تركت نفسها نهبًا للدموع .

باختصار بدأت مدام پونتلييه تشعر بموقعها فى هذا الكون كإنسان . بدأت تدرك العلاقة بينها وبين العالم ، فى داخلها ومن حولها . تحول ذلك الإدراك إلى عبء ثقيل أكثر مما تحتمله روح امرأة فى ريعان شبابها ، امرأة لم تتعد الثامنة والعشرين من عمرها . حكمة أكثر مما تطيقها روحها الغضة ؛ حكمة فوق ما تمنحه الروح القدس لأية امرأة فى سنها .

ولكن هكذا تكون البدايات ، بدايات الإحساس بالعالم ، غامضة ومعقدة ، مشوشة ومربكة غاية الإرباك . القليل من نجا عندما داهمتهم لحظة الإدراك ، أرواح كثيرة تلاشت فى غمرة الاضطراب ! إن صوت البحر لساحر ! لا يتوقف عن الهمس ، لا يتوقف عن التصفيق ! لا يتوقف عن الهمهمة ! يدعو الروح للبحث عن سحر فى مهاوى الوحدة ، يدعوها للتيه فى مفازات التأمل الباطنى ! صوته يخاطب الروح ، ملمسه يدغدغ الحواس وهو يطوى الجسد فى عناقه الطرى الحميم .



كانت مدام پونتلييه سيدة انطوائية لا تحب إفشاء أسرارها للآخرين . حتى وهى طفلة كانت تغلق ذاتها على حياتها الصغيرة الخاصة . ولم تتعد طور الطفولة حتى أدركت بالفطرة كنه حياتها المزدوجة – ذلك الوجود الخارجى الذى كانت تحياه فى الواقع ، وتلك الحياة الباطنة التى كانت تسأل عن كنهها .

وكان ذلك الصيف فى جراند أيل فرصة لأن تتحرر قليلاً من عباءة التحفظ التى ارتدتها دائمًا . أية دوافع خفية أو ظاهرة تلك التى تعتمل داخلها وتدفعها إلى التفكير فى هذا الأمر ؟ أظهر ما نراه هو تأثير آديل راتجنول . وقعت فى البداية تحت تأثير فتنتها الكريولية الطاغية ؛ أذعنت لها إذنا إذعانًا بفضل ما لديها من شغف فطرى بالجمال يفوق شغف الآخرين . ثم تلك الصراحة

التى تكتنف وجود تلك المرأة وموقعها من الحياة الذى يصح أن يكون موضع تأمل الجميع ، ذلك الوجود الذى ناقض تحفظ إدنا المعتاد هو الذى وطد أسباب علاقتها مع الكريولية الفاتنة . من يعرف من أى معدن صاغ الآلهة فى قديم الزمان ذلك القيد الدقيق الذى نسميه عطفًا تارة وحبًا تارة أخرى .

ذهبت السيدتان إلى الشاطئ ذات صباح معًا وقد شبكا ذراعيهما تحت شمسية بيضاء كبيرة . أقنعت إدنا مدام راتجنول بأن تترك الأطفال فى البيت رغم أنها لم تستطع إقناعها بأن تتخلى عن حزمة صغيرة من شغل الإبرة . رجتها آديل أن تضعها فى قاع جيبها . لقد هربا من روبرت بطريقة لا يجد لها المرء مسوغًا .

لم يكن المشى إلى الشاطئ بالأمر الهين ، فالطريق رملى طويل تحفه النباتات المتشابكة التى تنتشر على جانبيه وتعترض العابر أحيانًا فيضطر إلى أن يغير وجهته . على جانبى الطريق ترى مساحات شاسعة من البابونج الأصفر ، وعلى البعد تكثر المزارع الخضراء وجنات البرتقال والليمون المتداخلة . كانت أشعة الشمس تلامس ذؤابات الأشجار الكثيفة وتستقر عند النباتات الخضراء الملتصقة بالأرض .

كانت السيدتان طويلتى القامة بشكل واضح ، أما مدام راتجنول فكانت أكثر أنوثة ووقارًا فى الوقت نفسه . وأما إدنا بونتلييه فكانت تمتلك فتنة الجسد التى تتسلل إلى قلب الناظر

إليها . جسد مفعم بالعافية وأناقة كاملة وأداء حركى رائع يفرض الإعجاب ويسلب الألباب . ليس هناك من علامة على أن هيئتها الأنيقة نتيجة تكلف أو تعمد مقصود؛ فالناظر إليها لا يذهب دون أن يلقى نظرة ثانية على ذلك الجمال النموذجى والاتزان الجميل فى الحركة والسكون ، وهى أمور جعلت إدنا پونتلييه تختلف عن سائر النساء .

كانت ترتدى ثوبًا من نسيج قطنى رقيق ذلك الصباح - أبيض بخط رأسى متموج مشوب باللون البنى ، وياقة بيضاء من الكتان ، وقبعة كبيرة مصنوعة من القش كانت معلقة على المشجب خارج الباب . كانت القبعة الثقيلة تستقر أينما وضعتها على شعرها الجميل الأصفر الضارب إلى البنى .

كانت مدام راتجنول أكثر حرصًا على بشرتها ؛ لأنها لفت حجابًا من الشاش على رأسها وارتدت قفازين من جلد الكلب يصلان إلى رسغيها ، وثوبًا من قماش أبيض بريش متجعد . وكانت الملابس المصنوعة من الجوخ الحريرى الرقيق التى كانت ترتديها تناسب جمالها المنمق الذى لم تنل منه بعض القسوة فى معالم جسدها .

قامت على طول الشاطئ عدد من الحمامات المفتوحة للجمهور ذات أبنية قوية رغم تجهمها ، تلحق بها بعض الشرفات الواقية المطلة على المياه . كان كل حمام يتألف من مقصورتين

تعود ملكيتهما إلى أسر لبرن ؛ كل أسرة تمتلك مقصورة خاصة بها مؤثثة بجميع لوازم السباحة وغير ذلك من لوازم الترفيه والترويح التى يرغب فيها المصطافون . لم تكن لدى السيدتين رغبة فى النزول إلى البحر . اقتصرت رغبتهما فى المشى على الشاطئ وتبادل الحديث على مقربة من المياه الساحرة غير البعيدة عن مقصورتى العائلتين اللتين كانتا فى بناية واحدة وتحت سقف واحد .

لقد أحضرت مدام پونتلييه مفتاحها كالعادة ، وعندما فتحت باب الحمام ودلفت إلى الداخل ظهرت مرة أخرى وفى يدها قطعة من البساط فرشتها على أرضية الشرفة ثم أحضرت وسادتين من الشعر وقد غطتهما بقماش خشن كانت تضعه أمام المبنى . جلسا هناك فى حماية ظل الشرفة دون مسافة كبيرة تفصل بينهما . أزاحت مدام راتجنول الحجاب ومسحت وجهها بمنديل ناعم وشرعت تجلب الهواء إلى وجهها بمروحة كانت تحملها على الدوام معلقة تحت إبطها بوشاح طويل . أزالت إدنا ياقتها وفتحت فستانها عند حنجرتها وتناولت المروحة من مدام راتجنول وشرعت تروح عن نفسها ورفيقتها . كان الطقس يميل إلى الحرارة فمكثا برهة يتبادلان الملاحظات حول حرارة الجو ووهج الشمس ، فى حين كان نسيم عليل يداعب وجهيهما بين الحين والآخر ، تعكر صفوه ريح قوية تحرك المياه للأمام بعنف

واضح ، ويدفع المرأتين إلى أن يعدلا من شأن قبعتيهما كلما تجاوزتا رأسيهما بفعل الريح . على البعد كان هناك عدد من الأشخاص الذين كانوا يربضون فى المياه ، وكان الشاطئ لم يزل يفتقر إلى الحركة البشرية التى تملؤه فى العادة . فى الشرفة المجاورة كانت هناك سيدة ترتدى السواد تقرأ من كتاب صلوات الصباح ، وعاشقان يتطارحان الغرام تحت خيمة مخصصة للأطفال وجداها خالية .

كانت إدنا پونتلييه تجول ببصرها فيما حولها من أشياء وفى النهاية ركزت النظرات على صفحة البحر . كانت السماء خالية من الغيوم مما جعل عينى إدنا تستشرف الأفق . رأت سحابات بيضاء معلقة على البعد تكاد تسقط . رأت شراعًا يسير فى اتجاه كات - أيلاند وأشرعة أخرى فى اتجاه الجنوب بدت ساكنة على مسافة بعيدة . سألت آديل رفيقتها التى تراقب نظراتها باهتمام بالغ وقد حارت فى تعبيرات وجهها الساكنة قريبة الشبه بالتمثال .

- فيمن كنت تفكرين ؟

وردت مدام پونتلييه بأنها لم تكن تفكر فى شىء ثم أردفت :

- يا للحمق ، لكن يبدو لى أنها الإجابة التى تصدر عنا دون وعى منا على سؤال كهذا . دعينى أرى .

ثم مالت برأسها للوراء وضيقت عينيها الرائعتين حتى لمعتا كنقطتين قويتين من ضوء ، واستمرت تقول :

– دعينى أرى ، حقيقة لم أكن واعية بشىء ؛ ربما كان فى وسعى أن استعيد أفكارى .

وضحكت مدام راتجنول وهى تقول :

– أوه ، لا يهمك ! سوف أسامحك الليلة ، الجو حار وغير مناسب لتفكير كهذا خاصة التفكير فى التفكير ذاته .

ولكن إدنا قالت بإلحاح :

– ولكن مصدر المتعة موجود ، التطلع إلى الماء وامتداده فى البعيد ، وتلك الأشرعة الساكنة على خلفية السماء الزرقاء ، لوحة فاتنة لا أمل من تأملها . إن الرياح الساخنة تصافح وجهى ، تدفعنى للتفكير فى يوم صيفى جميل قضيته فى كنتكى ، وفى المروج التى بدت فى حجم المحيط لفتاة مثلى صغيرة كانت تدوس أقدامها العشب الغض الذى كان يغازل خصرها ، تمد ذراعيها فى الهواء كما لو كانت تسبح وهى تمشى ، تضرب العشب الطويل أحيانا بكلتا يديها كالسابح فى الماء . إنى أتذكر الآن كل شىء وكأنه أمامى .

– وأين كنت ذاهبة ذلك اليوم فى كنتكى ، وأنت تسيرين وسط العشب ؟

– لا أتذكر الآن . كل ما أتذكره أنى كنت أسير مائلة عبر العشب الناعم ، أتأمل المشهد الأخضر أمامى ، ينتابنى إحساس

بأننى أريد أن أمشى إلى الأبد ، بلا نهاية . لا أتذكر هل كنت خائفة أو سعيدة ، لابد من أنى كنت أتسلى (أو أسرى عن نفسى) .

ثم ضحكت وقالت :

- أظن أنه كان يوم أحد ، لا أتذكر حقًا ، ولعلى كنت هاربة من الصلاة ، من هذا الطقس الدينى المشيخى ، أقرأ بشىء من الحزن باسم الأب الذى يقشعر له بدنى كلما فكرت فيه .

سألتها مدام راتجنول بشىء من الترقب :

- وهل ما زلت تهربين من الصلاة منذ ذلك الحين يا حبيبتى ؟

قالت إدنا بسرعة :

- كلا ، أوه ، كلا : كنت طفلة صغيرة قليلة العقل فى تلك الأيام ، كنت منقادة لهاجس خادع داخلى دون أن أسأل نفسى . بالعكس ، فى فترة من فترات حياتى كنت متدينة جدًا . وعندما وصلت إلى الثانية عشرة من عمرى ، وحتى الآن ، توقفت عن التفكير كثيرًا فى الدين ، أصبح عندى عادة أكثر من أى شىء آخر .

ثم توقفت إدنا عن الكلام وأمعنت النظر فى مدام راتجنول بعينين حائرتين وقد مالت إلى الأمام قليلاً لكى يقترب وجهها من وجه صاحبتها وقالت :

- تعلمين أن شعورًا يعتورنى بأنى أخطو فوق المروج

الخضراء مثلما كنت أفعل ذلك الصيف ، دون عمل أو هدف ، ودون تفكير أو غاية .

وضعت مدام راتجنول يدها على يد مدام إدنا پونتلييه التى كانت قريبة منها . ولما لم تأنس من إدنا اعتراضًا يذكر صفعت يدها مرة أخرى بقوة حانية وشرعت تلاطفها قليلاً بيدها الأخرى وهى تهمس بصوت منخفض :

- يا حبيبتى المسكينة .

أحست إدنا فى البداية بخجل شديد ، ثم لم تلبث أن تركت نفسها هدفًا سهلاً لملاطفة كريولية كريمة . لم تعتد عبارات الحب الشفهية الصريحة ، أن تقال لها أو تقولها لغيرها . كانت كثيرة الشجار مع أختها الصغرى ، چانيت ، عادة سيئة نشأ عليها منذ الصغر . أما أختها الكبرى ، مارجريت فقد كانت وقورة مبجلة ، ربما لأنها اضطلعت بمسئوليات جسام كربَّة بيت ومشرفة على أختيها منذ صغرها ، فقد رحلت الأم وهى لم تزل فى شرخ الشباب . كانت مارجريت عمليّة لا تسرف فى التعبير عن عواطفها . ولكن إدنا كانت تختار صديقاتها من الفتيات المتحفظات أيضًا ، ربما المصادفة وحدها هى التى كانت تقودها إلى ذلك النوع من الصديقات ، أو لعله الحظ وحده . إحدى صديقاتها كانت تتمتع بمواهب ذهنية خارقة ؛ تدبج المقالات الرائعة التى أعجبت بها إدنا أيما إعجاب ! وحاولت تقليدها والإكثار من الحديث معها فى كل

شىء ، أكثرا من دراسة عيون الأدب القديم ، ورتبا لندوات دينية وسياسية كانت موضع إعجاب هيئة التدريس .

كانت إدنا تعجب أحيانًا من نزعة تستبد بها ويضطرب لها كيانها الداخلى كله دون أن يظهر على هيئتها الخارجية شيئًا من ذلك الاضطراب . ففى سن مبكرة - ربما كان ذلك قبل أن تخطو على العشب الغض - كانت مفتونة بضابط فى سلاح الفرسان محترم المظهر يلمع فى عينيه بريق . كان هذا الضابط يزور أباها فى كنتكى . لم تكن تغادر مجلسه عندما يكون هناك ، تحدق طوال الوقت فى وجهه الذى كان يشبه وجه نابليون ، بخصلة من الشعر الأسود تتدلى على جبهته . ولكن ضابط الفرسان اختفى من وجودها دون أن تدرك لذلك سببًا .

وفى وقت آخر اتجهت عواطفها إلى شاب مهذب كان يزور سيدة فى مزرعة مجاورة . كان ذلك بعد أن ذهبوا إلى المسيسيبى للإقامة هناك . تزوج الشاب المهذب تلك مدام التى كان يزورها ، وكانا يزوران مارجريت فى بعض الأماسى ، يذهبون فى بوجيه فخمة [٢] كانت إدنا آنذاك فتاة صغيرة فى طور المراهقة يؤلمها إدراكها أنها لم تكن شيئًا بالنسبة للشاب المرتبط بالسيدة ، أحزنها أنه لم يكن يعرها انتباهًا . ولكنه هو أيضًا أصبح مجرد ذكرى واهية .

ولكنها كانت شابة يافعة فى ميعة الصبا عندما غازل أحلامها

أحد ممثلى التراچيديا الكبار ، تحولت المتيمة الحزينة إلى محبة حقيقية . كانت عاطفة جادة حقًا أخذت طابعًا نبيلاً مجللاً بالحزن الخفيف . لم تفارق صورة الممثل خيالها ، وظلت تحتفظ بصورة كبيرة له فى مكتبها مدة طويلة . وفى حضور الناس كانت تعبر دائمًا عن إعجابها به وبمواهبه الاستثنائية . وعندما تكون وحدها كانت لا تتردد فى أن ترفع الصورة إليها وتطبع قبلة حارة على جبين الرجل فتحس شفتاها برودة زجاج الإطار .

كان زواجها من ليونس پونتلييه مصادفة من المصادفات العارضة ، مثل زيجات كثيرة تبدو فى ظروفها أشبه بترتيب الأقدار . قابلته فى غمرة تأجج حبها السرى العظيم . ووقع هو فى غرامها كما يفعل سائر الرجال ، وألح فى طلب يدها إلحاحًا لم تجد معه قدرة على الرفض . ولم يترك لها شيئًا ترغب فيه إلا أحضره . إخلاصه الذى لاحد له أرضى غرورها وسوغ كبرياءها . بيد أنها انتظرت أن يشاركها ذوقها الفنى وحبها التفكير فلم يحدث . أضف إلى ذلك الرفض العنيف من جانب والدها وأختها مارجريت لزواجها من كاثوليكى ، ولا نجد داعيًا لأن نذكر الدوافع الأخرى التى دفعت بها إلى الزواج من السيد پونتلييه .

الزواج من الممثل التراچيدى ، حلمها الذى لم يتحقق ، قمة النعيم التى لم تدخرها لها الأقدار ، ظل يغازل أحلامها فترة بعد الزواج . ولكنها أخلصت للرجل الذى كان يعبدها من دون الله .

إخلاصه جعلها تتطلع للعيش فى عالم الواقع الذى يحفظ كرامتها مع رجل يحبها ويعجب بها ، فقررت أن توصد خلفها وإلى الأبد أبواب الرومانسية والأحلام .

ولم يمض وقت طويل حتى كان الشاب والممثل و ضابط الفرسان وآخرون غيرهم فى ذمة التاريخ ، ووجدت إذنا نفسها وجهًا لوجه أمام واقع الحياة . أغرمت بزوجها وأدركت ببعض الرضى الذى لم تكن تتوقعه أن آثار الحب القديم والعواطف الزائدة الخيالية لن تنال من حبها لزوجها وأولادها ولن تهدد أسرتها .

أحبت طفليها حبًا جمًا تارة وفاترًا تارة أخرى ، تضمهما إلى صدرها أحيانًا وأحيانًا أخرى تنساهما تمامًا . قضيا جزءًا من الصيف عند جدتهما فى آبرفيل دون أن تحس بحاجتها لرؤيتهما ماعدا نوبات من الحنين العارض كانت تنتابها بين الحين والآخر . لعلها كانت تحس أنهما سعيدان عند الجدة ، وكان غيابهما لونًا من الراحة التى تنشدها دون أن تقر بذلك فى قرارة نفسها ، يحررها من مسئولية أصبحت تضطلع بها دون أن تدرى ، ودون أن يعدها القدر لها إعدادًا حسنًا .

فى ذلك اليوم الصيفى الجميل ، عندما كانتا جالستين على الشاطئ ووجهيهما يصافحان البحر ، لم تخبر إذنا مدام راتجنول بكل شىء . لم تتذكر كل شىء فى الواقع . وعندما أسندت رأسها

على عاتق مدام راتجنول تورد وجهها بحمرة خجل ، تملكتها نشوة مع سماع صوت نفسها ، وطعم الصدق فى حديثها هز كيانها كما تفعل الخمر أو كما تفعل أولى نسمات الحرية .

هناك أصوات تقترب منهما . كان روبرت قادمًا تحيط به فرقة من الأطفال يبحثون عنهما . كان هو فى صحبة طفلى پونتلييه ، ويحمل بين ذراعيه ابنة مدام راتجنول . أطفال آخرون يحوطون به ومربيتان تسيران خلفهم يظهر الضيق على وجهيهما ولكنهما مستسلمتان . نهضت السيدتان فى الحال وشرعتا تتثاءبا وتنفضا ما علق بثيابهما من تراب . ألقت مدام پونتلييه بالوسادة وقطعة البساط فى حمام الشاطئ وراح الطفلان يعدوان إلى مظلة النافذة ويحدقان فى عاشقين لم يزالا هناك يتواعدان ويتأوهان . نهض العاشقان فى احتجاج صامت ومضيا ببطء بعيدًا عن المكان . سيطر الطفلان على الخيمة وذهبت مدام پونتلييه لكى تلحق بهما .

طلبت مدام راتجنول من روبرت أن يصحبها إلى البيت ، كانت تشكو من تشنج فى أطرافها وتيبس فى مفاصلها . اتكأت على ذراعه وكاد يجرها جرًا وهما يمشيان .

- ٨ -

قالت له وهى تخطو معه نحو البيت :

- اعمل فىّ معروفًا يا روبرت .

كانت خطواتهما بطيئة . وكانت تحدق فى وجهه وهى تتكئ على ذراعه تحت ظل الشمسية الذى احتواهما معًا والتى أرسلها فوق رأسيهما . قال لها وهو ينظر فى عينيها اللتين امتلأتا بالتفكير والأسئلة .

- تحت أمرك ، معروف واحد لا يكفى ، مستعد لأكثر من معروف .

- لا ، معروف واحد فحسب هو أن تدع مدام پونتلييه وشأنها .

هتف وهو يغالب ضحكة صبيانية مفاجئة :

- أوه ، يبدو أن مدام راتجنول غيورة !

- هراء ! أنا أعنى ما أقول فعلاً : دع مدام پونتلييه وشأنها .

سألها بعد أن بدأ يأخذ الأمر مأخذ الجد أمام إلحاح صاحبته .

- لماذا ؟

- لأنها ليست مثلنا ، قد ترتكب الخطأ الفادح وتأخذ تصرفاتك مأخذ الجد .

تورد وجهه ضيقًا ، وبعد أن خلع قبعته الناعمة أخذ يضربها بصبر نافد على ركبتيه أثناء المشى ، ثم قال لها بحدة :

- ولماذا لا ينبغى أن تأخذ تصرفاتى مأخذ الجد ؟ أترييننى ممثلاً كوميديًا أو مهرجًا ، أو عفريت علبة ، أو شيئًا من هذا القبيل ؟! لماذا لا يجب أن تأخذنى مأخذ الجد ؟! أنتم معشر

الكريوليين لا يحسن الصبر عليكم ! لماذا تنظرون إلىّ كمشهد فى برنامج مسلٍ ؟! أتمنى أن تأخذ مدام پونتلييه تصرفاتى مأخذ الجد . أتمنى أن يكون لديها من الذكاء ما يجعلها تجد فىّ شيئًا بجانب التهريج . لو كنت أعتقد أن هناك أدنى شك . . .

ولكنها صاحت به ردًا على غضبته العنيفة :

– أوه ، كفى يا روبرت : أنت لا تفكر فيما تقول . إنك تطلق نفسك فى الحديث مثلما يفعل الأطفال الذين يلعبون على رمال الشاطئ . لو كان اهتمامك بأية من النسوة المتزوجات هنا محل شك منا لما كنت الآن ذلك الرجل المهذب الذى نعرفه جميعًا ، ولما كنت موضع ثقة بنات ونساء الناس هنا .

تحدثت مدام راتجنول بما تعتقد أنه الحق والمنطق . وهز الشاب منكبيه بنفاد صبر ، وقال وهو يضع قبعته على رأسه من جديد :

– أوه ، حسنًا ! ليس الأمر كما تظنين ، عليك أن تعرفى أن مثل هذه الأمور لا تقال للأصدقاء .

– وهل تعتقد أن علاقتنا يجب أن تقتصر على تبادل التحيات فحسب ؟ عجبًا !

واستمر يقول دون اكتراث :

– لا يحسن أن تخبرنى به امرأة .

ولكنه توقف فجأة ثم قال :

- ثم إنى لست مثل أروبين ، هل تذكرين ألسى أروبين وقصته مع زوجة المستشار فى بيلوكسى ؟

وقص عليها قصة السيد أروبين وزوجة المستشار؛ وقصة أخرى عن مغنى الأوبرا الفرنسية الذى تلقى رسائل لم تكتب؛ وقصص أخرى جادة ومضحكة حتى نسيت مدام پونتلييه واحتمال أن تأخذ حديث الشباب مأخذ الجد . وعندما وصلا إلى كوخها دخلت مدام راتجنول لتخلد إلى الراحة ، وقبل أن يغادرها طلب روبرت منها العفو لحدته ، أو كما أسماها وقاحته التى قابل بها نصيحتها التى جاءت بسبب حسن نيتها . قال لها وهو يدارى ابتسامة خفيفة :

- لقد ارتكبت خطأ واحدًا يا آديل ، وهو أن مدام پونتلييه لن تأخذ تصرفاتى مأخذ الجد أبدًا . كان يجب أن تحذرينى من أن آخذ نفسى مأخذ الجد ، كانت نصيحتك حينئذ ستستحق التأمل والتفكير . إلى اللقاء ، ولكنك تبدين مرهقة .

ثم أضاف :

- هل تريدين كأسًا من المرق؟ هل أعد لك بعض عصير النخيل؟ دعينى أخلط عصير النخيل مع قطرة من لحاء الشجر .

ووافقت على اقتراح المرق الذى كانت تحبه . وذهب إلى المطبخ الذى كان يقع وراء الحمام بعيدًا عن الشاليهات . أحضر لها المرق فى كأس من الخزف الفرنسى الأنيق مع رقائق من

البسكويت الناشف الهش . دفعت بذراعها الأبيض من خلف الستارة التى كانت تحمى بابها المفتوح ، وتلقت الكأس من يديه وأخبرته بالفرنسية أنه كان مهذبًا . وكانت تعنى ما تقول . وشكرها روبرت وقفل راجعًا إلى بيته .

كان العاشقان يهمان بدخول البنسيون يتكئ كل منهما على الآخر مثل أشجار البلوط المائى التى تلامس فروعها الشاطئ . لم يشعرا بخطواتهما من نشوة العشق التى مالت برأسيهما وكأنهما يدوسان بأقدامها على السماء الزرقاء . بدت السيدة التى كانت ترتدى الملابس السوداء وتزحف خلفهما شاحبة متعبة . لا علامة على وجود مدام پونتلييه والطفلين . قدر روبرت المسافة التى يمكن أن تفصل بينه وبينهم . سيبقيان بعيدًا حتى ساعة العشاء على أحسن تقدير . صعد الشاب إلى حجرة أمه على قمة البيت ، حجرة مبنية من زوايا غريبة وسقف منحدر على نحو شاذ . لها نافذتان واسعتان ناتئتان تطلان على الخليج . كانت قطع الأثاث فى الحجرة بعيدة عن الترتيب ولكنها عملية . كانت مدام لبرن مكبة على آلة الخياطة التى جلست أسفلها زنجية تدير بيديها مدوس الآلة . كانت الكريولية مهتمة بالحفاظ على صحتها .

وسار روبرت حتى أجلس نفسه على عتبة نافذة السقف المائل . أخرج من جيبه كتابًا وشرع يقرأ بحماس ، عرفنا ذلك من الدقة والسرعة التى كان يقلب بها الصفحات . أحدثت ماكينة

الخياطة قعقعة مدوية فى الحجرة ، كانت من طراز قديم ثقيل . وبين اللحظات التى تتوقف أثناءها الآلة كان روبرت وأمه يتبادلان نتفًا من محادثة متقطعة .

– أين مدام پونتلييه ؟

– هناك ، على الشاطئ ، مع الطفلين .

– وعدتها بأن أسلفها رواية لچونورت . لا تنس أن تأخذها معك عندما تذهب ، إنها هناك على رف الكتب على المنضدة الصغيرة . (عندئذ علا صوت قعقعة الماكينة لخمس دقائق أخرى) .

– إلى أين ذهب ڤكتور بالعربة ؟

– العربة ؟ ڤكتور ؟

– نعم ، رأيته هناك أمام البيت يستعد على ما يبدو للذهاب إلى مكان ما ؟

– ناد عليه . (قعقعة الماكينة مرة أخرى ، ولكن روبرت صاح بأعلى صوته صيحة حادة أشبه بالصفير لابد من أنها وصلت الجالسين على الشاطئ) .

– لن ينظر نحونا .

هرعت مدام لبرن إلى النافذة وهتفت بأعلى صوتها على ڤكتور مرتين وهى تلوح بمنديلها . ولكن الشاب كان قد ركب العربة وحث حصانه على الانطلاق . عادت مدام لبرن إلى

الماكينة وقد احمر وجهها من شدة الضيق . كان ڤكتور هو ابنها الأصغر وأخا روبرت . شاب متهور يميل إلى العنف مع إرادة لا يثنيها الفأس .

حينما تقولين شيئًا سوف أقنعه به بكل الحجج الممكنة .

- لو كان أبوك ما زال حيًا بيننا ! (قعقعة ، قعقعة ، قعقعة ، ثم توقف) .

كانت مدام لبرن تعتقد اعتقادًا راسخًا أن شأن الكون كله وكل ما يتصل به كانت ستصبح أكثر دقة ونظامًا لو لم يغادر السيد لبرن الدنيا إلى عوالم أخرى فى السنوات الأولى من حياتهما الزوجية .

- ماذا سمعت من مونتل ؟

كان مونتل رجلاً نبيلاً فى منتصف العمر ، كل طموحه فى هذه الحياة خلال السنوات العشرين الماضية هو أن يملأ الفراغ الذى تركه رحيل السيد لبرن . (قعقعة ، قعقعة ، ضربة مدوية ، قعقعة !) .

- عندى خطاب هنا .

وبحثت فى درج الماكينة وأخرجت الخطاب من قاع سلة أدوات الخياطة . يقول إنه يريد أن يخبرك بأنه سيكون فى فيراكروز فى بداية الشهر القادم . (قعقعة ، قعقعة) إذا كنت تنوى اللحاق به . (ضربة مدوية ! قعقعة ، قعقعة ، ضربة !) .

- ولماذا لم تخبرينى من قبل يا أمى ؟ أنت تعرفين أنى أريد . . (قعقعة ، قعقعة !)

- هل ترى مدام پونتلييه ومعها الطفلين ؟ سوف تتأخر على الغداء ثانية ، إنها لا تجهز نفسها للغداء إلا فى اللحظة الأخيرة (قعقعة ، قعقعة) إلى أين أنت ذاهب ؟

- أين الچونكورت ؟

- ٩ -

كانت الأضواء تحيل الصالة إلى نهار ، اصطفت المصابيح على الحائط كل على مسافة من الآخر حول الحجرة؛ أضيء كل مصباح إلى أقصى طاقته دون ظهور لدخان أو خوف من انفجار ، ازدانت المسافات بينها بأفرع جميلة قدت من أغصان أشجار البرتقال والليمون ، يتلألأ اخضرارها الغامق على نسيم الستائر البيضاء التى تحجب الشمس والتى تتجعد وتتدلى برفق مع هبوب النسمات العفية القادمة من الخليج .

كانت الليلة ليلة السبت بعد بضعة أسابيع من تلك المحادثة الحميمة التى دارت بين روبرت ومدام راتجنول عند عودتهما من الشاطئ . حشد من الأزواج والآباء والأصحاب جاءوا لقضاء عطلة الأحد ، سعداء بعائلاتهم معهم ، لا تضن عليهم مدام لبرن بالمساعدة المادية . وُضِعت الموائد فى ركن واحد من الحجرة ، ورُصت المقاعد فى صفوف وحلقات . استقرت كل أسرة على

مقاعدها المخصصة ، وشرع أفرادها يتبادلون أطراف القيل والقال ولم يزل المساء فى مستهله . استعد الجميع للاسترخاء والتحرر من كل توتر . اتسعت دائرة الإفضاءات واتسمت الحوارات بطابع شامل . أذن للصغار بالسهر إلى ما بعد الوقت المحدد لنومهم . منهم من كان يرقد على بطنه على أرضية الحجرة ويتطلع إلى الصفحات الملونة فى جريدة هازلة فى يد السيد پونتلييه . كان ذلك تحت سمع وبصر طفلى پونتلييه اللذين راحا يلوحان بسلطانهما عن كثب .

كان الضرب على الآلات الموسيقية والرقص وتلاوة الأشعار مرة أو مرتين هى كل مصادر التسلية فى تلك الليلة ، لم يكن هناك تنظيم مقصود أو علامة على ترتيب سابق أو تفكير فى ذلك . فى بداية السهرة ألح القوم على توءمى فاريڤال بالضرب على البيانو . كانتا أختين فى الرابعة من عمرهما ترتديان ملابس العذراء على الدوام ، اللون الأزرق بجوار اللون الأبيض ؛ لأنهما عقدتا العزم على خدمة العذراء منذ يوم عمادهما . ضربتا لحنًا ثنائيًا من الزامبا وتحت إلحاح الحضور أعقبتاه بمقدمة أوبرا «الشاعر والفلاح» .

« ابتعد عن هنا بالله عليك !» صاح الطائر المحاكى الذى كان يمتلك من الصراحة ما يجعله يقول إن هذه الألحان العذبة قد سمعها قبل ذلك كثيرًا خلال الصيف . استشاط السيد فاريڤال – جد التوءمين – غضبًا من صياح الطائر وأصر على إقصائه عن

المكان بعيدًا فى ركن مظلم . كان ڤكتور هو المعترض الوحيد وهو الوحيد الذى كانت أوامره تنفذ وكأنها الأقدار . ولحسن الحظ لم تصدر من الطائر أية مقاطعة أخرى خلال الحفل؛ لقد نفد جميع حنقه الذى حمله فى صدره حين صب غضبه على التوءمين فى ثورته العنيفة الماضية .

وبعد ذلك ألقى شاب وأخته أشعارًا كان الحضور قد سمعوها أيضًا مرات كثيرة فى أماسى الشتاء فى المدينة .

ثم قامت فتاة صغيرة ترقص رقصة شرقية وسط الحضور بينما راحت الأم تعينها على ذلك بالعزف وتراقب ابنتها بإعجاب شديد وخوف مشوب بقلق دون سبب معلوم . كانت الفتاة سيدة الموقف ، ارتدت أحسن الملابس للمناسبة ، ثوبًا حريريًا ضيقًا من التول الأسود الرقيق الذى انحسر عن رقبتها الصغيرة وذراعيها الجميلتين وشعرها الذى يقف أشبه بزغب أسود فوق رأسها . كانت حركات جسدها الرشيقة تقطر ملاحة ، وكانت مقدمة حذائها الأسود تنتقلان فى حركات رشيقة إلى أمام وفوق بسرعة مباغتة تذهب العقول .

لم يكن هناك ما يدعو لأن يمتنع الجميع عن الرقص . لم تستطع مدام راتجنول أن ترقص ، لكنها وافقت بكل سرور على العزف . كان عزفها رائعًا لا سيما فى تقديرها للمسافات الزمنية للفالس . كانت توحى للأوتار بألحان عذبة وتملأ البيت بالآلات

الموسيقية من أجل الأطفال كما تقول و كانت هى وزوجها يقولان إن الآلات الموسيقية تضفى على البيت جمالاً وتجعله جذابًا .

رقص الجميع تقريبًا فيما عدا التوءمين ، لم يغرهما أحد بأن تترك واحدة منهما الأخرى أثناء الوقفات القصيرة لتدور الحجرة بين ذراعى رجل . كان يمكنهما أن يرقصا معًا أيضًا ولكنهما لم يفعلا .

أرسل الأطفال بعد انقضاء الحفل إلى أسرتهم ، ذهب بعضهم دون مقاومة ، وذهب آخرون بعد صياح واحتجاج بينما كانوا يُجرون جرًا . لقد سمح الآباء بالسهر حتى بعد توزيع الآيس كريم ، الذى كان علامة على انتهاء اللهو .

دار الخدم بالآيس كريم والكعك الذى أخذ لونًا ذهبيًا ورُتب على أطباق فى شرائح متعانقة . قامت على صنعه وتجميده زنجيتان فى المطبخ ساعة العصر تحت إشراف ڤكتور . وكان الرأى أنه ممتاز مع حاجته إلى بعض الڤانيليا ومقدار قليل من السكر ، وكذلك إلى بعض البرودة الإضافية وعدم وجود ضرورة لإضافة الملح . ولكن ڤكتور كان تياهًا بما صنع ، وراح يحث الناس على التهامه ويشرح المقادير لمن يريد أن يحذو حذوه .

وبعد أن رقصت مدام پونتلييه مرتين مع زوجها ، ومرة مع روبرت ، ومرة مع السيد راتجنول الذى كان طويل القامة نحيف الجسم مما جعله يتمايل أثناء الرقص مثل عود من الخيزران تضربه

الرياح ، ذهبت إلى الشرفة وجلست على عتبة نافذتها حيث كان فى وسعها أن ترى كل ما يحدث فى الصالة وتتفرج فى الوقت نفسه على مياه الخليج . كان الشرق متألقًا بقدوم القمر الذى نشر أشعته الذهبية على صفحة الخليج والكائنات ، مرسلاً أضواءه الساطعة على المياه البعيدة التى لا تمل الحركة .

لحق بها روبرت فى الشرفة وسألها :

- هل تودين سماع الآنسة ريز وهى تعزف ؟

الحق أن إدنا كانت تحب سماع الآنسة ريز وهى تعزف ولكنها كانت تخشى أن تتوسل إليها دون جدوى . ولكن روبرت قال لها :

- سوف أطلب منها ، سوف أخبرها بأنك تريدين سماع عزفها ، إنها تحبك ولن ترفض .

واستدار وأسرع إلى أحد الشاليهات القريبة حيث كانت الآنسة ريز تروح وتجىء دون هدف على ما يبدو ، تمسك بمقعد تجره خارج حجرتها ، وتحتج بين الحين والآخر على صراخ طفل تحاول مربية فى الشاليه المجاور أن ترسله إلى مخدعه . كانت امرأة سيئة الطبع قليلة الجسم غادرها الشباب منذ زمن ، ميالة إلى العراك لم يسلم من لسانها أحد ، ذات مزاج حاد أنانى ونزعة عدوانية لا تأبه بحقوق الآخرين . أما روبرت فقد كان يغلبها على أمرها دون صعوبة تذكر .

دخلت معه الصالة أثناء التوقف المؤقت للموسيقى والرقص . انحنت لدى دخولها بطريقة متعالية وخاطفة أثارت سخط الحضور . هيئتها بسيطة ووجهها شاحب صغير وجسمها نحيف وعيناها لامعتان . لا حظ لها من ذوق فى اختيار ملابسها ، تضع على عاتقها خليطًا فجّا من أشرطة الزينة عتيقة الطراز مع مجموعة من نباتات البنفسج الاصطناعية ثبتت بدبوس على جانب من شعرها .

سألت روبرت :

– لماذا لا تسأل مدام پونتلييه عما تحب أن أعزف لها ؟

وجلست إلى البيانو صامتة دون حراك ودون أن تمتد أصابعها إلى المفاتيح بينما حمل روبرت رسالتها إلى إدنا عند النافذة . انتاب الجميع لدى دخول العازفة شعور بالدهشة والارتياح الحقيقيين . ساد الهدوء وشاع جو من الترقب والحذر . أحست إدنا بقليل من الارتباك لأن العازفة المتغطرسة قد خصتها دون غيرها بهذه المجاملة . ولم تجرؤ على أن تختار ، ورجت الآنسة أن تختار ما ترى فذلك يرجع إلى ذوقها الطيب .

كانت إدنا تحب الموسيقى حبًا جمًا . أثارت الألحان فى روحها خليطًا من الذكريات . كانت كثيرًا ما تجلس فى الحجرة كل صباح عندما كانت مدام راتجنول تعزف أو تتمرن على العزف . أحد القطع الموسيقية التى كانت تعزفها المدام على

الدوام سمتها إدنا «العزلة» . كان لحنًا حزينًا تعلوه كآبة . كان اسم اللحن شيئًا مختلفًا ولكن إدنا سمته «العزلة» . عندما سمعته تخيلت رجلًا يقف إلى جوار صخرة منعزلة على الشاطئ ، عاريًا تمامًا مستسلمًا بائسًا فيما كان ينظر إلى طائر بعيد يطير بعيدًا عنه .

لحن آخر كان يجعلها تستحضر صورة امرأة فى أول الشباب ترتدى ثوبًا ملكيًا وتسير بخطوات راقصة رشيقة فى شارع كبير بين سياج من شجيرات كثيفة . ومقطوعة أخرى كانت تذكرها بأطفال يلعبون ، وأخرى لا تذكرها بشىء غير سيدة رزينة تلاطف قطة .

وما إن جلست الآنسة ريز إلى البيانو ولامست مفاتيحه حتى سرت فى جسد مدام پونتلييه رعشة فرحة أحست بها فى عمودها الفقرى . لم تكن المرة الأولى التى ترى فيها فنانًا يجلس إلى البيانو ويعزف عليه . ربما هى المرة الأولى التى كانت فيها مستعدة بكل وجدانها وآذانها لسماع الموسيقى ، ربما كانت تلك هى المرة الأولى التى تجد فيها كيانها كله مستعدًا للإذعان للحقيقة السرمدية . انتظرت قدوم الصور المادية التى ظنت أنها سوف تحتشد أمام عينيها مخضبة ببريق الخيال . انتظرت دون جدوى . لم تر أية صور للعزلة أو للأمل ، للحنين أو لليأس . ولكن هذه العواطف جميعًا كانت تغازل روحها بنشوة مسكرة ملحة مثل أمواج تضرب جسدها الرائع دون هوادة . ارتجفت ، اختنقت ببكاء النشوة ، تعلقت الدموع بعينيها وحجبت عنها الرؤية .

وعندما فرغت الآنسة من عزفها نهضت وانحنت على طريقتها

المتشامخة وغادرت الصالة دون أن تأبه بتصفيق المعجبين وعبارات الامتنان التى راح يطلقها الحضور . ولكنها وضعت يدًا حانية على عاتق إدنا عند مرورها بها وسألتها :

- حسنًا ، هل أعجبك عزفى ؟

ولم تكن المدام الشابة قادرة على الإجابة ، فقد تعلقت الكلمات بحلقها وأمسكت بيد الفنانة بيد متشنجة . ولاحظت الآنسة حالتها ودموعها التى تعلقت بأهدابها فمدت لها يدها الحانية مرة أخرى تربت على عاتقها وقالت :

- أنت من تستحقين العزف له هنا . هؤلاء الآخرين ! يا إلهى !

ومضت تراقب خطواتها وتتجنب الصدام ميممة شطر الصالة إلى حجرتها .

ولكنها لم تكن على صواب فى رأيها فى الآخرين ، فقد سرى سحر الألحان فى وجدان الجميع الذين راحوا يهتفون : « يالها من عاطفة ! يا لها من عازفة ! » ومن يقول : «لقد قلت إنه ما من أحد يستطيع أن يعزف موسيقا تشوبان مثل الآنسة ريز ! » ومن يقول : « تلك المقدمة الموسيقية ! يا إلهى ! لقد هزت كيانى كله ! » .

كان الليل قد قارب على الانتهاء ، وداعبت الحضور فكرة الانصراف . ولكن ربما كان روبرت هو الذى فكر فى الذهاب إلى

المياه مرة أخرى فى تلك الساعة الساحرة وعلى مرأى من ضوء القمر الخلاب .

- ١٠ -

لقد اقترح روبرت هذا الاقتراح على أية حال ، ولم يسمع صوت احتجاج . لم يرفض أحد من بين الحاضرين أن يتبعه إلى الشاطئ . أرشد الناس إلى الطريق ولكنه لم يكن أمامهم ، تلكأ حتى أصبح خلفهم بين العشاق الذين أبدوا استعدادًا للتخلف . مشى بينهم دون أن يدرك أحد مقصده .

كانت أسرتا پونتلييه وراتجنول يمشون فى الأمام؛ النساء يتكئن على أذرع أزواجهن . كانت أذنا إدنا تلتقط صوت روبرت الذى يمشى خلفهم ، وأحيانًا كانت تسمع ما كان يقول . تساءلت لم لم يلحق بهم؟ مثله لا يفعل ذلك . تذكرت حين كان يغيب عن ناظريها يومًا كاملاً ، ليزداد شوقه شوقًا ، حتى إذا ما تم اللقاء يجد حلاوة فى تعويض ما فات . تاقت إليه خلال الأيام التى غاب فيها لأمر ما مثلما يتوق المرء للشمس فى يوم غائم دون أن يفكر كثيرًا فى الشمس حين تسطع .

كان الناس يسيرون فى جماعات صوب الشاطئ يتبادلون أطراف الحديث ويضحكون ، وقليل منهم يرفع عقيرته بالغناء . ترامى إلى أسماعهم صوت الألحان الصادرة من فندق كلن؛ صوت فاتر يأتى من بعيد . وانتهت إلى أنوفهم رائحة غريبة قادمة

من الشاطىء ، رائحة أعشاب بحرية ورطوبة ، أو رائحة أرض حديثة العهد بالحرث ، مختلطة بعبير غيطان الزهور البيضاء تحيط بهم من كل جانب . وكان الليل قد بدأ يفقد سلطانه على البر والبحر . وبدأت جحافل الظلام تلملم أشلاءها الباقية من ظلال واهنة . وبدأت أضواء القمر البيضاء تغزو العالم كأحلام الليل ورقته .

وطئت أقدامهم المياه ، مشوا فوقها كأنهم يمشون على شيء لا تمله الأقدام . البحر الآن فى هدوئه العذب ، ترتفع أمواجه فى كسل تذوب الواحدة فى الأخرى بعيدًا قبل أن تصل إلى الشاطئ على هيئة فقاعات رغوية تلوى راجعة أشبه بحبات بطيئة بيضاء .

لقد حاولت إدنا مرارًا أن تتعلم العوم طوال الصيف . استقبلت النصائح من الرجال والنساء على السواء؛ وأحيانًا من الأطفال . أما روبرت فقد ساعدها بعدد وافر من الدروس التى لم تنفع وأسلمته فى نهاية المطاف إلى يأس كامل من حالتها . يستولى عليها فزع لا سبيل إلى رده حين تحملها المياه ، فزع يكاد يقتلها حتى تحس بأن يدًا تمتد إليها ، يدًا قريبة تطمئنها .

لكن إدنا كانت تلك الليلة مثل طفل يترنح ويتعثر ويتشبث عندما أحس فجأة بقواه العضلية تعينه على المشى لأول مرة فى حياته ، بثقة بنفسه ودون مساعدة من أحد . أحست بأنها تريد أن

تصرخ من شدة الفرح . لقد صرخت فعلاً من شدة الفزع ؛ فقد رفعت جسدها فوق المياه بحركة أو حركتين من ذراعيها .

استولى عليها إحساس غامر بالسعادة ، وكأنها أعطيت قوة هائلة ملكت بها جسدها وروحها . وازدادت جرأة وتهورًا ، وبدأت تغالى فى تقدير قوتها . أرادت أن تسبح إلى أبعد مما يطمح غيرها من النساء . كان إنجازها غير المتوقع سبب دهشة الجميع وتصفيقهم وإعجابهم . هنأها الجميع ، وكل هنأ نفسه ظنًا منه أن دروسه هى التى أفضت إلى تلك النتيجة المرجوة .

قالت فى سرها : « ياله من أمر سهل ! إنه لا شىء » ثم قالت بصوت عال : « لم أكتشف قبل الآن أن الأمر سهل للغاية . إنى أفكر الآن فى الوقت الذى قضيته أرش الماء على نفسى كالأطفال !» لن تشارك أصحابها الآن فى لعبهم ومبارياتهم ، أسكرتها نشوة النصر على المياه ، شرعت تسبح وحدها .

اتجهت بكل كيانها صوب البحر لتملأ ناظريها من الفراغ وتؤنس الروح بإحساس طارئ بالعزلة . يحمل إليها امتداد المياه اللانهائى خيالاً لذيذًا حين يلقى السماء التى أضاءها القمر ثم لا يلبث أن يذوب . بدت فى سباحتها على مقربة من المطلق الذى كان يهددها بالفقد . مرة واحدة نظرت خلفها وألقت نظرة على الشاطىء ، نحو الناس الذين تركتهم هناك . لم تقطع مسافة كبيرة – أى ما يمكن أن يعتبر مسافة كبيرة بالنسبة لسباحة خبيرة –.

ولكن المسافة كانت كبيرة فى نظرها ، هى التى لم تعتد امتداد المياه خلفها دون معين . أحست بالموت قريبًا منها ، أصابها رعب أذهل عقلها وأضعف تفكيرها ، ولكنها استجمعت قواها المضطربة واستطاعت أن تسترد اليابس من جديد .

لم تذكر لزوجها تفاصيل تلك التجربة وقربها من الموت والرعب الذى قابلته فى المياه ، لم تزد على أن قالت له : « ظننت أنى سأهلك هناك وحدى » . ولم يزد هو على أن أجابها باقتضاب : «لم تكونى بعيدة جدًا يا عزيزتى» . وذهبت إذنا بعدها إلى حمام الشاطئ وارتدت ملابسها واستعدت للعودة إلى بيتها قبل أن يترك الآخرون المياه . وحين شرعت تمضى وحدها أسرع الجميع بالنداء عليها ولكنها لوحت لهم بيد محتجة ومضت فى طريقها لا تأبه بصياحهم المتكرر .

قالت مدام لبرن التى كانت تستمتع بالمياه وخشيت أن يكون رحيل مدام پونتلييه المفاجئ سببًا فى التعجيل بنهاية هذه المتعة :

– أحيانًا أظن أن مدام پونتلييه سيدة متقلبة .

ووافقها السيد پونتلييه قائلاً :

– أجل إنها كذلك ، أحيانًا وليس كثيرًا .

لم تكد إذنا تتجاوز ربع المسافة إلى البيت حتى أدركها روبرت على حين غفلة . سألته دون أن تظهر ضيقًا أو تبرمًا :

– أوظننت أنى كنت خائفة بالفعل ؟

- لا ؛ كنت أعرف أنك لم تكونى خائفة .

- إذن ما الذى جعلك تلحق بى ؟ لماذا لم تبق فى مكانك مع الآخرين ؟

- لم أفكر فى ذلك قط .

- لم تفكر فى ماذا ؟

- فى أى شىء . ما الفرق ؟

- أنا متعبة جدًا .

- أعرف أنك متعبة .

- أنت لا تعرف شيئًا . ولماذا تعرف ؟ لم أكن منهكة القوى فى حياتى كما أنا الآن . ولكن الأمر ليس بالسيئ كلية . ألف إحساس انتابنى الليلة . لم أفهم أغلب تلك الأحاسيس . لا تفكر فيما أقول ؛ أنا أفكر بصوت عال وحسب . إنى أسأل نفسى هل ستثيرنى أية موسيقا كما أثار شجونى عزف الآنسة ريز الليلة ؟! هل ستمر ليلة أشبه بالليلة الفائتة فى حياتى بعد ذلك ؟! إنها ليلة مرت كالحلم . كان الناس حولى غرباء ، كائنات نصف بشرية . لابد من أن هناك أرواحًا كانت تهيم حولنا الليلة .

عندئذ همس روبرت :

- هناك أرواح ، ألا تعرفين أن اليوم هو الثامن والعشرون من أغسطس ؟

- الثامن والعشرون من أغسطس ؟

– أجل فى منتصف ليلة الثامن والعشرين من أغسطس ، حين يكون القمر بدرًا ينهض الشبح ، الذى مكث فى هذه الشواطئ قرونًا ، ينهض من الخليج ، وبرؤيته الثاقبة يبحث عن جسد فان ليسكنه بعض الوقت من أجساد الآدميين الذين يراهم يستحقون الارتفاع ساعات إلى عوالم السماء القريبة . لقد انتهى مسعاه بلا طائل وعاد مخيب الآمال إلى مياه البحر . ولكنه اليوم وجد مدام بونتلييه وأقسم ألا ينجيها من سحره . وربما لن تعانى مرة أخرى من آدمى أن يطأ ظل وجودها المقدس .

– لا تمزح الآن .

أحست بضيق لما ظنته عدم احترام من جانبه . لم يلحظ تضرعها ، ولكن طبقة صوتها الرقيق المفم بالشفقة كان أشبه باللوم . لم يستطع أن يفسر لها شيئًا ؛ لم يخبرها بأنه أحس بما تعانيه ، وأنه فهم كل شىء . لم يتفوه بكلمة غير أنه مد لها ذراعه ، ولم يترك لها الإرهاق فرصة للتراجع . لقد كانت تسير بمفردها بذراعيها المتدليتين إلى جنبيها فى تعب واضح ، تاركة تنورتها البيضاء تلامس الطريق الندى . أخذت ذراعه ولكنها لم تتكئ عليها . تركت يدها ترقد فى كسل فى يده وكأن أفكارها كانت هناك فى مكان آخر تسبق جسدها ، وتجاهد فى أن تلحق بها .

أعانها روبرت على الصعود إلى الأرجوحة الشبكية التى كانت

تتدلى بين عمود وجزع شجرة أمام الباب . سألها :

– هل ستنتظرين السيد پونتلييه هنا ؟

– أجل سوف أنتظره هنا . تصبح على خير .

– هل أحضر لك وسادة ؟

أجابت وهى تبحث عن الوسادة فى الظلام الجزئى :

– توجد واحدة هنا .

– ربما اتسخت من التراب ، فالأطفال يلقونها على الأرض .

– لا يهم .

وعندما وجدت الوسادة وضعتها تحت رأسها ، وتمددت على المقعد الهزاز وهى تأخذ نفسًا عميقًا . لم تكن إدنا سيدة متعالية أو صعبة الإرضاء . لم تكن ميَّالة إلى أن تضطجع على المقعد الهزاز ، وعندما فعلت ذلك لم يكن سعيًا للراحة الحسية ولكن ترضية لحاجة للاسترخاء بدت أنها تغزو جسدها كله . سألها روبرت وقد أجلس نفسه على حافة درجة من درجات السلم وأمسك بأحد حبال الأرجوحة الذى كان يثبت بالعمود :

– هل انتظر معك حتى يأتى السيد پونتلييه ؟

– إذا كانت هذه رغبتك . لا تحرك المقعد الهزاز . هل تتكرم وتحضر لى الشال الأبيض الذى تركته على عتبة النافذة فى البيت ؟

– هل تحسين بالبرد ؟

- لا ؛ ولكنى سأحس بالبرد قريبًا .

قال وهو يضحك :

- قريبًا ؟ أتعرفين كم الساعة الآن ؟ كم من الوقت سوف تنتظرين هنا خارج البيت ؟

- لا أعرف . هل تحضر لى الشال إذا تكرمت ؟

- طبعًا سأحضره .

ونهض روبرت من مكانه ومضى إلى البيت ليحضر لها الشال وهو يطأ العشب بقدميه وهى تراقب شبحه بينما يجتاز قطع الظلام تارة وبقع الأرض التى أضاءها القمر تارة أخرى . كان الوقت قد جاوز منتصف الليل ، وكان الهدوء قد بسط سلطانه على الكائنات .

وعندما عاد بالشال أخذته وأبقته فى يدها . لم تضعه حول جسدها .

- هل قلت إنه يمكننى أن أبقى حتى يعود السيد پونتلييه ؟

- قلت إنك تستطيع إذا كانت هذه رغبتك .

أجلس نفسه مرة أخرة ولف سيجارة وشرع يدخنها فى هدوء شديد . لم تتحدث مدام پونتلييه معه فى شىء . كان الصمت أبلغ من الكلمات ولو كثرت ، لم تكن الكلمات مهما كثرت تعبر عن إحساسها الأول بالرغبة أكثر من الصمت الذى لفهما فى جوف الليل . وعندما اقتربت أصوات المصطافين حياها روبرت

وانصرف . لم تجبه . وظن أنها نامت . ولكنها راحت من جديد ترقب شبحه وهو ينتقل بين ضوء القمر وعتمة الليل ذاهبًا إلى بيته .

- ١١ -

قال لها زوجها بعد أن فوجئ بها ترقد على المقعد الهزاز .

- ماذا تفعلين هنا يا إدنا ؟ ظننتك ذهبت إلى فراشك .

- ولكن زوجته لم تجبه ، وعندئذ سألها وهو يقترب من وجهها :

- هل أنت نائمة ؟

- قالت له بينما كانت عيناها تلمع ببريق قوى دون أن تحمل علامة على نوم وهما تنظران إليه :

- لا .

- هل تعرفين أن الساعة تجاوزت الواحدة ؟! تعالى .

- صعد الدرج ودخل حجرتهما . ولكنه ناداها بعد ذلك من داخل البيت بعد لحظات :

- إدنا !

أجابته :

- لا تنتظرنى .

قال لها بصوت مشوب بغضب :

– ستصابين بالبرد ، ما الذى يحملك على هذا ؟ لماذا لا تدخلين ؟

– ليس بالبرد الذى يخيف . ومعى شالى .

– الحشرات سوف تبتلعك .

– لا توجد حشرات .

سمعت وقع أقدامه وهو يتحرك داخل الحجرة . كانت حركاته تشى بنفاد صبر وغضب . فى الماضى كانت تذعن لرغبته بسرعة مدفوعة فى ذلك بعادة تأصلت فى طبعها ، لا بحكم الخضوع أو الطاعة لرغباته التى لا ترد ، بل لأن الاستجابة لرغباته أصبحت شيئًا تفعله دون أن تفكر فيه كالمشى والحركة والجلوس وأداء روتين الحياة اليومية المقسومة لكل حى منا . أعاد عليها السؤال بنبرة مشوبة بالحنان مفعمة بالتوسل :

– إدنا ، حبيبتى ، هل ستطول إقامتك خارج البيت ؟

ثم لم يلبث أن قال :

– لا تكونى حمقاء إلى هذا الحد لن أسمح لك بالمكث خارج البيت هكذا طوال الليل ، تعالى هنا فورًا .

اعتدلت فى جلستها على المقعد الهزاز ، أحست بأنها ازدادت تصميمًا على تصميم ، وعنادًا على عناد ، وجنوحًا للمقاومة لا يرده شىء . رجعت بذاكرتها لتتذكر هل كان زوجها يخاطبها فى الماضى بهذه اللهجة الآمرة ، وهل كانت تذعن

لأوامره ؟! الحق أنه كان يخاطبها بهذه اللهجة وكانت هى تذعن دون اعتراض ، إنها تذكر ذلك جيدًا ، ولكنها لا تذكر الأسباب التى دعتها إلى أن تذعن لرغبات زوجها إذعانًا ، ولم تكن تذكر كيف كان إحساسها فى تلك الأيام التى خلت . أجابته بنبرة مسيطرة :

– ليونس اذهب أنت ونم ، فأنا أنوى أن أجلس هنا بعض الوقت ، لا أرغب فى الذهاب إلى النوم الآن ، ولا أنوى ذلك ، ولا تتحدث معى بهذه اللهجة مرة أخرى ، فلن أرد عليك .

استعد السيد پونتلييه للنوم ، ولكنه فضل أن يجلس بعض الوقت ويشرب كأسًا من زجاجة يحتفظ بها فى الصوان الخاص به فى السفرة . فرغ من كأسه وحمل كأسًا آخر وذهب به إلى الشرفة وقدمه لزوجته التى لم تأبه به . رفع قدميه من فوق السور وعاد إلى الحجرة وشرع يدخن سيجارة . دخن سيجارتين ؛ ثم غاب داخل الحجرة وشرع يحتسى كأسًا آخر من النبيذ . رفضت مدام پونتلييه مرة أخرى أن تقبل كأسًا آخر قدمه لها . أجلس السيد پونتلييه نفسه مرة أخرى على مقعده وبعد مدة ليست بالقصيرة شرع يدخن مرة أخرى .

بدأت إدنا تحس كمن يستيقظ بالتدريج من حلم . حلم لذيذ ، غريب ، مدهش ؛ لتتحسس حقائق العالم المادى التى تأخذ بخناق روحها . وما لبثت الرغبة فى النوم أن غزت جسدها

كله ، وما لبثت أن اجتاحتها قوة روحية وافرة تركتها مفعمة بالسرور مستسلمة لأحوالها الراهنة .

وحانت أكثر ساعات الليل سكونًا ، الساعات التى تسبق الفجر ، عندما يبدو العالم وكأنه يحبس أنفاسه . كان القمر قريبًا من الأفق وقد تحول لونه من الفضى إلى النحاسى على صفحة السماء المستسلمة للكرى . أحجمت البومة العجوز عن النعيب ، وتوقفت أشجار البلوط المائى عن الأنين وهى ترسل أغصانها .

نهضت إدنا وهى تشعر بغصة من طول الرقاد على المقعد الهزاز . صعدت الدرج مترنحة من كثرة الإعياء ، عبثت بعمود وهى تكاد تنهار قبل أن تدلف إلى البيت . تحولت بوجهها إلى زوجها وقالت :

- هل تأتى الآن يا ليونس ؟

- نعم يا حبيبتى . بعد أن أنتهى من السيجارة .

كان يجيب من خلال سحب الدخان التى تخرج من فمه .

- ١٢ -

لم تستطع النوم إلا لسويعات قلائل . سويعات مليئة بالتعب مفعمة بالانفعال ، عكرت صفوها أحلام تعارض الواقع . استولت على جوارحها وأحاسيسها نصف المتيقظة هواجس مكتنفة بالغموض تركتها نهبًا لرغبة فى تحقيق غايات لا سبيل إلى تحقيقها . استقبلت أول ساعات الصباح الباردة بنشاط غير

معهود . قامت من سريرها وارتدت ملابسها . أشاعت برودة الصبح فى جسدها حماسًا لم تألفه ، ومنحتها قوة على قوة . على أنها لم تكن تبحث عن لحظات انتعاش أو تلتمس عونًا من أى مصدر للعون . كانت مذعنة لنداء داخلى ، لنوازع داخلية لا تعرف لها كنهًا ، وكأنها ألقت بنفسها بين أيدٍ غريبة تدير أحوالها المضطربة ، وكأنها نفضت يديها من كل مسئولية أو التزام .

كان الصبح فى أوله والناس ما فتئوا مذعنين لسلطان النوم . قلة منهم أفسد وقع أقدامهم صمت الفجر فى سعيهم إلى تشنيير لحضور القداس . بعض العشاق الذين بيتوا النية للذهاب إلى الشاطئ تسمع الآن همهماتهم ومشيهم فى الشارع . سيدة ترتدى ملابس سوداء تمسك فى يدها بكتاب صلوات الأحد ذى الغلاف المخملى ، وتحصى حبات مسبحتها ، ليست بعيدة عنهم . استيقظ السيد فاريڤال العجوز أيضًا فاتر الحماس . وضع قبعته المصنوعة من القش على رأسه وتناول مظلته من مشجبها فى الصالة وشرع يقتفى أثر السيدة التى ترتدى الأسود دون أن يلحق بها .

كانت الفتاة الزنجية التى تعتنى بماكينة خياطة مدام لبرن تكنس الشرفات شاردة الذهن . أرسلتها إدنا لإيقاظ روبرت .

- قولى له إننى ذاهبة إلى تشنيير ، قولى له أن يسرع .

ولم يلبث أن لحق بها . لم ترسل فى طلبه من قبل . لم يحدث أن سألت عنه من قبل . لم يحدث أن كانت فى حاجة إليه

قبل اليوم . أرسلت فى طلبه دون أن تظهر أنها أتت أمرًا جللا . ولكن وجهه كان مخضبًا بوهج هادئ عند المقابلة .

عادا إلى المطبخ لكى يحتسيا كوبًا من القهوة . لم يكن هناك وقت يكفى لأن يعرض الواحد منهما خدماته على الآخر . توقفا خارج نافذة المطبخ وانتظرا النادل حتى أعطاهما كأسى القهوة وقطعة من الكيك ، راحا يشربان ويأكلان على عتبة النافذة . قالت إدنا إن طعم الكيك لذيذ ، لم تكن تفكر فى القهوة ولا فى أى شيء . أخبرها بأنه قال لها قبل الآن إنها فى حاجة إلى الحذر .

قالت وهى تضحك :

– ألا يكفى أنى فكرت فى الذهاب إلى تشنيير ، والاستيقاظ ، هل أنا مضطرة إلى التفكير فى كل شىء كما يقول ليونس عندما يكون معكر المزاج ؟ أنا لا ألومه ؛ فهو لا يخرج عن صوابه إلا من أجلى . لم يكونا يتبعان طريقًا مستقيمًا أثناء سيرهما على الرمال ، وعلى مسافة ليست بعيدة أبصرا الموكب اللافت الذى يمضى نحو الشاطئ – العاشقان يتداعى الواحد منهما على عاتق الآخر فى زحفهما نحو البحر ، والسيدة التى ترتدى الأسود تحاول اللحاق بهما ، والسيد فاريڤال العجوز ، يمشى الهوينى ويحصى خطواته ، وفتاة إسبانية فى ميعة الصبا تمشى عارية القدمين وتضع على رأسها منديلا أحمر وسلة تتدلى من يدها تتوقف بين الحين والآخر خلف القافلة .

كان روبرت يعرف الفتاة وكان قد تحدث إليها ذات يوم فى قارب . لم يفهم أحد من الحاضرين ما كانا يقولانه . كان اسمها ماركويتا ، وكانت ماركويتا ذات وجه مستدير فاتن التقاطيع ، وعينين جميلتين سوداوين وكانت يداها صغيرتين وقد طوتهما طوال الوقت على سلتها ، وكانت قدماها عريضتين خشنتين . لم تجهد نفسها فى إخفائهما . نظرت إدنا إلى قدميها ولاحظت الطين الذى يملأ بين أصابعها البنية اللون .

تذمر بودليت لأنه رأى ماركويتا هناك تحتل حيزًا كبيرًا . والواقع أن الذى ضايقه هو رؤية السيد فاريڤال العجوز الذى كان يعتبر نفسه بحارًا أفضل من بودليت . ولكنه لا يصح أن يتشاجر مع رجل مسن مثل فاريڤال ، ولذا حول شجاره إلى ماركويتا . كانت الفتاة مثيرة للمشاكل من أول دقيقة وراحت تشكوه لروبرت ، ولكنها لم تلبث أن تحولت إلى الشتائم وهى ترفع رأسها وتخفضها وعينها على روبرت وفمها يسب بودليت .

كان العاشقان بمفردهما . لم يريا شيئًا ، لم يسمعا شيئًا . كانت السيدة التى ترتدى السواد تحصى حبات مسبحتها للمرة الثالثة . تحدث السيد فاريڤال الهرم دون انقطاع عن خبرته فى طريقة عمل القوارب ، ما يعرفه ولا يعرفه بودليت .

أعجب إدنا المشهد ، تفحصت ماركويتا بنظراتها ، مرت بعينيها على أصابعها القبيحة الملطخة بالطين ، ثم ألقت نظرة على

عينيها الجميلتين السوداوين . سألت الفتاة روبرت : لماذا تحدق فيّ هكذا ؟ فأجابها روبرت : لعلها معجبة بك ، دعينى أسألها » .

- لا ، هل هى حبيبتك ؟
- إنها سيدة متزوجة ، ولديها طفلان .
- أوه ، لقد هرب فرانشيسكو بزوجة سيلڤانو التى كان لديها أربعة أطفال . أخذا كل أمواله وواحد من أطفاله وسرقا قاربه .
- كفّى عن الكلام !
- هل هى تفهم كلامنا ؟
- قلت لك اسكتى .
- هل العاشقان هناك متزوجان ؟ أراهما يتكئان كل على الآخر .

قال روبرت وقد غالبه الضحك :

- لا ، طبعًا .

عندئذ قالت الفتاة وهى تقرع رأسها :

- لا ، طبعًا !

كانت الشمس قد اعتلت السماء وبدأت ترسل حرارتها إلى كائنات الأرض أحست إدنا بلسعاتها تستقر فى مسام وجهها ويديها بفعل النسيم العليل . أرسل روبرت مظلته على رأسها

ليدفع عنها غائلة الحر . وأثناء سيرهما الموارب فى المياه انتفخت أشرعة القارب بفعل الرياح التى ملأتها . وضحك السيد فاريڤال متهكمًا وهو ينظر إلى الأشرعة . وكان بودليت يسب الرجل المسن همسًا حتى لا يسمعه .

عندما كانت إدنا فى القارب تعبر الخليج إلى تشنييركاميندادا أحست كأن يدا تحملها بعيدًا عن مرفأها الآمن الذى طالما استقرت فيه . أحست بمن يطيح بحباله التى تشده إلى الشاطئ . لم يتوقف روبرت عن الكلام ، لم يعد يأبه بماركويتا التى كانت تحمل سلتها الخيزرانية المليئة بأسماك الروبيان التى غطتها الطحالب الإسبانية . راحت تضرب الطحالب بنفاد صبر وتدندن بصوت هامس فى حزن . قال روبرت فى صوت خفيض :

– لنذهب إلى جراند تير غدًا ؟

– وماذا نفعل هناك ؟

– نتسلق التل إلى القلعة القديمة ونتفرج على الثعابين التى تتلوى على الرمال ، ونشاهد السحالى وهى تتشمس .

تحولت إدنا بنظرها إلى جراند تير وفكرت فى رغبتها فى أن تكون وحدها مع روبرت هناك تحتمى بالشمس وتصغى إلى خرير مياه المحيط وتشاهد السحالى بمنظرها المنفر وهى تتلوى وتتضور جوعًا فى دخولها وخروجها بين أطلال القلعة القديمة . مضى روبرت يقول :

- وفى اليوم التالى أو الذى يليه قد نبحر إلى بايو بيرلو .
- وماذا نفعل هناك أيضًا ؟
- أى شىء ، نبحث عن طعم الأسماك .
- لا ، سوف نعود إلى جراند تير ، دع السمك فى حاله .

قال : سوف نذهب إلى المكان الذى تريدينه ، سأستدعى تونى لكى يصلح القارب ويجهزه . لن نحتاج إلى بودليت فى شىء ولا إلى أى أحد . هل تخافين ركوب الزورق ؟

- أوه ، لا .
- إذن سآخذك مرة فى زورق ، فى ليلة يكون فيها القمر ساطعًا . ربما همست لك الروح التى تسكن الخليج وتدلك على الكنوز المخبأة فى تلك الجزر ، أو تدلك على المكان بالضبط ، ربما .

ضحكت وهى تقول :

- ونصبح أغنياء بين يوم وليلة ! سوف أعطى كل شىء لك ، ذهب القراصنة وكل شىء من أى كنز نستطيع الوصول إليه . أظن أنك تعرف كيف تنفقه . ذهب القراصنة ليس شيئًا عاديًا يمكن أن تدخره أو تستغله . إنه شىء يجب أن تبدده وتلقى به فى وجه الرياح الأربع ، المتعة فى أن تشاهد حبات الكنز تطير فى الهواء .
- سوف نتقاسم كل شىء ، وننفق كل شىء معًا .

توهج وجهه باحمرار طارئ جعل قسماته تمتلئ بالحياة .

خفا للذهاب إلى كنيسة قوطية صغيرة قديمة الطراز تدعى « سيدتنا سيدة لورديز » تتألق بلون بنى يختلط بالأصفر وطلاء يلمع فى ضوء الشمس .

تخلف عنهما بودليت الذى كان يشغل نفسه بإصلاح قاربه ، وكانت ماركويتا تمضى بسلتها الممتلئة بأسماك الروبيان ، ترمق روبرت بنظرة عتاب وحزن من طرف عينيها .

- ١٣ -

استحوذ على إدنا شعور بالحزن يختلط بميل إلى النعاس أثناء القداس . بدأت تحس بصداع فى الرأس سبب لها القلق ، وبدأت أضواء المذبح تتأرجح أمام عينيها . فى مثل هذه الحالات كانت تبذل الجهد لكى تستعيد سكينتها ، بيد أن الرغبة فى التخلص من جو الكنيسة الخانق والخروج إلى الهواء الطلق كان همها الأوحد . نهضت من مكانها واعتذرت له بعد أن داست على قدمه وهى تهم بالخروج . نهض السيد فاريڤال من مكانه يهم أن يتبعها مدفوعًا بالفضول ، وعندما وجد أن روبرت قد سبقه عاد من حيث أتى ، وغاص فى مقعده من جديد . أراد أن يحادث السيدة التى كانت ترتدى السواد وتجلس إلى جواره ، ولكنها لم تعره انتباهًا ولم تجبه ، بيد أنها أبقت على عينيها مثبتتين على صفحات كتاب الصلوات ذى الغلاف المخملى .

رفعت إدنا يدها على نحو عفوى ووضعتها على رأسها

ودفعت بقبعتها المصنوعة من القش بعيدًا عن جبينها وقالت لروبرت :

- شعرت بدوخة وكدت أسقط على الأرض . لم أستطع الجلوس حتى نهاية الصلوات .

أصبحا خارج الكنسية يحتميان بظلها بعيدًا عن أضواء المكان . بدا روبرت وكأنه يحمل همًا مقيمًا . أمسك بذراع إدنا ومضى بها وهو يجول فى وجهها بنظرات قلقة متتابعة وهو يقول :

- كان الخطأ خطأك من البداية عندما ذهبت إلى هناك ، ناهيك عن البقاء . تعالى نجلس عند مدام أنتوان ولسوف تشعرين بالراحة هناك .

كان الصمت يشمل المكان ما خلا همسات المياه القادمة من البحر ترسلها إلى عيدان القصب التى نمت فى البرك القريبة التى غمرتها المياه المالحة . صف طويل من المنازل التى ذهب طلاؤها بسبب غلواء الطقس كان يستقر بسلام بين أحضان أشجار البرتقال القائمة . قالت إدنا فى نفسها إن هذا اليوم لابد من أنه يوم مشهود فى حياة هذه الجزيرة النائمة النائية . توقفا برهة يستندان على سور متهالك صنعه ركام البحر يطلبان ماءً رأيا شابًا أكاديًا [٣] منطلق الوجه كان يسحب الماء من صهريج صدئ مفتوح فى أحد جوانبه . لم يكن الماء البارد الذى أخذاه من الشاب طيب المذاق ، بل كانت برودته تكفى لدفع غائلة الحر وكفى ، وقد

كانت بالفعل سببًا فى إنعاشها وردها إلى الحياة من جديد .

كانت مدام أنتوان تقطن فى منزل صغير يقع على طرف من أطراف القرية . رحبت بهما جريًا على عادة الريفيين فى الترحاب وحسن الوفادة ، بينما تفتح باب بيتها لتسمح بدخول ضوء الشمس . كانت ضخمة الجسم ثقيلة الحركات بطيئة الخطوات . لم تكن تعرف الإنجليزية ولكن عندما أفهمها روبرت أن السيدة التى كانت فى معيته مريضة وتحتاج قسطًا من الراحة هبت لتهدئتها وطمأنتها وأوحت لها بأن تشعر وكأنها فى بيتها .

كان البيت نظيفًا إلى أبعد حد ، وكان السرير كبيرًا ذا أعمدة أربعة ثلجى اللون يقف فى طرف فى حجرة جانبية تطل على مرجة كثيفة العشب بجوار سقيفة . على تلك المرجة يرقد قارب تالف مقلوب على ظهره .

لم تذهب مدام أنتوان إلى الصلاة . ابنها تونك هو الذى ذهب ، وكانت تتوقع أن يعود مبكرًا ، دعت روبرت لانتظاره ، غير أن روبرت فضل الجلوس خارج البيت وتدخين سيجارة . غابت مدام أنتوان داخل المطبخ لتعد الغداء . كانت تسلق قطعًا من أسماك البورى على جمرات متقدات فى الموقد .

كانت إدنا پونتلييه تجلس وحدها فى الحجرة الجانبية الصغيرة وقد تحررت من أغلب ملابسها . غسلت وجهها ورقبتها وذراعيها فى الحوض الملىء بالماء الذى كان يقع بين النافذتين . تخلصت

من حذائها وجوربها وتهافتت على السرير الأبيض المرتفع . يا له من نعيم أحست به حين أراحت جسدها المرهق على ذلك السرير الغريب وقد حمل النسيم بعطر أزهار الغار ليتردد رياه بين المرتبة والملاءات ! مدت ساقيها الممتلئتين وسعت بأصابعها بين جدائل شعرها المرسل فترة من الزمان . أمعنت النظر فى ذراعيها الناعمتين ، وهى ترفع واحّدا لتحك به الآخر ، وكأنها كانت تراهما لأول مرة فى حياتها . شغلت نفسها بنعومة جلدها وتاهت فى فرط جماله ولكن يديها لم تلبث أن استقرت على رأسها وأذعنت لسلطان النوم الذى لا راد لسلطانه . داعب النوم جفنيها فى البداية فكانت تعى ما يحدث حولها . استطاعت أن تسمع وقع أقدام مدام أنتوان الثقيلة وهى تغدو وتروح على أرض المطبخ التى تكسوها الرمال .

واستطاعت أن تسمع قرقرة الدجاج القادمة من خارج النوافذ تفتش عن الحصباء بين الأعشاب . وكان صوت روبرت وهو يحادث تونك تحت السقيفة يغازل أذنيها فى المنطقة القائمة بين اليقظة والمنام . ورغم ذلك لم تضطرب أو تنشط ، بل ثقل جفناها وأغمضت عينيها وبدا النوم يقهر تلك الأصوات شيئًا فشيئًا . صوت تونك البطىء وهو يتشدق بالكلام على الطريقة الأكادية ، وصوت روبرت وهو يرسل الألفاظ الفرنسية ناعمة متدفقة . لم تكن تفهم الفرنسية حق الفهم إلا إذا كانت واضحة

صريحة وبطيئة هادئة . لم تكن تلك الأصوات غير جزء من الأصوات الناعسة التى طفقت تدغدغ أحاسيسها وترسلها إلى نوم عميق .

وعندما استيقظت إدنا ظنت أنها لبثت فى نومها يومًا أو بعض يوم . فقد سكنت الأصوات تحت السقيفة ، ولم تعد تسمع وقع أقدام مدام أنتوان فى الحجرة المجاورة . وحتى الدجاجات عمدت إلى مكان آخر بعيد لتقرقر فيه وتبحث عن الحب والحصى . لاحظت أن ستارة قد أرسلت عليها حتى تدفع عنها عدوان البعوض ، أرسلتها مدام أنتوان بعد أن تسللت إلى حجرتها وهى غارقة فى نومها الثمين . نهضت إدنا من نومها متثاقلة ، وغادرت الفراش فى تؤدة لتنظر فيما بين الستائر المعلقة على النافذة . كان روبرت يقف هناك تحت السقيفة يتكئ على ظهر القارب المقلوب . كان يقرأ فى كتاب ، ولم يكن تونك فى صحبته . اختلست إليه النظر مرتين أو ثلاث بينما كانت تغسل وجهها ويديها فى مياه الحوض الواقع بين النافذتين .

استعانت إدنا بمنشفة من المناشف النظيفة التى كانت مدام أنتوان تضعها على مقعد قريب ، ووضعت لمسة من مسحوق الوجه ، الذى وجدته فى علبة صغيرة فى متناول يدها ، على أنفها ووجنتيها بينما كانت تحدق فى وجهها فى المرآة الصغيرة المحطمة التى علقتها مدام أنتوان على الحائط فوق الحوض .

كانت عيناها تشعان بالصفاء والبهجة وكان وجهها منطلقًا يتوهج بالعافية ، لقد اكتملت يقظتها .

وعندما فرغت من زينتها دلفت إلى الحجرة المجاورة . كان الجوع قد قرصها وكان المنزل خاليًا .

رأت منضدة مغطاة بقطعة من القماش مستندة إلى الحائط وعليها رغيف ناشف أسمر اللون وزجاجة من الخمرة إلى جانب الطبق . قطعت إدنا لقمة من الرغيف الأسمر بأسنانها القوية البيضاء . وصبت بعضًا من الخمرة فى كأسها واحتسته بسرعة وغادرت المكان فى هدوء . قطفت ثمرة برتقال ناضجة من فرع شجرة يتدلى قريبًا من رأسها وقذفت به إلى حيث يجلس روبرت الذى لم يكن يعرف أنها استيقظت من نومها .

تطلق وجهه بالسرور عندما رآها وما لبث أن انضم إليها ليحتمى الاثنان بظل أشجار البرتقال الوارف . سألته :

– ترى كم عامًا لبثت فى النوم ؟ لقد اختلفت الجزيرة عما كانت عليه قبل نومى ، لابد من أن مخلوقات جديدة حلت محل المخلوقات القديمة ولم يبق إلا أنا وأنت من آثار القدماء . ترى كم عصر مر على وفاة مدام أنتوان ؟ ومتى اختفى أهلنا فى جراند أيل من على وجه البسيطة ؟

هز منكبيه قليلاً وقال :

– لقد نمت قرنًا كاملاً . لقد تركونى لكى أقوم على حراسة

مهجعك ؟ لبثت قرنًا تحت السقيفة أقرأ فى كتاب . الشر الوحيد الذى لم أستطع منعه هو أن أمنع الدجاجة المشوية على النار من أن تجف تمامًا .

قالت إدنا وهى تصحبه إلى البيت :

- إذا لم تكن قد تحولت إلى حجر فسوف آكل منها على أية حال . ولكن أخبرنى ماذا حصل لمدام فاريڤال والآخرين ؟

عندئذ قال :

- ذهبوا منذ ساعات . عندما وجدوك نائمة لم يرغبوا فى إيقاظك . على أية حال لم أكن لأسمح لهم . ما فائدة مكثى هنا إذن ؟

- قالت وهى تهم بالجلوس إلى أحد المناضد :

- سوف يقلق ليونس حتمًا .

فرد روبرت قائلاً وهو يشق طريقه عبر الأوانى المعدنية والأطباق المغطاة التى تركوها حول الموقد :

- لن يقلق لأنه يعرف أنك معى .

عندئذ سألته :

- وأين مدام أنتوان وابنها ؟

- لعلهما ذهبا لصلاة المساء ولزيارة بعض الأصدقاء . أنا مستعد لإعادتك فى قارب تونى عندما ترغبين .

حرك الجمرات المتقدة تحت الدجاجة حتى بدأت تنز دهونها

من جديد . وقدم لها الطعام وصب لها كأسًا من القهوة ولنفسه أخر ، وشرعا يحتسيان . كانت مدام أنتوان قد أعدت طعامًا أكثر من ذلك ولكن روبرت أتى عليه كله . كان يريد أن يرى كيف تأكل وكيف تذوق الطعام الذى أعده ولقى مشقة فى إعداده . قالت له بعد أن فرغت من احتساء كأسها ومسحت كسر الخبز بيديها

- وهل سنذهب إلى هناك الآن ؟
- ولكن الشمس لم تنزل عما كانت عليه منذ ساعتين .
- ستغيب الشمس فى بحر ساعتين .
- دعيها تغب ، لا تهتمى !

لبثا برهة يلفهما الصمت تحت أشجار البرتقال حتى عادت مدام أنتوان تتهادى فى مشيها وتركض أحيانًا ولديها آلاف الأعذار التى تسوغ غيابها . لم يجرؤ تونك على الرجوع ، كان خجلاً من مواجهة روبرت وإدنا ، وكان تونك يخجل من مواجهة أية امرأة ما خلا أمه .

كان الجلوس تحت أشجار البرتقال مصدر بهجتهما الحقيقية عندما راحت الشمس تلملم أطراف النهار التى تحولت إلى قطع من النحاس والذهب المتناثرة على صفحة الغروب . بدأت جحافل الظلام تنشر خيوطها العملاقة بين الأشجار مثل وحوش جبارة تتربص بالمكان . كانت إدنا ترقد على العشب الطرى ، وكان روبرت يتمدد إلى جوارها ويتحرش بحاشية ثوبها القطنى بين الحين والآخر .

تهافتت مدام أنتوان بجسمها الثقيل وكأنها سقطت من مكان مرتفع على أريكة بجوار الباب . لقد ظلت تتحدث منذ الظهر وهى الآن ترى أن تكف عن سرد القصص . يا لها من قصص تلك التى كانت تسردها ! حكت لهما كيف اضطرت إلى ترك تشنيير كامينادا ، وكيف مكثت فى هذه الجزيرة تجمع الحكايات وأساطير العجم والبحر . دخلت جحافل الليل فى صراع جديد مع الأضواء التى راح القمر يرسلها إلى الأرض . تناهى إلى مسمع إدنا همسات الموتى ورنين القطع الذهبية المكتومة .

وعندما دلفا إلى قارب تونك بشراعه المثلث الأحمر رأت إدنا الأرواح الهائمة على صفحة البحر تطوف بين خيوط متشابكة من الظلمة وبين عيدان القصب القائمة على الشاطئ والسفن الطيفية .

- ١٤ -

قالت مدام راتجنول وهى تسلم الطفل لأمه : إن الولد الصغير إتيان أصبح شقيًا جدًا ، أصبح يمتنع عن الذهاب إلى فراشه ويسبب مشكلة كلما دعوناه إلى ذلك ، فى حين لم أقصر فى مهادنته والعناية به قدر الطاقة . ولكن راؤول نام فى الفراش ساعتين بكاملهما .

كان الصغير فى ثوب نومه الأبيض الطويل الذى كان يتعثر فيه عندما كانت مدام راتجنول تمسك بيده لتوصله إلى أمه . راح يدعك بباطن يده الممتلئة عينيه اللتين كانتا مثقلتين بالنوم

والغضب . أخذته إدنا بين ذراعيها وجلست به على الأرجوحة وراحت تعانقه وتلاطفه وتناديه بأحلى الأسماء وأحسنها لكى تغريه بالنوم .

لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة ، ولم يذهب أحد إلى الفراش ما خلا الأطفال . قالت مدام راتجنول إن ليونس كان قلقًا فى البداية وأراد أن يستعد فى التو للذهاب إلى تشنيير . ولكن السيد فاريڤال طمأنه بأن زوجته راحت فى النوم بعد أن نال منها الإعياء ، وأن تونى سوف يعيدها آخر النهار دون مشكلة ، وأنه لذلك ينصحه بالعدول عن رغبته فى عبور الخليج . قالت إنه ذهب إلى منزل كلن يبحث عن سمسار فى بيع الأقطان . كان يريد أن يراه فى شأن سندات ومقايضات وأسهم وعقود وأشياء من هذا القبيل لم تذكرها مدام راتجنول قال إن مكوثه لن يطول وقالت إنها هى نفسها كانت تعانى من شدة الحر . لم تستطع البقاء مع إدنا لأن السيد راتجنول كان وحده ، ولم يكن يكره شيئًا كرهه البقاء وحده فى المنزل .

عندما استغرق إتيان فى النوم حملته إدنا إلى الحجرة الخلفية ، أما روبرت فقد حمل إليها ستارة البعوض لكى ترد عن الطفل عدوان البعوض الهائم . وعندما خرجا من البيت قال روبرت لإدنا تصبحين على خير . وقالت وهى تودعه :

– ألا تعلم أننا كنا معًا منذ الصباح فيما عدا القرن الذى كنت فيه نائمة ؟

تصبحين على خير .

وشد على يدها وهو يهم بالرحيل فى اتجاه الشاطئ . لم يكن أحد فى صحبته وهو يرنو ببصره صوب الخليج .

أما إدنا فقد انتظرت عودة زوجها من خارج البيت . لم يكن لديها رغبة فى النوم أو الراحة ، ولم تكن تشعر برغبة فى الانضمام إلى أسرة راتجنول أو مدام لبرن ولا إلى ذلك الجمع من الناس الذين يجلسون أمام البيت والذين تصادمت أصواتهم العالية مع مياه البحر والأشجار . لقد أطلقت العنان لخيالها يسترجع ما كان من أمر مكوثها فى جراند أيل ؛ وسعت لاكتشاف وجه الاختلاف بين هذا الصيف وغيره من فصول الصيف الماضية التى مرت بها فى حياتها كلها . كل ما بدأت تدركه هو أنها- نفسها الحاضرة التى بين جنبيها - قد أصبحت مختلفة فى كثير من الوجوه عن السابق . وأنها ترى الأمور الآن بعين مختلفة ، وأنها عرفت أحوالاً جديدة عن ذاتها لونت حياتها بلون آخر .

تعجبت من أن روبرت غادر المكان وتركها . لم يكن يدر بخلدها أن التعب سيصيبه من صحبتها طوال اليوم . لم تحس بأى تعب . والحق أنها لم تكن متعبة بالفعل . ما أسفت له هو أنه تركها إلى مكان آخر . كان غريبًا أن يتركها ، لم تطلب منه ذلك ولم يطلبه أحد أيضًا .

وبينما كانت إدنا تنتظر زوجها راحت تغنى بصوت خفيض

بأغنية كان روبرت يغنيها بينما كانا يهمان بعبور الخليج . كانت كلمات الأغنية تبدأ على النحو التالى : « آه لو كنت تعرف » وكان كل بيت من أبياتها ينتهى بتلك الكلمات نفسها . لم يكن صوت روبرت شجيًا ولا مدعيًا . كان صوتًا صادقًا وحسب ، وكان هذا الصوت ينسجم مع الموسيقى والألحان .

- ١٥ -

عندما دخلت إدنا حجرة الطعام متأخرة ذات مساء كعادتها سمعت وقع أصوات محادثة تجرى على مقربة منها . عدد كبير من الأشخاص يتحدثون دون أن يعطى أحدهم الفرصة لكى يسمع الآخر . ولكن صوت ڤكتور كان يهيمن حتى على صوت أمه . كانت إدنا قد عادت متأخرة بعد أن عامت فى مياه الخليج وارتدت ملابسها على عجل ، وكان وجهها لم يزل متوهجًا من حرارة الشمس . برز رأسها فوق ثوبها الأنيق أشبه بالزهرة التى لم تحقق نضجًا كاملاً . أخذت مقعدها لدى المائدة بين السيد فاريڤال الهرم ومدام راتجنول .

وما إن جلست على مقعدها وشرعت فى تناول حسائها الذى أعدوه لها لدى دخولها الحجرة حتى أخبرها أكثر من شخص فى صوت واحد بأن روبرت فى طريقه إلى المكسيك . وضعت ملعقتها على المنضدة وجالت ببصرها فيما حولها وقد استولى عليها ارتباك أقرب إلى الذهول . لقد كان معها طوال اليوم ، وكان

يقرأ لها من كتاب كان معه طوال الصباح ، ولم يذكر لها شيئًا عن سفره ، ولم يذكر لها شيئًا عن المكسيك بالذات . لم تره فى الظهيرة ، سمعت من يقول إنه فى المنزل ، فى صحبة أمه فى الطابق الثانى . كانت مستغربة لأنه لم يلحق بها بعد ذلك فى الظهر وهى فى طريقها إلى الشاطئ .

خصته بنظرة فاحصة وهو على مقعده بجوار مدام لبرن التى كانت تؤم الجلوس . كان وجه إدنا يقطر ذهولاً وحيرة أخفقت قسماته فى إخفائها . رفع حاجبيه بحجة الابتسام بينما كان يرد على نظرتها . كان مرتبكًا وقلقًا . وجهت سؤالها للجالسين جميعًا وكأن روبرت لم يكن موجودًا ليجيب على سؤالها :

- ومتى ينوى الذهاب إلى المكسيك ؟

وجاءتها الإجابات متفرقة بالإنجليزية والفرنسية من الجميع أيضًا وفى وقت واحد .

قالت وقد تملكها العجب :

- مستحيل كيف يفكر شخص فى السفر من جراند أيل إلى المكسيك فى لحظة وكأنه ذاهب إلى منزل أسرة كلن أو إلى الميناء أو حتى إلى الشاطئ ؟

عندئذ قال روبرت موضحًا ولكن بنبرة عالية حادة وكأنه يرد عن نفسه عدوان عدد كبير من الحشرات المهاجمة :

- لقد كنت أقول دائمًا إننى ذاهب إلى المكسيك ، قلت

ذلك طوال سنين .

نقرت مدام لبرن على المائدة بمقبض سكينها . وقالت بصوت عال :

- إذا سمحتم دعوا روبرت يشرح لنا فيم ذهابه إلى المكسيك الليلة بالذات ، وإلا أصبحنا أشبه بمن يجلس فى مستشفى للأمراض العقلية ، كلكم تريدون الحديث فى وقت واحد ، أحيانًا أتمنى ، وليسامحنى الله ، أن يفقد ڤكتور القدرة على النطق .

وضحك ڤكتور بنبرة متهكمة وهو يشكر أمه على هذا الدعاء الصادر عن نفس ورعة ، وقال لها إنه لم ير أثر هذه الرغبة على الحاضرين فيما عدا أنها أتاحت لها الفرصة للحديث عن نفسها برهة .

أما السيد فاريڤال فقد قال إن ڤكتور كان يجب أن يؤخذ إلى منتصف المحيط فى صباه ويغرقونه هناك . ورد ڤكتور بأن الأفضل والأكثر منطقًا أن يتخلصوا من كبار السن الذين أثبتوا بما فيه الكفاية أنهم موضع نفور العالم . وزادت مدام لبرن حدة وعصبية ؛ أما روبرت فقد أنَّب أخاه وشتمه وقال موجهًا كلامه إلى أمه :

- لا يوجد ما أشرحه على كل حال يا أمى .

ولكنه كان يوجه عينيه إلى إدنا ، وشرح مع ذلك لأمه كيف

أنه ينتظر من يصحبه إلى فيرا كروز لكى يستقل السفينة المبحرة من نيو أورليانز ، وأن بودلت كان سيخرج تلك الليلة بقاربه الملىء بالخضراوات ، الذى أعطاه فرصة للوصول إلى المدينة ويصل إلى سفينته فى الميعاد .

قال له السيد فاريڤال مستغربًا :

- ولكن متى حزمت أمرك لكل هذا ؟

أجاب روبرت بنبرة ملؤها الضيق :

- حزمت أمرى بعد ظهر اليوم .

فسأله السيد فاريڤال مرة أخرى بإلحاح وإصرار وكأنه يحقق مع مجرم فى محكمة :

- وفى أى وقت بالضبط بعد ظهر اليوم حزمت أمرك ؟

وأجابه روبرت بصوت عال يشى باستعلاء طارئ ذكر إدنا بممثل على المسرح يقوم بدور أحد النبلاء :

- فى الرابعة تمامًا بعد عصر اليوم يا سيد فاريڤال .

أجبرت نفسها على تناول الحساء كله وشرعت تتناول شرائح السمك الممزوج بالمرق بشوكة كانت فى يدها .

أما العاشقان فقد استثمرا اللغط حول المكسيك ليخوضا فى حديث هامس عن أمور يعدانها من صميم خصوصياتهما ولا تهم أحدًا غيرهما . قالت السيدة التى ترتدى الأسود إنها حصلت ذات يوم على مسبحتين من المكسيك كانت الصنعة البارعة واضحة

فيهما ، مع صكين من صكوك الغفران التى كانت تمنحها الكنيسة الكاثوليكية ، ولكنها لم تستطع أن تعرف هل كان هذا الغفران يتعدى الحدود المكسيكية أم لا ؟ قالت إن الأب فوشيل فى الكاتدرائية حاول توضيح هذا الأمر ولكنه لم يبلغ من ذلك ما كان يريده من إقناعها . وتوسلت إلى روبرت أن يشغل نفسه بهذا الأمر وهو فى المكسيك ليطمئنها على أن الغفران الذى جلبته مع المسبحتين قد شملها هنا أيضًا .

تمنت مدام راتجنول أن يحتاط روبرت فى تعامله مع المكسيكيين غاية الحيطة ، فقد كانوا فى نظرها خونة لا يؤمن جانبهم ، لا يرعون حرمة ولا يتورعون عن انتقام . وكانت تقول إنها لا تشعر بأنها تظلمهم حين تتهمهم بتلك التهم ، وإنها تعطيهم حقهم كسلالة خبيثة تستحق الازدراء . وقالت إنها عرفت واحدًا من المكسيكيين كان يصنع الأطعمة المكسيكية ويبيعها ، ووضعت فيه ثقتها كلها لحلاوة حديثه وعذوبة حضوره وذات يوم قبضت عليه الشرطة لأنه طعن زوجته فأرداها ، وقالت إنها لا تعرف الآن إن كانوا شنقوه أو لم يزل على قيد الحياة .

وتطلق وجه ڤكتور بنشاط طارئ وشرع يحكى قصة نادرة عن فتاة مكسيكية كانت تقدم الشيكولاتة فى أحد المطاعم فى شارع دوفين . لم يكن أحد يستمع إليه غير السيد فاريڤال الهرم الذى أغرب فى الضحك لطرافة القصة وتعجبت إدنا كيف يتحدثون

ويصخبون فى الوقت نفسه . ولم يكن لديها ما تقوله عن المكسيك والمكسيكيين . وجهت سؤالها إلى روبرت :

- ومتى تذهب ؟

فقال لها على الفور :

- الساعة العاشرة ، كان بودليت يريد أنْ ينتظر حتى يرتفع القمر ويخف الظلام .

- وهل جهزت كل أغراضك ؟

- جاهز تمامًا ، لم يبق إلا أن آخذ حقيبة يدى أما الصندوق الذى أضع فيه ثيابى فسوف أجهزه فى المدينة .

تحول إلى أمه ليجيب عن سؤال سألته ، أما إدنا فقد غادرت المكان بعد أن فرغت من احتساء قهوتها ودخلت حجرتها على الفور . كان الهواء فى الداخل خانقًا بعد أن ترك الشاليه مغلقًا ساعات طوال . وبعد أن قارنت إدنا بينه وبين الهواء خارجه . ولكنها لم تأبه لذلك ؛ فلقد عنت لها عشرات الأمور التى تستحق انتباهها فى الداخل . شرعت تعدل من وضع مزينتها بعد أن ابتعدت عن مكانها ، متذمرة من إهمال خادمتها التى كانت فى الحجرة المجاورة ترسل الطفلين إلى النوم . جمعت ثيابها المبعثرة فى أركان الحجرة وعلى ظهور المقاعد ، وضعت كل ثوب فى مكانه المخصص له فى الدولاب أو أحد الأدراج . استبدلت بفستانها إزارًا طويلاً فضفاضًا ومريحًا . أعادت ترتيب

شعرها بالمشط بحماس غير معتاد . ودخلت بعد ذلك حجرة الخادمة وساعدتها فى إرسال الطفلين إلى النوم .

كان الطفلان يتمازحان ويتأهبان للحديث معها . كانا مستعدين لفعل أى شيء ماعدا الذهاب إلى الفراش والاستغراق فى النوم . سمحت إذنا للخادمة بالذهاب لتناول العشاء وقالت لها إنها لا يجب أن تعود . جلست مع طفليها وحكت لهما قصة لعلهما يغيبان فى خيالها وتسلمهم إلى أرض غير الأرض وعالم غير هذا العالم . ولكن القصة أتت ثمارًا غير مرجوة ؟ فقد أيقظت حواسهما وزادت من يقظتهما وحب استطلاعهما لمعرفة النهاية التى قالت الأم إنها لن تخبرهما بها إلاً إذا حل ليل الغد .

دخلت عليها الخادمة الصغيرة لكى تخبرها بأن مدام لبرن تريدها تأتى وتجلس معهم فى البيت حتى يرحل السيد روبرت . وقالت لها إذنا إنها قد خلعت فستان الخروج وارتدت ملابس النوم ، وإنها لا تشعر بأنها على ما يرام ، ولكنها أخبرتها بأنها قد تذهب فيما بعد . وبدأت إذنا ترتدى لباس الخروج من جديد ، ووصلت إلى حد أن خلعت بنوارها الفضفاض ، ولكنها ما لبثت أن غيرت رأيها وأعادته إلى جسدها وخرجت لتجلس عند الباب . أصبح هياجها رهنًا بإشارة من أى شخص ، وطفقت تدفع بالهواء إلى صفحة وجهها بعصبية فترة من الزمان . أقبلت عليها مدام راتجنول لتسألها عن سبب ضيقها .

قالت لها إدنا فى شىء من الضيق :

- لابد من أن المحادثة التى جرت على المنضدة كانت هى السبب فى ضيقى ، بالإضافة إلى أننى لا أحب المفاجآت والصدمات . فكرة رحيل روبرت المفاجئ بهذه الطريقة الدرامية السخيفة ! وكأن الأمر بالنسبة له مسألة حياة أو موت ! لم يقل كلمة واحدة قبل الآن عن هذا الموضوع ، كنا معًا طوال الصباح ولم يقل لى شيئًا .

ووافقتها مدام راتجنول قائلة :

أجل معك حق ، أعتقد أنه بدا وكأنه لم يعرنا جميعًا أى اعتبار ، وخاصة أنت بالذات . لم يكن يدهشنى لو كان الأمر يخص أحدًا غير روبرت ؛ فأفراد عائلة لبرن مخلوقون للملاحم ولكنى فى الواقع لم أكن أظن أن روبرت يفعل ذلك . هل ستبقين هنا ؟ ألا تريدين الذهاب والجلوس معهم ؟ لا تضخمى الأمور ياعزيزتى ، فقد يتهموننا بأننا لا نحبهم .

قالت إدنا بشىء من الحزن :

- كلا ، لا أحب أن أعود لارتداء ملابسى مرة أخرى . لا أحب ذلك .

- لست فى حاجة إلى ارتداء أى شىء ، كل ما فى الأمر أن تشدى حزامًا على خاصرتك . افعلى مثلى .

ولكن إدنا أصرت على ألا تذهب وقالت لها :

- لن أذهب ، ولكن اذهبى أنت فإن مدام لبرن قد تتضايق لعدم حضورنا نحن الاثنين .

قبّلت مدام راتجنول إدنا وتمنت لها ليلة هانئة ، وتركتها . كانت إدنا تتمنى فى قرارة نفسها أن تشارك الجميع فى هذه المحادثة الودية عن المكسيك والمكسيكيين .

وبعد أن انفض المجلس أقبل روبرت على إدنا وسألها :

- هل تحسين بتعب أو شىء ؟

- لا ، أنا بخير ، هل سترحل الآن ؟

أشعل روبرت عود كبريت ونظر إلى ساعته وقال :

- فى بحر عشرين دقيقة .

ولكن النور المفاجئ الذى أنار المكان لحظة واحدة أكد الظلمة . تهافت على مقعد حمام كان الطفلان قد تركاه فى الشرفة . فقالت له إدنا :

- فلتجلب لك كرسيًا أفضل .

ولكنه قال لها :

- هذا المقعد يكفى .

ووضع قبعته الرقيقة وما لبث أن رفعها من جديد وهو يمسح وجهه بمنديله محتجًا على الحر الشديد وأسرعت إدنا بإحضار المروحة وطلبت منه أن يستخدمها ولكنه قال :

- لا ، أشكرك إنها لا تفيد شيئًا ؛ لأن المرء يتوقف بين لحظة وأخرى عن استخدامها ويعود الأمر كما كان .
- وهذا أمر آخر من الأمور السخيفة التى يتحدث عنها الرجال . لم أسمع من يعجبه استخدام المروحة .
كم ستطول رحلتك ؟
- ربما إلى الأبد ، لا أعرف . يعتمد ذلك على أمور كثيرة .
- يعنى فى حالة إذا لم تكن إلى الأبد ، كم ستطول ؟
- لست أدرى .
- هذا يبدو لى مجاف للعقل والفطرة ولا أقبله . لا أقبل هذا ولا أحبه . لا أفهم غرضك فى الصمت والغموض ، لِمَ لم تخبرنى بنيتك طوال الصباح ؟

ولبث روبرت صامتًا ، لا يريد أن يدرأ عن نفسه تلك التهم . ولبث هنيهة ثم قال :

- لا أحب أن نفترق وأنت فى حالة غضب . لم أعتد على نفاد صبرك على هذا النحو .
- لا أريد طبعًا أن نفترق وأنا غاضبة منك ، ولكن ألا تفهم ؟ لقد اعتدت على رؤيتك ، على أن تكون بجوارى طوال الوقت ، ولكن تصرفك الآن يبدو بعيدًا عن الود ، إنه تصرف قاس بحق . وأنت لم تقدم لى اعتذارًا عنه على الأقل ، لماذا ؟ لقد كنت أنوى أن نكون معًا

أغلب الوقت ، كنت أقول فى نفسى إننى سوف أسعد برؤيتك فى المدينة فى الشتاء القادم .

عندئذ قال بسرعة :

- وأنا كذلك ، ربما كان ذلك ما . . .

ولكنه توقف فجأة ونهض وبسط لها يده واستمر يقول :

- الوداع يا عزيزتى مدام پونتلييه ، الوداع . أتمنى- أتمنى ألا تنسينى بالمرة .

وتشبثت بيده ، تحاول جهدها أن تبقيها فى يدها وقالت متوسلة :

- أرسل لى عندما تصل إلى هناك . هل ستفعل يا روبرت ؟

- سأفعل . شكرًا لك . مع السلامة .

- أهذا كل ما أمكنك قوله يا روبرت ؟ إن المعارف الجدد يقولون أشياء أروع من هذه العبارات التى قلتها .

- سأفعل . شكرًا لك . مع السلامة .

كان روبرت قد ودع الجميع الذين كانوا يجلسون معه على المنضدة . غادر منزل إدنا إلى حيث كان بودليت ينتظره بالحقيبة على القارب الذى كان مستعدًا للإبحار . مضيا فى الظلمة الحالكة ، ولم يتناه إلى مسمعيهما إلا صوت بودليت ؛ فلم يتفوه روبرت بكلمة يحيى بها صاحبه .

طفقت إدنا تعض على ناجذيها تارة ومنديلها تارة أخرى وهى

تحاول العودة إلى منزلها . كانت تحاول الاختفاء حتى عن نفسها التى بين جنبيها من تلك العاطفة الجياشة التى ركبتها واستحوذت عليها . تعلقت الدموع بعينيها دون أن تنزل على صفحة وجهها .

كانت هذه هى المرة الأولى التى تجرب فيها إدنا عاطفة الحب التى كانت تلم بها أيام طفولتها وصباها ومراهقتها ثم فيما بعد وهى امرأة ناضجة . لم يغير ذلك الإحساس من الواقع شيئًا ، واقع حياتها الحاضرة وما ينذر به ذلك من زلزال لا راد له . لم يكن ماضيها ذا أهمية تذكر ، لم يحمل إليها حكمة تتعلق بها وتكون عونها عند الملمات . وكان المستقبل غامضًا ملتبسًا لم تحاول أن تسبر غوره أو تفك رموزه . أصبح الحاضر وحده هو كل ما تملك ؛ يعذبها ذلك الاحساس الذى يملك عليها شعورها بأنها خسرت ما ظنت أنها ملكته ، بأن القدر لم يمكنها مما كان سببًا فى وجودها المتقد ، وجودها الذى استيقظ مؤخرًا فى حاجة إليه .

- ١٦ -

اقتربت الآنسة ريز من إدنا ذات صباح وسألتها :

- هل تشتاقين كثيرًا لأصحابك الآن ؟

كانت إدنا خارجة لتوها من الشاليه فى طريقها إلى الشاطئ . قضت جل وقتها فى الماء مبتهجة لتمكنها من فن السباحة الذى اكتسبته فى النهاية . إن إقامتها فى جراند أيل توشك على نهايتها ،

ويتابها الآن شعور بأنها لم تمنح وقتًا للاستمتاع بمصدر متعتها الأوحد ، بما منحها أجمل لحظاتها . وعندما فاجأتها الآنسة ريز بتربيتةٍ على عاتقها وتحدثت معها ، أحست إدنا أن الآنسة لم تكن تشاركها أفكارها ومشاعرها وحسب وإنما كانت تشاركها ذلك الإحساس الذى ظل يراودها ولا يفارقها .

لقد ذهب روبرت وذهبت معه الرغبة فى أية متعة . فقد كل شىء لونه وبريقه بل ومعناه . صحيح أن أحوالها ظلت كما هى لم يمسها تغيير ، ولكن قطعة ثقيلة من سحاب كثيف غشيت وجودها كله فحجبته . أصبحت أشبه بثوب بهت لونه فلم يعد صالحًا للارتداء . راحت تبحث عنه فى كل شىء . بحثت عنه فى وجوه الذين سألتهم عنه . كانت تدفعهم للحديث عنه حتى تراه فى عيونهم وقسمات وجوههم . كانت تذهب كل صباح إلى حجرة مدام لبرن رغم أنها لم تكن تحب أن تسمع قعقعة آلة الخياطة العتيقة . كانت تجلس بين يدى المدام وتجاذبها أطراف الحديث عن روبرت بين توقف الآلة وعودتها إلى القعقعة من جديد . وكانت تحدق فى اللوحات والصور الفوتوغرافية المعلقة على جدران الحجرة ، إلى أن صادفت عيناها ألبوم صور قديم للأسرة راحت تحدق فيه بعينين فاحصتين وشوق شديد ، وتسأل مدام لبرن عن تلك الوجوه التى رأتها بين الصفحات لمن تكون .

رأت صورة مدام لبرن مع روبرت وهو طفل رضيع ، كانت

تضعه فى حجرها بوجهه المستدير وقبضة يده التى يسد بها فمه . لم يبق منه الآن غير عينيه . وتلك صورة أخرى له وهو فى عامه الخامس ، يرتدى قطعة من القماش ملفوفة حول جسده لفات عدة ، ويلوح بسوط فى يده مما جعل إدنا تغرق فى الضحك مثلما ضحكت عندما رأت اللوحة التى رسمت له وهو يرتدى بنطالاً طويلاً شدت انتباهها صورة أخرى أخذها وهو فى عامه الأول فى الجامعة ، يبدو فيها جسمه ضامرًا ووجهه مكتئبًا ، وعيناه تمتلئان بالتوقد والطموح والأمانى العظام . ولكنها لم تجد له صورة حديثة . لم تعثر له على صورة تذكرها بالرجل الذى رحل منذ خمسة أيام تاركًا عالمها خاويًا قفرًا من كل شىء . ووجدت مدام لبرن مبررًا :

- لقد توقف روبرت عن اتخاذ الصور منذ أن وجد أنه سيدفع ثمنها من مصروفه !

وقالت إنه وجد سببًا آخر أكثر فائدة لإنفاق نقوده وكان لدى المدام خطابًا من روبرت تركه لها قبل أن يرحل إلى نيو أورليانز وأرادت إدنا أن ترى الخطاب وطلبت منها مدام لبرن أن تبحث إما على المنضدة وإما فى دولابه أو ربما وضعه على رف الموقد .

كان الخطاب على رف الكتب . كانت إدنا متلهفة لقراءته ؛ تأملت كل شىء على الظرف ؛ حجمه وشكله ، طابع البريد وخط اليد . فحصت كل كبيرة وصغيرة على الظرف قبل أن تشرع فى

فتحه . لم يكتب روبرت غير أسطر قليلة يقول فيها إنه سوف يغادر المدينة بعد ظهر اليوم ، وإنه حزم حاجياته بشكل ممتاز ، وإنه بخير ، وإنه يحبها كثيرًا . وطلب منها أن تسلم على الجميع . لم يترك رسالة خاصة لإدنا ، ولكنه قال لأمه فى ملحوظة منفصلة إذا كانت مدام پونتلييه تريد أن تكمل قراءة الكتاب الذى بدأه معها فسوف تجدينه فى حجرته بين كتب أخرى على المنضدة . وأحست إدنا بوخز الغيرة المفاجئ لأنه كتب ذلك لأمه ولم يكتب لها .

كان الجميع يعرفون أن إدنا تتحرق شوقًا لروبرت . حتى زوجها عرف ذلك لدى وصوله فى يوم الأحد الذى تلا سفر روبرت ، أبدى أسفه لها قائلاً :

– وكيف تطيقين الحياة بدونه ؟!

– الحياة كئيبة حقًا بدونه .

قال لها أيضًا إنه رآه فى المدينة ، وعندئذ أمطرته إدنا بوابل من الأسئلة : أين قابلته ؟ فى شارع كاروندليه فى الصباح . جلسنا معًا وشربنا ودخنا السيجار . وفى أى شىء تحدثتما ؟ تحدثنا عن مشروعاته فى المكسيك التى كانت مدام پونتلييه تعرف أنها سوف تنجح . وكيف كان شكله ؟ وكيف كان مزاجه ؟ متماسك أم مرح أم ماذا ؟ كان مرحًا جدًا ، ومهتما جدًا برحلته إلى المكسيك ، وهو ما اعتبرته إدنا أمرًا طبيعيًا عند شاب طموح يسعى للحصول على الثروة والمغامرة فى بلد غريب جديد .

طفقت إدنا تدق على الأرض بقدميها بعصبية ، وتساءلت لماذا يصر الطفلان على اللعب فى الشمس فى حين أنه يجب أن يلعبا تحت الأشجار . ذهبت إليهما وأمرتهما بأن يبتعدا عن الشمس ووجهت اللوم للخادمة لعدم اهتمامها وعنايتها بهما .

لم تنتبه لغرابة مسلكها لحظة واحدة عندما جعلت من روبرت موضوعًا لحوار طويل مع زوجها الذى راح يحدثها عنه . لم يكن الحب الذى تحمله لروبرت يشبه تلك المودة التى تحملها لزوجها ، لم تحس بهذه العاطفة تجاه أحد من قبل ، ولم تتوقع أن تحملها لأحد فى يوم من الأيام . كانت طوال حياتها تخفى أفكارها وتحتفظ بعواطفها ولا تطلع أحدًا على سريرة نفسها . لم يحدث أن احتدم الصراع بينها وبين مشاعرها . كانت هذه المشاعر والعواطف ملكًا خالصًا لها تأمرها فتطيع ولا تخص أحدًا غيرها . قالت إدنا ذات يوم لمدام راتجنول إن هناك شيئًا فى حياة المرء لا يمكن أن يمنحه حتى لأولاده ولا لأى أحد كائنًا من كان . ودخلت بعد ذلك فى مناقشة حادة مع مدام راتجنول انتهت إلى أن السيدتين عجزتا عن فهم إحداهما الأخرى ، وعجزتا عن أن يتحدثا لغة واحدة . وحاولت إدنا أن تهدئ من ثورة صاحبتها :

– كنت أقصد أننى لن أضحى بالجوهر ؛ سوف يأخذ أولادى كل شىء ، نقودى ، حياتى ، ولكنهم لن يأخذوا نفسى التى بين جنبى . ولا أستطيع أن أوضح أكثر من

ذلك ؟ إن ما أعنيه هو شيء بدأت أفهمه حديثًا ، شيء بدا يتبدى لى من تلقاء نفسه .

- لا أفهم ماذا تقصدين بالجوهر واللاجوهر . ولكن المرأة التى تهب حياتها لأبنائها لا تفعل أكثر من ذلك- هكذا يخبرنا الكتاب المقدس الذى نقرأه كل يوم . حتى أنا لن أفعل أكثر من ذلك من أجل أولادى .

ولكن إدنا قالت وهى تضحك :

- بل تستطيعن أن تفعلى أكثر من ذلك .

لم تستغرب سؤال الآنسة ريز فى الصباح وهى تربت على منكبيها وتسألها عن مدى شوقها لصاحبها الشاب .

- صباح الخير يا آنسة ريز ؟ أهو أنت ؟ بالطبع أفتقد روبرت كثيرًا . هل ستنزلين البحر ؟

- ولماذا أنزل البحر فى نهاية الموسم فى حين لم أنزل فى حر الصيف وفى غياب الأمواج العاتية .

- حسنًا ، أنا آسفة .

وأحست إدنا بالخجل من نفسها ، لأنها تذكرت أن الآنسة ريز كانت تتجنب المياه لأسباب تخصها . سمعت من الناس أنها لا تنزل البحر بسبب شعرها المستعار ، أو ضنًا ببشرتها البنفسجية من أن تبللها المياه ، ولكن أخرين أرجعوا السبب إلى البغض الفطرى الذى يكنه الفنانون للمياه لأنها تعكر مزاجهم وتفسد

ملكاتهم الفنية . قدمت الآنسة قطعة من الشيكولاتة لإدنا فى كيس من الورق أخرجته من جيبها . كانت تريد أن تظهر الود لصاحبتها . كانت تحب الشيكولاتة لقيمتها الغذائية - كما كانت تقول - رغم حجمها الصغير . وذلك يجنبها الموت جوعًا لأنها لم تكن تحب الطعام الذى كانت تقدمه مدام لبرن . لم تر سيدة أكثر جرأة من مدام لبرن ؛ تقدم الطعام للناس وتطلب منهم أن يدفعوا ثمنه . قالت إدنا سعيًا منها لتغيير الموضوع :

- لابد من أنها تشعر بالوحدة بعد سفر ابنها ولا سيما أنه ابنها المفضل لابد من أن الأمر كان صعبًا بالنسبة لها حين ودعها .

وضحكت الآنسة وهى تقول :

- ابنها المفضل ! يا إلهى ! من الذى أقنعك بهذه القصة السخيفة ! ألين لبرن تعيش من أجل ڤكتور ، ومن أجل ڤكتور فحسب . لقد دللته إلى أن أصبح لا يساوى شيئًا . إنها تعبده وتعبد الأرض التى يمشى عليها . لقد كان روبرت طيبًا حين كان يعطى كل ما يكسبه للأسرة ويحتفظ لنفسه بأقل القليل . إنه الابن الذى يجب أن تحبه فعلا ، أنا نفسى افتقدت المسكين ، يا حبيبتى . كنت أحب أن أراه هنا وهناك - الفرد الوحيد من عائلة لبرن الذى يستحق حفنة ملح . كان يأتى لزيارتى كثيرًا فى المدينة ، وأحب أن

أشاركه اللعب على الدوام . أما ڤكتور هذا فالشنق أفضل شيء بالنسبة له . وأنا أستغرب لماذا لم يقتله روبرت منذ زمن بعيد ! عندئذ انبرت إدنا للدفاع عن روبرت وهى سعيدة بحديث الآنسة عنه مهما كان ما تقول :

– أعتقد أنه يجب أن يصبر على أخيه .

عندئذ قالت الآنسة :

– أعتقد أنه ضربه بشدة منذ عام أو عامين . كان السبب فتاة إسبانية كان ڤكتور يقول إنه يحبها . قابله روبرت ذات يوم وهو يتحدث مع الفتاة أو يمشى معها أو يستحم معها أو يحمل عنها سلتها– لا أذكر ماذا ؟ وكان وقحًا وجريئًا مما جعل روبرت يضربه ضربة جعلته يعود إلى رشده فترة طويلة .

سألتها إدنا :

– وهل كان اسم الفتاة ماركويتا .

– نعم ماركويتا ، اسمها ماركويتا . لقد نسيت . آه ، لقد كانت فتاة خبيثة حقًا ، وسيئة ، ماركويتا هذه !

حدجت إدنا الآنسة بنظرة ازدراء وقالت لنفسها إنها لن تستمر فى الاستماع إلى حقدها أكثر من ذلك . أحست بكآبة تستحوذ عليها ، وأحست بأن السعادة تفارقها تمامًا . لم تكن تنوى الذهاب إلى المياه ، ولكنها ارتدت بذلة السباحة وتركت الآنسة

وحدها جالسة فى ظل خيمة الطفلين . كان الماء يزداد برودة كلما مرت الأيام واقترب الصيف من نهايته . غطست إدنا فى الماء وطفقت تعوم بحماس زادها قوة وإثارة . مكثت فى المياه فترة طويلة ، لا يحدوها أمل كبير فى أن الآنسة ريز سوف تنتظرها إلى ما لا نهاية .

ولكن الآنسة ريز انتظرتها . كانت ودودة طوال رحلة العودة إلى البيت ، ولكن بذلة سباحة إدنا لم تكن تعجبها بالمرة . تحدثت معها عن الموسيقى . وودت لو كان عند إدنا وقتًا كافيًا لرؤيتها فى المدينة ، وكتبت عنوانها بجزء صغير من قلم رصاص على قصاصة من بطاقة وجدتها فى جيبها . سألتها إدنا :

– ومتى تسافرين إلى المدينة ؟

– الاثنين القادم ، وأنت ؟

– الأسبوع القادم .

ثم أضافت إدنا :

– لقد كان صيفًا رائعًا ، أليس كذلك يا آنسة ؟

قالت الآنسة ريز وهى تهز منكبيها :

– نعم ، كان يمكن أن يكون رائعًا لولا البعوض وتوءما فاريڤال .

– ١٧ –

كانت أسرة پونتلييه تمتلك منزلاً جميلاً فى شارع إسبلاندى

فى نيو أورليانز . كان شاليهًا كبيرًا ذا طابقين وشرفة فسيحة وأعمدة أنيقة تحمل سقفه المنحدر . كان المنزل مطليًا بطلاء أبيض يخلب الأبصار . أما المصاريع وشيش « النوافذ » فقد طليت بلون أخضر جميل . وأما الفناء فقد كان نظيفًا على الدوام نثرت فى أرجائه الأزهار والنباتات من كل الألوان التى كانت تنبت فى لويزيانا . انتشرت قطع الأثاث فى حجراته دون نقص أو إهمال على الطريقة الكلاسيكية . وعلى الأرض كانت البسط وقطع السجاد ترقد ناعمة تدغدغ الأقدام ، وعلى النوافذ والأبواب انتشرت ستائر الجوخ ناعمة تسر الناظر بألوانها الخلابة . وعلى الجدران تناثرت اللوحات الثمينة التى اختيرت بعناية وذوق . كانت المائدة مزينة بتهاويل من قطع الزجاج المخروط والدمقس والفضة ، مما كان يثير حسد جميع النساء اللائى كن يأتين لزيارة مدام پونتلييه ولم يكن حظ أزواجهن مثل حظ زوجها .

وكان السيد پونتلييه يحب أن يتمشى فى أرجاء منزله يتفحص قطع الأثاث وكل شىء ، حتى يتأكد من أن كل شىء على ما يرام . كان يحب ممتلكاته ويحب النظر إليها بين الحين والآخر ؛ لأنها ممتلكاته التى لا يشاركه فيها أحد ، ولأنه كان يجترح سعادة فائقة من النظر فى لوحة أو فستان أو ستارة نادرة من الحرير بعد أن يشتريها ويضعها بين مقتنياته المنزلية العزيزة .

وفى أصائل أيام الثلاثاء – وكان يوم الثلاثاء بالذات هو يوم

استقبال مدام پونتلييه لحشد لا بأس به من الزائرين ؟ نساء يجئن فى عرباتهن أو فى الترام ، ومنهن من يأتين مشيًا وقد أغراهن بذلك النسيم العليل وقصر المسافة . وغلام قوقازى يرتدى معطفًا ويحمل صينية صغيرة من الفضة يستقبل فيها بطاقات الدعوة ويسمح للضيوف بالدخول . وخادمة تطوف بالضيوف ترتدى قبعة محززة ، تقدم الشراب والقهوة وقطع الشيكولاتة لمن يرغب . ومدام پونتلييه ترتدى فستانًا أنيقًا مخصصًا للاستقبال تقف فى حجرة الصالون طوال الأصيل تستقبل الزوار . كان الرجال يأتون أحيانًا فى المساء مع زوجاتهم .

إنه البرنامج الذى دأبت عليه مدام پونتلييه بدقة مفرطة منذ زواجها منذ ست سنين مضت . فى أمسيات معينة من كل أسبوع كانت تذهب لمشاهدة عروض الأوبرا فى صحبة زوجها .

كان السيد پونتلييه يغادر منزله كل صباح بين التاسعة والعاشرة ، ونادرًا ما كان يعود قبل السادسة والنصف أو السابعة مساءً . كان العشاء يقدم فى السابعة والنصف . وفى إحدى أمسيات يوم من أيام الثلاثاء ، جلس هو وزوجته لدى المائدة ، بعد بضعة أسابيع من عودتهما من جراند أيل ، ولم يكن على المائدة غيرهما ؛ فقد أمرا الخادمة بأن ترسل الطفلين إلى فراشهما ، فلم تكن تسمع غير وقع أقدامهما بين الحين والآخر وهما يراوغان الخادمة ، وصوت الخادمة الخفيض بين احتجاج وتضرع . لم تكن مدام پونتلييه ترتدى ثوب الاستقبال الذى

اعتادت أن ترتديه فى أيام الثلاثاء . كانت ترتدى ثوبًا عاديًا من هذه الثياب التى ترتديها النساء فى المنازل . لفت ذلك نظر السيد بونتلييه وهو يعد الحساء ويسلمه للغلام المنتظر ، سألها :

- هل أنت متعبة يا إدنا ؟ من جاء اليوم ؟ ضيوف كثيرون ؟

أرتشف من حسائه رشفة وشرع يضع عليه بعض الفلفل والملح والثوم وزيت الخردل- كان كل شىء فى متناول يده . أجابته إدنا وهى تتناول حساءها برضى واضح :

- نعم زارنى كثيرون ، وجدت بطاقاتهم لدى عودتى إلى المنزل ، كنت خارج البيت .

وهتف زوجها بصوت يشى بشىء من الذعر وهو يعيد إبريق الثوم إلى المائدة ونظر إليها من خلال نظارته :

- خارج البيت ! لماذا ، ما هذا الذى جعلك تخرجين من البيت فى يوم الثلاثاء بالذات ؟ ما هذا الذى اضطرك إلى أن تخرجى ؟

- لا شىء ، أحسست أننى أريد أن أخرج وخرجت .

قال لها زوجها وهو يتظاهر بالهدوء ويضع بعض الفلفل الحار على حسائه :

- أتمنى أن تكونى قد تركت اعتذارًا معقولاً للناس .

- كلا ، لم أترك أية اعتذارات ، قلت لجو أن يقول لهم إننى خارج البيت وحسب .

- لماذا يا حبيبتى ؟ أنا أعلم أنك تعرفين أن الناس فى هذه الظروف لا يفعلون ما فعلت ، ونحن نعرف الأصول ؛ فكان يجب أن تتركى للناس تفسيرًا مناسبًا لغيابك عندما أحسست أنك لست على ما يرام ، وأنك مضطرة إلى أن تتركى البيت .

- هذا الحساء غريب حقًا ، أمر غريب ألا تعرف هذه السيدة كيف تصنع حساءً لائقًا إلى الآن ! أى كشك فى المدينة يقدم حساءً أفضل من هذا . هل كانت مدام بلثروب هنا اليوم ؟

- هات الصينية بالبطاقات يا چو لا أتذكر من كان هنا .

وبعد لحظة جاء الغلام يحمل الصينية الفضية الصغيرة التى كانت ممتلئة ببطاقات الزيارة وقدمها مدام پونتلييه التى أمرته بأن يعطيها للسيد پونتلييه . قدمها الغلام للسيد پونتلييه وأخذ الحساء ، وراح السيد پونتلييه يتفحص أسماء ضيوف زوجته وهو يقرأ بعضًا منها بصوت عال مع بعض التعليقات العارضة . الآنسات دلسداس ، لقد أبرمت مع أبيهم صفقات كثيرة هذا الصباح ، بنات جميلات ، كان يجب أن يتزوجن منذ زمن . مدام بلثروب ، كلمتك عنها الآن يا إدنا ، ولم يكن يجب أن تخذليها على ذلك النحو .

لماذا ؟ لأن بلثروب يمكن أن يبيع ويشترى معنا أكثر من عشر مرات . تجارته تساوى الكثير ، مبلغًا كبيرًا بالنسبة لى . كان

يجب أن تتركى لها اعتذارًا . مدام چيمس هاى كامب ، الأفضل ألا تأبهى كثيرًا بتلك السيدة . . مدام لافورسيه ، تأتى كل هذه المسافة من كارلتن ، مسكينة ، سيدة كبيرة فى السن . مدام وجز ، مدام إلينور .

وعندما دفع بالصينية بعيدًا عنه قالت إدنا متعجبة وقد استشاطت غضبًا :

- لماذا تأخذ هذا الأمر بكل هذه الجدية وتفتعل مشكلة كبيرة ؟

- أنا لا أفتعل أية مشاكل . التفاهات فحسب هى التى نأخذها مأخذ الجد ، هذه الأمور لها أهمية كبيرة .

عندما وضع السمك المشوى لم يمد السيد پونتلييه يده ليصيب منه ، وقالت إدنا إنها لا تحب السمك المشوى . أما السيد پونتلييه فلم تعجبه الطريقة التى قدمت بها الخضراوات وقال :

- يبدو لى أننا ننفق النقود فى هذا البيت على وجبة واحدة طوال اليوم ومع ذلك يأكلها المرء على مضض .

قالت إدنا بنبرة تشى بعدم المبالاة :

- كنت تقول دائمًا إن الطباخة كنز ثمين :

- ربما كانت كذلك عندما جاءت فى البداية ، ولكن الطباخات بشر أيضًا ويحتجن لمن ينتبه إليهن مثل أية فئة

أخرى تستخدمينها . افرضى أننى لا أنتبه للموظفين فى مكتبى ، وأتركهم يعملون ما يريدون ، سوف يشيعون الفوضى الرهيبة فى كل شىء ويفسدون علىَّ تجارتى .

ولاحظت إذنا أن زوجها يهم بمغادرة المائدة دون أن يأكل لقمة واحدة ما خلا مقدار قليل من الحساء الذى أسرف فى تتبيله . قالت له :

- إلى أين ؟

- سأتناول عشائى فى النادى . تصبحين على خير .

وهمَّ بالخروج بعد أن تناول قبعته وعصاه المعلقتين على الرف . لم تكن مثل تلك المشاهد جديدة عليها . كانت سببًا فى ضيقها وحرمانها من السعادة . وفى أكثر من مناسبة سابقة فقدت أية رغبة فى تناول طعامها . وأحيانًا كانت تدخل المطبخ لكى تلقى باللوم على الطباخة . لقد حبست نفسها ذات يوم فى حجرتها وراحت تقرأ فى كتاب الطبخ طوال مساء كامل ، وفى النهاية دونت قائمة لطعام الأسبوع كله ، ولم يسبب لها ذلك غير الضيق من إحساسها بأنها لم تفعل شيئًا ذا بال .

ولكن إذنا أعدت عشاءها بنفسها ذلك المساء بنية مبيتة . توهج وجهها بالحيوية وتألقت عيناها بانفعال باطنى . بعد أن فرغت من عشائها دخلت حجرتها بعد أن أمرت الغلام بأن يخبر أى ضيوف آخرين بأنها ليست على ما يرام .

كانت حجرة نومها واسعة تتألق بالجمال والأناقة ، وافرة الأثاث رائعة الألوان تحت الضوء الخافت الذى خففت منه الخادمة إلى أبعد حد . أقبلت على النافذة وألقت نظرة علوية على الأشجار المتعانقة فى الحديقة . وقد حشد الليل سحره وفتنته كلها هناك تحت الأشجار . وعلى مشهد من عطر الأوراق والأزهار . بأشكالها المتموجة التى أخذت لون الغسق . كانت إذنا تنشد ذاتها وتجد نفسها فى هذه الظلمة الجزئية المحببة التى تناسب حالاتها النفسية . ولكن أصواتًا أقبلت عليها من الظلمة والسماء والنجوم لم تجلب لها هدوءًا ولا راحة . كانت أصوات ساخرة هازئة تطلق أنغامها الحزينة خالية من الأمل لا تبشر بخير . عادت أدراجها إلى حجرتها وراحت تزرع الحجرة جيئة وذهابًا دون أن تتوقف . كانت تمسك فى يدها منديلاً مزقته وأخذت تطويه حتى سقط من بين يديها . وعندما توقفت عن المشى خلعت خاتم زواجها وألقت به على البساط وعندما رأته داسته بباطن قدمها كأنها تريد أن تسحقه سحقًا ، ولكن كعب حذائها الصغير لم يكن فى مقدوره أن يحطم الخاتم ، ولا حتى أن يترك علامة أو انبعاجًا فى تلك الدائرة الضيقة . وفى ثورة غضبتها الجامحة أمسكت بآنية زجاجية كانت فوق المنضدة وقذفت بها على أحجار المدفأة . كانت تريد أن تحطم شيئًا . كانت تريد أن تسمع صوت ارتطام وصدام . دخلت إحدى الخادمات الحجرة بعد أن سمعت صوت ارتطام الزجاج المكسور لكى تكتشف ماذا

كان الأمر . وقالت لها إدنا : إنها آنية من الزجاج وقعت على أحجار المدفأة ، لا تكترثى ، اتركيها حتى الصباح .

- آه ، أخشى أن يدخل نتف الزجاج فى قدميك يا سيدتى .

وراحت الخادمة الشابة تلتقط قطع الزجاج التى تناثرت على السجاد . ثم أردفت :

- وها هو ذا خاتمك يا سيدتى كان على السجادة .

مدت إدنا يدها وأخذت خاتمها وزجت به فى إصبعها من جديد .

- ١٨ -

وفى الصباح التالى سأل السيد پونتلييه زوجته وهو يهم بالخروج من البيت قاصـــــدًا مكتبه إذا ما كانت تريد أن تقابله فى المدينة لكى يبحثا عن مثبتات جديدة لأرفف المكتبة فقالت له :

- أظن أننا لا نريد هذه الأشياء الآن يا ليونس . لا نريد فى الواقع أية أشياء جديدة ، إنك مسرف أكثر من اللازم . أنا لا أصدق أنك تفكر فى توفير النقود أو ادخارها .

- أفضل طريق إلى الثراء هو كسب النقود لا توفيرها يا حبيبتى .

وأسف لأنه لم يأنس منها رغبة فى الذهاب معه إلى المدينة لتختار الأرفف الجديدة . بادرها بقبلة سريعة ونبهها إلى أن صحتها ليست على ما يرام وأخبرها بأن تهتم بنفسها . فقد كان وجهها شاحبًا وحركتها قليلة إلى حد لافت .

وعند خروجه من البيت وقفت فى الشرفة الأمامية ، وقطفت دون وعى منها بعض زهرات الياسمين النابتة على تعريشة قريبة . استنشقت عطر الأزهار وقذفت بها فى صدر ثوبها الصباحى الأبيض . كان الصبيان يجران عربة من عربات القطار السريع ويملآنها بالطوب والعصى ، والخادمة فى إثرهما تطاردهما بخطوات مفتعلة ، تتظاهر بحيوية زائفة ونشاط وهمى . وبائع فاكهة ينادى على فاكهته فى الشارع .

كانت إدنا تنظر فى الفراغ وقد علا وجهها تعبير الاستغراق فى التفكير . لم تكن تنتبه لشىء مما حولها . الشارع والأطفال وبائع الفاكهة والأزهار التى نمت على مرمى حجر منها ، جميع الأشياء جزء من العالم الذى أصبح بين يوم وليلة غريبًا يقف ضدها .

عادت إلى الداخل وعنّ لها أن تحادث الطباخة فى شأن أخطاء الليلة المنصرمة ، ولكن السيد پونتلييه كان قد كفاها هذه المهمة البغيضة التى لم تكن أهلاً لها . كانت طريقته فى الجدل مع مستخدميه أكثر إقناعًا . لقد ترك البيت يخامره إحساس بالثقة بأنه سوف يعود فى المساء وربما فى أمسيات كثيرة بعد ذلك ويجلس مع زوجته ويتناولا العشاء الجدير بهذا الاسم .

لبثت إدنا ساعة أو ساعتين تتفحص بعضًا من رسوماتها القديمة . تستطيع الآن أن ترى عيوبها وأوجه النقص فيها بادية للعيان . همت بإصلاحها ولكن مزاجها لم يسعفها . جمعت بعضًا

من تلك الرسومات وقررت أن تأخذها معها عندما عنّ لها أن ترتدى ثياب الخروج ومغادرة البيت . بدت أنيقة فاتنة فى ملابس الخروج . عاد وجهها الذى لفحته الشمس إلى سيرته الأولى من التألق والإشراق ، وعاد جبينها ينضح بالبياض والملاحة فى حضرة شعرها الأصفر الكثيف . لم يتبق على صفحة وجهها غير بقع قليلة من أثر شمس المصيف ، تزينه شامة تقع قريبة من شفتها السفلى وأخرى على الصدغ يغشاها الشعر فلا تكاد تراها العيون .

وفى الشارع كانت إدنا تفكر فى روبرت . كانت لم تزل فريسة لافتتانها الجديد . حاولت نسيانه ؛ لأن التذكر لا طائل من ورائه . ولكن التفكير أصبح هاجسها الذى يصحبها فى اليقظة والمنام . ليس لأنها راحت تجتر كل كبيرة وصغيرة جرت بينهما منذ تعارفا ، وليس لأنها تتذكر الآن كل حركة من حركاته ولكن ما ملك عليها قلبها هو شخصيته ، هى طريقته فى الحياة ، تخبو أحيانًا كأنها تريد أن تضيع مع ما يغشاه النسيان ، ثم لا تلبث أن تعود بقوة تغمرها بحنين لا تعرف كنهه .

كانت إدنا فى طريقها إلى منزل مدام راتجنول . توطدت بينهما المودة فى جراند أيل ولم تخبُ .

دأبت كل منهما على رؤية صاحبتها بين الحين والآخر بعد رجوعهما إلى المدينة . لم تكن المسافة بعيدة بين منزل عائلة راتجنول ومنزل إدنا الذى يقع على ناصية شارع جانبى حيث

يمتلك السيد راتجنول متجرًا لبيع الأدوية التى كانت تجارة رائجة لا تهزها الأزمات . كان والده يشتغل قبله فى التجارة نفسها ، وكان السيد راتجنول ذا مكانة عالية فى مجتمعه ويتمتع بسمعة طيبة ، يحسده الناس على استقامته وذكائه . تعيش أسرته فى شقة واسعة فوق المتجر ، لها مدخل على الجانب تحت مدخل العربات . كانت إدنا تقول : إن ثمة شيئًا فرنسيًا يميز هذه الأسرة عن غيرها من باقى الأسر ، شىء يميز حياتها ويجعلها غريبة عن بيئتنا . ففى الصالون الواسع النظيف الذى يمتد بطول البيت كله كانت عائلة راتجنول تستقبل ضيوفها وأصدقاءها مرة كل أسبوعين يعزفون المقطوعات الموسيقية أو يلعبون الورق ؛ فصديق يضرب على الجيتار ، وآخر يضرب على العود ، وثالث يعزف على الكمان ، وآخرين يرفعون عقيرتهم بالغناء ، ومجموعة أخرى تعزف على البيانو قطعًا تتراوح بين النشاط والخمول . كانت أمسيات راتجنول الموسيقية معروفة للجميع ، وكان المدعو إليها يعد نفسه من ذوى الحظ العظيم .

وجدت إدنا صديقتها مشغولة فى ترتيب الملابس التى عادت من آلة الغسيل ذلك الصباح . ولم تكد ترى إدنا حتى نهضت تاركة عملها لترحب بضيفتها التى جات على غير ميعاد . قالت لها : « إن سيتيه تستطيع أن تقوم بالمهمة نفسها ، فهو عملها على أية حال » . ولكن إدنا اعتذرت لها لهذه الزيارة المفاجئة . دعت

راتجنول الخادمة وأمرتها بلغة فرنسية بأن تعتنى بقائمة الملابس التى أعطتها إياها . أخبرتها بأن تبحث بينها عن منديل من الكتان للسيد راتجنول كان قد ضاع منه الأسبوع الفائت ، وأمرتها كذلك بأن تعزل قطع الثياب التى تحتاج إلى رتق أو إصلاح .

وضعت يدها على خاصرة إدنا ومضت بها إلى الصالون الذى كان يعبق بعطر الأزهار التى وضعت فى مزهريات ضخمة قامت إلى جوار المدفأة . كانت مدام راتجنول أكثر جمالاً من سابق عهدها بها ، ترتدى ثوبًا منزليًا فضفاضًا انحسر عن ساقيها البضتين وعن رقبة بيضاء أظهرت ثنياتها الغنية . ولدى جلوسهما قالت إدنا وقد افتر ثغرها عن ابتسامة : « ربما يكون فى وسعى أن أرسم لك صورة فى يوم من الأيام » ، وأخرجت لفة بها رسوماتها ونشرتها واستمرت تقول : « أعتقد أننى يجب أن أستمر فى تنقيحها . أحس بأنى كنت أريد أن أضيف شيئًا . ما رأيك فيها ؟ هل تظنين أن الأمر يستحق أن أستمر فى الدراسة والتنقيح ؟ قد يكون من الأفضل أن أواصل الدراسة فى لاديبور » .

كانت تعرف أن رأى مدام راتجنول فى مثل هذه الأمور لا قيمة له تقريبًا ، وكانت تعرف أنها حزمت أمرها بنفسها وليست فى حاجة إلى مشورة ؟ ولكنها كانت فى حاجة إلى كلمة مديح أو تشجيع تعينها على مواصلة مشوارها الفنى . قالت لها مدام راتجنول :

- موهبتك عظيمة يا عزيزتى !

قالت إدنا معترضة وقد بدا السرور على صفحة وجهها .

- هراء !

ولكن مدام راتجنول قالت ملحة وهى تفحص الرسومات واحدة واحدة وتنشرها وتمعن فيها النظر وتميل برأسها :

- موهبتك عظيمة قلت لك ، انظرى إلى هذه اللوحة للفلاح البافارى ، إنها تستحق أن توضع فى إطار ؟ وهذه السلة من التفاح ! لم أر فى حياتى لوحة حية كهذه ، إنها تغرى المرء بأن يمد يده ويلتقط واحدة .

كانت إدنا ممتنة لتقريظ صديقتها الذى تعرف أنها لم تكن تستحقه . احتفظت بعدد من الرسومات وأعطت الباقى لمدام راتجنول التى امتنت للهدية امتنانًا يفوق قيمتها وعرضتها على زوجها الذى عاد لتوه من متجره لتناول طعام الغداء .

كان السيد راتجنول من هؤلاء الذين يوصفون بأنهم ملح الأرض . ينطلق وجهه بالبشر أينما حل ، وتنم ابتسامته الدائمة عن طيبة قلبه وحسن عشرته وحبه الخير للجميع . كان هو وزوجته يتحدثان الإنجليزية بلكنة ينم عنها النبر غير الشرعى الذى يضعانه على بعض الحروف والحرص على نطق الألفاظ فى تؤدة وتريث . كان زوج إدنا يتحدث الإنجليزية دون لكنة أو شائبة .

وهى تجلس على المائدة معهم ظنت أن الغداء يتضمن الخضراوات فحسب . ولكنها ما لبثت أن عرفت أن الغداء لم يكن يتكون من الخضراوات ، ولكنه كان غداءً متنوعًا بسيطًا ومشبعًا فى الوقت نفسه . كان السيد راتجنول مسرورًا لرؤيتها ، رغم أنه لاحظ أنها لم تكن فى كامل صحتها التى كانت عليها فى جراند أيل ، ونصحها بأن تأخذ بعض المقويات . تحدث فى أمور كثيرة ، وفى قليل من السياسة ، نقل بعض أخبار المدينة وإشاعات الجيران . كان يتحدث بنشاط وحماس مما أضفى مزيدًا من الأهمية على كل حرف ينطق به . كانت زوجته تنصت إلى كل شىء يقوله بعد أن وضعت شوكتها حتى تتفرغ للاستماع إليه وتوافقه عليه وتشجعه على المزيد .

تركتهم إذنا وهى أكثر حزنًا وإحباطًا على غير المتوقع . لم يعجبها الانسجام العائلى بين السيد راتجنول وزوجته . لم يغرها التوافق بينهما بأى حنين أو مراجعة لشأنها مع زوجها . لم تكن هى الحياة التى تناسبها أو تصلح لها ، بل رأتها حياة مدعاة لملل وضجر مروعين . لم تترك منزل راتجنول وهى أكثر أسفًا على افتقار الانسجام فى بيتها ، ولا أكثر حنينًا لحياة كتلك الحياة ، وإنما تركتها وهى ترثى لحال صديقتها - وهى تشفق عليها من ذلك الوجود التعس الذى تحياه مدام راتجنول ، وهو وجود لا يرفع صاحبه إلى أبعد من القناعة التى تعمى العيون ، ولا تختبر

بها لحظة من لحظات الإخفاق ولا تجرب بها نوبة من نوبات الأسى ، ولا يتيح لها أن تذوق حياة الإثارة . تساءلت إدنا بينها وبين نفسها عن معنى حياة الإثارة . إنه تعبير غشى فكرها مثل انطباع غريب لم تقصده .

- ١٩ -

لم تستطع إدنا أن تنس أنها كانت مخطئة وحمقاء وسخيفة حين داست على خاتم زواجها وقذفت بآنية الكرستال على أحجار المدفأة . عاهدت نفسها على ألا تفعل مثل هذه الأفعال التى لا تنفع ولا تضر . بدأت تفعل ما تريد وتشعر بما تريد أن تشعر به . توقفت عن استقبال الضيوف فى منزلها أيام الثلاثاء توقفًا تامًا ، وقررت ألا ترد زيارات الذين زاروها من قبل . تضاءلت جهودها فى إدارة بيتها كزوجة صالحة ، بدأت تخرج وتعود كما يحلو لها ، وتركت نفسها عرضة لأية نزوة عابرة .

كان السيد پونتلييه زوجًا دمثًا لطيفًا طالما كان يأنس من زوجته طاعة وخضوعًا ولكن تغيرها وأسلوبها الجديد سبب له اضطرابًا وحيرة وصلت إلى درجة الصدمة . أضف إلى ذلك أن إهمالها التام لواجباتها الزوجية قد أثار حفيظته . وعندما كان يستشيط غضبًا من تصرفاتها ويقسو عليها فى الحديث كانت إدنا ترد عليه بشىء من التعالى والغطرسة . لقد عقدت العزم على ألا تتراجع للوراء خطوة واحدة .

- يبدو لى أن أقصى درجات الحماقة يمكن أن تصل إليها

امرأة مسئولة عن منزل وبيت وأولاد عندما تضيع أيامها فى مرسمها فى حين أن هذا الوقت من حق أطفالها وأسرتها .

– أشعر أننى أحب الرسم ، وربما لم ينتابنى هذا الشعور من قبل .

– أنا لا أريدك تتخلين عن هوايتك فى الرسم ، ارسمى ، ولكن بالله عليك لا تكونى سببًا فى انهيار أسرتك . عندك مدام راتجنول مثلاً تحافظ على حفلاتها الموسيقية وبذلك لا تجعل الفوضى تدب فى حياتها الأسرية . وهى تفهم فى الموسيقى أكثر من فهمك أنت فى الرسم .

– لا هى تفهم فى الموسيقى ولا أنا أفهم فى الرسم . أنا لا أفعل ذلك بسبب الرسم .

– بسبب ماذا إذن ؟

– لا أدرى . هل تتركنى وحدى ؟ إنك تضايقنى .

كان السيد پونتلييه يظن فى كثير من الأحيان أن شيئًا قد خالط عقل زوجته . إنه يرى بوضوح كم تغيرت . لم تعد كما عرفها . أصبحت امرأة أخرى تختلف عن إدنا القديمة . كان الأمل يحدوه كل يوم فى أن تعود إلى ما كانت عليه ، وأن تخلع عنها هذه الشخصية الزائفة التى تلبستها وملكت عليها أمرها .

تركها زوجها وحدها كما طلبت وذهب إلى مكتبه . صعدت إدنا إلى مرسمها فى حجرة أنيقة تقع على سطح المنزل . ظلت

تعمل بنشاط وحماس استثنائيين دون أن تنجز شيئًا يشبع طموحها ولو إلى الحد الأدنى . دفعت البيت كله إلى الاهتمام بأمور الفن . وقف الولدان فى وضع التصوير لكى ترسمهما . كانا يظنان الأمر نزهة فى البداية ، ولكن ما لبث الملل والضجر أن ركبهما بعد أن اكتشفا أن الأمر ليس جزءًا من لعبة مبتكرة لتسليتهما . لبثت الخادمة ساعات طوال أمام إدنا وألوانها وفرشاتها ، صابرة محتسبة ، بينما كانت الخادمة الثانية تعتنى بالطفلين ولم تجد الوقت لتنظيف حجرة الاستقبال . ولكن الخادمة أوفت بنصيبها أيضًا كهدف لفرشاة إدنا وألوانها بعد أن اكتشفت إدنا أن ظهر الخادمة الشابة ومنكبيها ينسجمان مع الخطوط الكلاسيكية ، وأن شعرها الذى ترسله على ظهرها طويلاً مصدر إلهام خطير . كانت إدنا أحيانًا تدندن بالغناء وهى مشغولة بالرسم ، بالأغنية التى تبدأ بـ « آه لو كنت تعرف ! » .

كانت الأغنية تثير ذكرياتها ، فى وسعها أن تسمع من جديد خرير المياه وخفقات الأشرعة . فى وسعها أن ترى أشعة القمر المنعكسة على صفحة الخليج ، وتحس بضربات رياح الجنوب الساخنة تتتابع بين ضعف وشدة . تشيع فى جسدها تيارًا من رغبة رقيقة، فتضعف عندئذ قوتها على الإمساك بفرشاتها ، وتتوهج عيناها بضوء طارئ .

كانت تمر عليها أيامًا وهى فى سعادة طاغية لا تعرف

مصدرها : سعيدة لأنها تعيش وتتنفس . عندما يتحد كيانها كله مع ضوء الشمس والألوان وعطر الأزهار والدفء الغنى لأوقات النهار فى الجنوب . عندئذ كانت تحب أن تسيح وحدها فى أمكنة غريبة لا تعرفها . وتكتشف أركانها الهادئة التى تغمرها أشعة الشمس وتغرى بالأحلام . وجدت ضالتها فى الحلم والوحدة والبعد عن مضايقات بنى الإنسان .

وكانت تمر عليها أيام أخر تشعر فيها بتعاسة لا تعرف مصدرها أيضًا وشقاء لا تعرف كنهه . تشعر عندئذ أن الحياة لا تستحق حزنًا ولا ابتهاجًا ، ويستوى عندها الموت بالحياة ، تحس بأن الحياة جحيم غريب قوامه الفوضى والاضطراب، وأن الناس أشبه بالديدان التى تبذل ما فى وسعها للوصول إلى العدم والزوال دون أن تدرى . تتوقف عن العمل عندما تعتورها تلك المشاعر البغيضة، وتتوقف عن نسج الآمال التى تثير رغبتها وتدفئ دماءها .

- ٢٠ -

عندما تكون فى مثل هذه الحال كانت إدنا تسعى لزيارة الآنسة ريز . لم تنس الانطباع السيئ الذى تركته الآنسة فى آخر مقابلة بينهما، ورغم ذلك كانت تحس برغبة فى رؤيتها، وأن تصغى إليها وهى تعزف على البيانو . وفى أول ساعات العصر حزمت أمرها على الذهاب إلى العازفة . وعندما لم تجد بطاقتها عدت ذلك من سوء الحظ وراحت تبحث عن عنوانها فى دليل التليفون،

ووجدت أن الآنسة تسكن فى شارع بيانفيل على مبعدة من منزلها . ولكن الدليل الذى استقت منه العنوان كان قديمًا ، فعندما اتصلت بالرقم الذى وجدته أخبروها بأن المنزل الذى تبحث عنه تسكنه أسرة من القوقازيين ويقومون بتأجير بعض حجراته المفروشة . سكنوا المنزل منذ ستة أشهر ولا يعرفون شيئًا عن الآنسة ريز، ولا يعرفون شيئًا عن أى من جيرانهم . وأكدوا لإدنا أن سكان المنزل من ذوى الرتبة الممتازة فى المجتمع . ولم تصبر حتى تناقش أمور الطبقات الاجتماعية مع مدام بوبون، ولكنها أسرعت إلى متجر بقالة مجاور وهى متأكدة من أن الآنسة ريز قد تركت عنوانها مع صاحبه .

كان يعرف الآنسة أكثر مما كان يريد . أجاب لها عن جميع الأسئلة التى سألتها . والحق أنه لم يكن يريد أن يعرف الآنسة على الإطلاق، ولم يكن يريد أن يعرف شيئًا عنها من قريب أو بعيد . كان يرى أنها امرأة بغيضة منفرة لا يحبها أحد فى شارع بيانفيل . وقال إنه يشكر الله على أنها تركت هذا الحى ، ويشكر الله أيضًا على أنه لا يعرف إلى أين ذهبت .

وازدادت إدنا شوقًا إلى رؤية الآنسة ريز منذ أن اطلعت على هذه الألغاز المحيرة تذكرت فجأة أن مدام لبرن هى الوحيدة التى يمكن أن تدلها على مكانها . كانت تعلم أنه من العبث اللجوء إلى مدام راتجنول التى لم تكن تحب الآنسة ولا تحب أن تعرف عنها شيئًا ولن تخبرها بأكثر مما أخبرها به البقال .

كانت إدنا تعلم أن مدام لبرن قد عادت إلى المدينة، فقد كان الوقت منتصف نوفمبر . وهى تعلم أيضًا أين تسكن أسرة لبرن فى شارع كارترز . كان منزلهم يبدو من الخارج مثل سجن كبير من كثرة القضبان الحديدية التى ثبتت على أبوابه ونوافذه من آثار حكم الإسبان البائد، ولم يفكر أحد فى إزالتها . ضرب حول البيت سور عال يحتضن الحديقة . وله بوابة ضخمة على الشارع كانت مغلقة . دقت إدنا الجرس المعلق على هذه البوابة الخارجية، وجلست على أريكة خارج البيت تنتظر من يسمح لها بالدخول . كان ڤكتور هو الذى فتح لها الباب، فى أثره خادمة زنجية تمسح يديها على مريلتها . سمعتهما إدنا يتشاجران قبل أن يفتحا الباب، تقول الخادمة الزنجية إنها يجب أن تترك لها الفرصة لممارسة مهام عملها، ومن صميم عملها أن ترد على الطارق .

كان ڤكتور مندهشًا وسعيدًا لرؤية مدام پونتلييه، لم يستطع أن يخفى اندهاشه وسعادته حين رآها . كان شابًا فى التاسعة عشرة، حسن المظهر عابس الوجه يشبه أمه فى كثير من الوجوه ولا سيما فى تهوره وحدته . أمر الزنجية بأن تذهب إلى سيدتها على الفور لكى تخبرها بأن مدام پونتلييه تريد أن تراها . وأبدت الخادمة تذمرًا ورفضًا واستأنفت عملها الذى بدأته فى إزالة الأعشاب الضارة فى الحديقة . غضبت لأنها تدعى الآن للقيام بجزء من واجباتها وليس واجباتها كلها أما ڤكتور فقد أمطرها بوابل من

السب والشتائم التى خرجت بسرعة من فمه مما جعلها لا تفقه منها شيئًا . ولكن الشتائم جعلتها تعدل عن قرارها وتلقى بفأسها وتسرع إلى الداخل وهى تغمغم بكلمات غير مفهومة .

أبدت إدنا إحجامًا عن الدخول . أعجبها الجو فى الحديقة حيث انتشرت المقاعد والأرائك الوثيرة حول مائدة صغيرة تهافتت على أحد المقاعد من التعب الذى أحست به بسبب تجوالها الطويل، وشرعت تتأرجح فى رقة وخفة على كرسيها بعد أن أرسلت فوق رأسها مظلتها الحريرية الناعمة . عندئذ جلس ڤكتور على مقعده إلى جوارها وشرع يشرح لها سبب تصرف الخادمة الزنجية الهجومى، قال لها إنها لم تتلق التدريب الكافى وإنه لم يكن فى المنزل حتى يأخذ بيدها، وإنه لم يمض على مجيئه من الجزيرة سوى ساعات، ومن المتوقع أن يرجع غدًا . لقد مكث طوال الشتاء فى الجزيرة ؛ فهو يعيش هناك، وقد أعد العدة لاستقبال ضيوف الصيف .

قال لمدام پونتلييه إن المرء يحتاج إلى التسلية بين فترة وأخرى، وإنه كان يجد الذريعة بين الحين والآخر للذهاب إلى المدينة . وقال لها إنه ذهب إلى المدينة مساء أول أمس ! ولم يطلع أمه على ذلك . ثم بدأ يهمس وهو يقول لها إن لديه ذكريات كثيرة، ولا يستطيع أن يحكى كل شىء لها لأنها امرأة وقد لا تتفهم هذه الأمور . وحكى لها عن الفتاة التى اختلست إليه النظرات

وابتسمت له من خلال مصراع النافذة ، وكانت غاية فى الجمال ! وبادلها الابتسام بابتسام وعرج إليها وكان له معها حوار . فى قرارة نفسها قالت مدام پونتلييه إنه لن يدع الفرصة تفلت من يده إلا إذا كان ساذجًا . وجدت تسلية فى حديث الشاب ولم تبد رغبة فى فراقه . لابد من أن درجة من الشوق والتسلية قد ظهرت فى نظرات عينيها . ولذا أصبح الشاب أكثر جرأة فى الحكى . ولابد من أن مدام پونتلييه قد وجدت نفسها فى النهاية تستمع إلى قصة تنبض بالحياة إلى أن ظهرت مدام لبرن فى الوقت المناسب .

كانت مدام لبرن لم تزل ترتدى ثوبها الأبيض كعادتها فى فصل الصيف . تألقت عيناها بترحاب جم لدى رؤية مدام پونتلييه . وطفقت تسألها عن أحوالها : لماذا لا تريد مدام پونتلييه أن تدخل ؟ ألا تريد أن تشاركنا بعض الشراب ؟ ولماذا لا تأت لزيارتنا ؟ وكيف حال السيد پونتلييه والطفلين الجميلين ؟ هل رأت مدام پونتلييه شهر نوفمبر دافئًا على ذلك النحو من قبل ؟

عندئذ ترك الشاب مقعده ليجلس على أريكة خلف مقعد أمه، ومن موقعه الجديد استطاع أن يرى وجه إدنا كله لقد أخذ شمسيتها الصغيرة من بين يديها عندما كان يتحدث معها، وهو الآن يرفعها ويدورها بين إصبعيه وهو مستلق على قفاه وعندما راحت مدام لبرن تشكو من الملل الذى تعانى منه منذ عودتها إلى المدينة، وأنها لم تر من الناس العدد الذى كانت تراه فى

المصيف، وأنه حتى ڤكتور وجد ما يشغله منذ مجيئه من الجزيرة منذ يومين أو أكثر، راح الشاب يتلوى بجسده على أريكته وأخذ يغمز لإدنا بعينيه كما تفعل امرأة لعوب . أحست إدنا أنها شريك فى جريمة ما، مما جعلها تبدى له امتعاضًا وتحمل على قسمات وجهها نفورًا .

قال لها إن روبرت لم يرسل لها سوى رسالتين، ولم يقل فيهما الكثير . وعندما رجته الأم أن يحضرهما قال ڤكتور إن الرسالتين لا تستحقان عناء البحث عنهما وإحضارهما قال إنه يتذكر ما فيهما . ولكنهما لم يسمعا منه غير جلبة لم يفهما منها شيئًا عندما أراد أن يحدثهما عن مضمون الرسالتين بالفعل .

كتب روبرت رسالة وهو فى فيرا كروز وكتب الأخرى من مدينة مكسيكو . قال إنه قابل منتول الذى يساعده فى التجارة . وقال إن الموقف المالى لم يتحسن إلى تلك اللحظة وإنه على ما كان عليه وهو فى نيو أورليانز، ولكن احتمالات المستقبل تنبئ بالأفضل . كتب عن مدينة مكسيكو ووصف أهلها وعاداتهم وأحوال الحياة التى وجدها . وأرسل آيات الحب إلى أسرته، وأرفق برسالته شيكًا لأمه وطلب منها أن تسلم له على جميع أصدقائه ومعارفه . كان هذا هو مضمون الرسالتين . وعرفت أنه لو كان أرسل لها رسالة خاصة لأعطوها لها الآن . وعادت إليها حالة الحزن التى دفعتها إلى خارج بيتها، وتذكرت أنها كانت تبحث عن الآنسة ريز .

كانت مدام لبرن تعرف أين تسكن الآنسة ريز . أعطتها العنوان وأبدت أسفها لأنها لم توافق على البقاء حتى بقية المساء وتذهب لزيارة الآنسة ريز فى يوم آخر . كان النهار قد قارب على نهايته، وكانت الشمس قد بدأت تهوى نحو المغيب . صحبها ڤكتور إلى الباب وقد أرسل شمسيتها فوق رأسها وهما فى طريقهما إلى السيارة رجاها أن تتذكر أنه أسر إليها هذا الأصيل سرًا من الأسرار لا ينبغى أن تقوله لأحد . ضحكت ومازحته ثم تذكرت بعد فوات الأوان أنه كان يجب أن تكون متحفظة ووقورة .

قالت مدام لبرن لابنها يا لها من امرأة جميلة حقًا مدام پونتلييه

ورد الشاب مسلمًا : إنها فاتنة ! لقد تحسنت على جو المدينة إنها تبدو مختلفة عما كانت عليه هناك .

- ٢١ -

زعم البعض أن السبب فى اختيار الآنسة ريز مسكنها فوق أسطح العمارات هو رغبتها فى أن تثبط همة الشحاذين والباعة الجائلين والزوار . كانت الحجرة الأمامية كثيرة النوافذ التى تعلوها القذارة، بيد أنها كانت مفتوحة أغلب الوقت مما كان يسمح بدخول الهواء والضوء رغم دخول الدخان والسخام أيضًا . كانت إذنا تستطيع أن ترى النهر الهلالى الشكل وأشرعة السفن ومداخن البواخر الضخمة التى تروح وتجىء فى مياه الميسيسيبى . تزدحم الشقة بجهاز بيانو ضخم يقع فى حجرة

من حجراتها الثلاث . وفى ركن من الحجرة تضع موقدًا كبيرًا يعمل بالكيروسين تطبخ عليه وجباتها حين لا ترى فى نفسها رغبة للذهاب إلى المطعم المجاور . كانت تأكل فى تلك الحجرة وتحتفظ بأمتعتها فى صوان قديم نادر أصابه البلى وعلته القذارة من مائة عام من الاستعمال .

عندما طرقت إدنا باب شقة الآنسة ريز ودخلت وجدتها واقفة بجوار النافذة مشغولة بإصلاح حذاء قديم مصنوع من نسيج صوفى خشن . ضحكت الموسيقية الصغيرة عندما رأت إدنا . تغضن وجهها من الضحك واستجابت له جميع عضلات جسدها . كانت تقف هناك على مشهد من آخر أضواء النهار، لا تتصنع ولا تتكلف . لم تزل ترتدى هذا الحذاء الرث وتلك الباقة من أزهار البنفسج تضعها على جانب من رأسها . قالت لإدنا :

- تذكرت أن لك صديقة فى النهاية، لقد قلت فى نفسى : آه إنها لن تأتى أبدًا .

سألتها إدنا وعلى شفتيها ابتسامة :

- هل تريديننى فعلاً أزورك ؟

- لم أفكر كثيرًا فى الموضوع .

وجلست السيدتان على أريكة صغيرة متداعية تستند إلى الجدار واستمرت الآنسة تقول :

- إننى جد سعيدة بقدومك على أية حال . كنت سأصنع

لنفسى كوبًا من القهوة قبل أن تدخلى ، سوف أصنع لك كوبًا معى . وكيف حال سيدتى الجميلة ؟ دائمًا جميلة والله ! دائمًا فى صحة موفورة ! دائمًا مبسوطة !

ثم أخذت يد إدنا بين أصابعها القوية النحيلة وعادت تقول :

– أحيانًا كنت أقول فى نفسى : نعم ، لن تأتى أبدًا لزيارتى ، وإن وعدها مثل وعود أولئك السيدات من الطبقة إياها، لا تعنيه . هذا لأننى لا أصدق أنك تحبيننى يا مدام پونتلييه .

قالت لها إدنا وهى تحدجها بنظرة فاحصة :

– لا أعلم إن كنت أحبك أم لا .

كانت صراحة مدام پونتلييه مصدر سعادة الآنسة ريز التى عبرت عن سعادتها بالتوجه إلى الموقد وإحضار كوب القهوة لضيفتها . صادفت القهوة وقطع الكيك هوى فى نفس إدنا التى أحجمت عن تناول أى شىء عند مدام لبرن، وهى الآن تشعر بالجوع . وضعت الآنسة الصينية على منضدة صغيرة بين يدى مدام پونتلييه وجلست مرة أخرى على الأريكة المتهالكة وعادت تقول وهى تضع الكريم فى كوب إدنا وتعطيه لها :

– تلقيت رسالة من صديقك .

– صديقى ؟

– نعم، صديقك روبرت . كتبها إلى من مكسيكو سيتى .

قالت إدنا باندهاش وهى تقلب قهوتها ذاهلة العقل :

- كتبها لك ؟

- نعم، ولم لا ؟ لا تتركى قهوتك تبرد ؟ اشربيها . رغم أن الرسالة كان يجب أن يرسها لك أنت، ليس فيها غير مدام بونتلييه من البداية إلى النهاية .

عندئذ قالت لها مدام بونتلييه بنبرة متوسلة :

- أرنى الرسالة .

- كلا، الرسالة لا تخص غير كاتبها والشخص الذى أرسلها إليه .

- ألم تقولى إنها تخصنى من البداية إلى النهاية ؟

- لقد كتبها عنك وليس لك . هل رأيت مدام بونتلييه ؟ كيف حالها الآن ؟ وكما تقول مدام بونتلييه، أو كما قالت مدام بونتلييه ذات يوم، إذا تصادف وزارتك مدام بونتلييه فاضربى لها امپروميتو لشوپان [٤] فهى قطعتى المفضلة - سمعتها هنا منذ يوم أو يومين . أود أن أعرف كيف تستجيب لها . وهكذا وهكذا، وكأننا نلتقى أنا وأنت على الدوام !!

- أرنى الرسالة .

- أوه، كلا .

- وهل كتبت له الرد ؟

- كلا .

- أرنى الرسالة .
- كلا، ثم كلا .
- إذن اعزفى الموسيقى كما قال لك .
- الوقت متأخر، متى تريدين العودة إلى بيتك ؟
- الوقت لا يهمنى . وسؤالك يبدو فظًا . اعزفى الموسيقى .
- ولكن لم تخبرينى شيئًا عنك، ماذا تفعلين الآن ؟
- أرسم، لقد أصبحت فنانة . تخيلى .
- آه، فنانة ! أنت لديك طموحات دون أساس حقيقى من موهبة يا مدام .
- لماذا بدون أساس، أولا تظنين أننى فنانة ؟!
- أنا لا أعرف شيئًا عن موهبتك حتى أحكم . لا أعلم شيئًا عن استعدادك فى الفن . الفن يحتاج إلى الكثير من المواهب، مواهب حقيقية أصيلة لا يكون قد اكتسبها بجهده الخاص فضلا عن ذلك فإن النجاح يحتاج صبرًا وشجاعة روح .
- ماذا تعنى شجاعة روح ؟
- شجاعة حقيقية ! الروح الجريئة . الروح التى تجرؤ وتتحدى . أرنى الرسالة واعزفى الموسيقى . ألا ترين أننى مصرة . أليست هذه خصلة من خصال الفنانين ؟

وأجابت الآنسة ريز من خلال ضحكاتها النحيلة :

- هذا الكلام ينفع عند العجوز التى تفتن بك .

كانت الرسالة فى درج المنضدة الصغيرة التى وضعت عليها إدنا فنجان قهوتها . فتحت الآنسة الدرج وأخرجت الرسالة التى كانت أعلى الأشياء جميعًا . وضعتها بين يدى إدنا ونهضت دون تعليق لتجلس إلى البيانو . ضربت الآنسة قطعة البرومبتيو لتشوبان على البيانو الذى كانت تجلس لديه على مقعد منخفض جعل معالم جسدها تستقر على انحناءات مشوهة وزوايا مضطربة . وشيئًا فشيئًا بدأت موسيقا تشوبان تعيد إدنا إلى سابق وعيها بعد فترة من الذهول قضتها مع الرسالة . لم تعرف إدنا متى بدأت الموسيقى ومتى انتهت . كانت مشغولة بقراءة رسالة روبرت على أضواء خافتة من مصباح قديم . لقد انتقلت الآنسة من قطعة تشوبان ثم عادت إليها بكل ما فيها من حدة وحنين .

ازدادت الظلمة عمقًا فى الحجرة الصغيرة . وازدادت الموسيقى غرابة وروعة، وعنفًا وشدة، وحزنًا وحدة، ثم عادت الموسيقى رقيقة متضرعة . وملأت الألحان الحجرة وفاضت على الجدران واخترقت أستار الليل وصعدت إلى أسطح المنازل وحطت على صفحة النهر الهلالي، وضاعت فى صمت الليل والأثير الأعلى . كانت إدنا تنتحب، بكت كما بكت ذات ليلة فى جراند أيل عندما أيقظتها أصوات غريبة سمعتها تأتى من داخلها . نهضت مضطربة تنوى الرحيل . وقالت للآنسة وهى لم تتجاوز عتبة الباب :

- تعالى فى أى وقت تشائين . خذى بالك من الدرج والمنبسطات غير المضاءة، قد تتعثرى .

عادت الآنسة وأضاءت شمعة ، كانت رسالة روبرت على الأرض انحنت والتقطتها كانت متغضنة ندية بسبب قطرات الدمع التى سكبتها عينا إدنا . أصلحت الآنسة من شأنها وأعادتها إلى مظروفها ووضعتها فى الدرج .

- ٢٢ -

عند عودته إلى المدينة ذات صباح عرج السيد پونتلييه على بيت صديقه القديم وطبيب الأسرة الدكتور ماندليه . كان الدكتور طبيبًا متقاعدًا يعيش كما يقولون على مجده الغابر ، يستقى شهرته من حكمته أكثر من براعته فى الطب . كان يترك ممارسة الطب لمساعديه وتلامذته، وكان الناس يسعون إليه للمشورة إلا قليل من العائلات التى ربطتهم به وشائج صداقة قديمة يذهب إليهم فى بيوتهم كلما احتاجوا إلى طبيب . وكانت عائلة پونتلييه من تلك العائلات .

كان الطبيب يجلس فى نافذة مكتبته منكبًا على القراءة . منزله يقع على مبعدة من الشارع وسط حديقة غناء أضفت على المكتبة جوًا من الهدوء والسلام . ولدى دخول السيد پونتلييه ألقى نظرة محتجة من فوق نظارته مستغربًا من هذا الزائر الذى يقتحم عليه خلوته فى تلك الساعة من الصباح . وعندما رأى السيد پونتلييه عاجله بالابتسام و الترحاب :

- آه، السيد پونتلييه ! آمل ألا تكون مريضًا . تعال واجلس . ما أخبارك ؟

كان رجلاً وقورًا مهيبًا ، ذا شعر كثيف أشيب وعينين زرقاوين صغيرتين أخذ السن كثيرًا من تألقهما دون أن ينال من حدتهما .

- لا ، لست مريضًا على الإطلاق يا دكتور . أنت تعلم أننى جئت من نسيج متين لا يلين، نسيج يتميز به أفراد عائلة پونتلييه ذوو الأصول الفرنسية . جئت أطلب مشورتك - ليس بالضبط مشورتك ولكن جئت أتحدث معك بشأن إدنا، لا أدرى ما الذى تعانى منه .

قال الطبيب :

- مدام پونتلييه ليست على ما يرام؟ لماذا ؟ لقد رأيتها، أعتقد منذ أسبوع ، تتمشى فى شارع القنال، كانت غاية فى الصحة أو هكذا بدت لى .

قال السيد پونتلييه وهو يميل إلى الأمام وينقل عصاه بين يديه بعصبية :

- نعم، نعم، تبدو فى صحة جيدة، ولكن تصرفاتها تغيرت ! أصبحت غريبة، أصبحت شخصًا أخر . لا أستطيع أن أفهمها ! وقلت لنفسى ربما تستطيع مساعدتى .

- وكيف تغيرت تصرفاتها ؟

- رد السيد پونتلييه وهو يلقى بظهره على مقعده :

- لا أدرى كيف أشرح لك، ولكنها لم تعد تهتم بشئون بيتها .

- حسنًا ، حسنًا، النساء لسن سواسية يا عزيزى پونتلييه . علينا أن ننظر إلى . . . .

- أعلم ذلك، قلت لك إنى لا أستطيع أن أشرح لك . موقفها كله، تجاهى وتجاه الناس، الناس جميعًا ، قد تغير . أنت تعرف أننى عصبى بعض الشيء ، ولكنى لا أحب العراك أو القسوة على النساء خاصة زوجتى ، ولكن هى التى اضطرتنى إلى ذلك، وقد ندمت على ذلك . إنها تغضبنى بصورة بغيضة .

واستمر يقول :

- سكنت رأسها فكرة تتصل بحقوق النساء الأبدية - وأنت تعرف - ونحن نتقابل على الإفطار فى الصباح .

رفع الشيخ الجليل حاجبيه الخشنين، ومط شفته السفلية الغليظة ونقر على ذراعى كرسيه بأطراف أصابعه وسأل :

- وماذا كنت تفعل معها يا سيد پونتلييه ؟

- أفعل !

تساءل الدكتور وهو يبتسم :

- هل التحقت مؤخرًا بجمعيات نسوية من المثقفات ،

أو بكائنات فوق أرضية، كائنات روحية يعنى ؟ زوجتى كانت تحكى لى عن مثل هذه الأشياء .

قال السيد بونتلييه معترضًا :

- هذه هى المشكلة ، إنها لم تلتحق بهذه الجمعيات، أضف إلى ذلك أنها أوقفت حفلة الثلاثاء التى كنا نقيمها فى البيت ، وقطعت الصلة بكل معارفها ، وراحت تتسكع فى الشارع بمفردها ، تضيع وقتها فى الترموايات وتدخل البيت عند حلول الظلام . قلت لك أصبحت غريبة ، وأنا لا أطيق ذلك، والقلق يعجزنى .

تساءل الطبيب بجدية بعد أن عرف أن مثل هذه الحالات لا يعرف لها مخرجًا :

- لعله شيئًا وراثيًا . ألا تعرف شيئًا من هذا القبيل فى أسرتها ؟

- لا، أبدأ ! إنها تنحدر من سلالة من المشيخيين فى كنتكى . أبوها رجل جليل يقولون إنه كان يصلى يوم الأحد فى الكنيسة ويطلب من الله غفران خطاياه التى ارتكبها طوال الأسبوع . وأعلم أيضًا أن لديه مزرعة من أجمل المزارع تمرح عليها خيول السباق التى يغرم بها . وأنت تعرف مارجريت أختها، فتاة مشيخية حتى النخاع . وأصغر أخواتها بنت مشاكسة جدًا ، وبالمناسبة سوف تتزوج فى بحر أسبوعين من الآن .

قال الطبيب متعجلا وكأنما وضع يده على الحل الجذرى :

- أرسل زوجتك إلى الحفل، فرصة لتبقى وسط أهلها فترة ، هذا سوف يجعلها تتحسن كثيرًا .

قال السيد پونتلييه وقد أغراه الطبيب بمزيج من الإفضاءات :

- ذلك ما طلبت منها أن تفعله . ولكنها لا تريد أن تذهب إلى حفل الزواج . قالت لى إن الزواج من أكثر المشاهد مدعاة للرثاء على وجه البسيطة ! أرأيت عبارة أجمل من هذه العبارة تقولها امرأة لزوجها ؟!

سكت الطبيب برهة ثم قال :

- پونتلييه، اترك لزوجتك الفرصة كى تخلو بنفسها فترة من الوقت ، لا تضايقها حتى لا تضايقك . المرأة يا صديقى العزيز كائن رقيق وغريب فى الوقت نفسه، وأنا أعرف أن مدام پونتلييه بالذات حساسة جدًا ، سيدة لها شخصية متميزة . وهذا النوع من النساء يحتاج إلى أخصائى موهوب فى الشئون النفسية حتى ينجح فى مهمته . أما حين يحاول العاديون مثلك ومثلى التدخل فى مشكلاتهن الخاصة جدًا تكون النتيجة مريعة . أغلب النساء متقلبات المزاج وهوائيات وغريبات الأطوار . ولا أظن إلا أن ذلك ما تعانى منه زوجتك لسبب أو لآخر لسنا فى حاجة ماسة إلى أن نفهمه أو نسبر غوره . ولكن الأمور سوف تمضى على

خير، لاسيما إذا تركتها وحدها . أرسلها إلىّ .

قال السيد پونتلييه معترضًا :

- أوه ، لا أستطيع ؛ ليس ثمة سبب واضح يدعو إلى ذلك .

قال الطبيب :

- إذن سوف أزورها أنا ، سأزوركم ذات مساء بوصفى صديقًا .

قال السيد پونتلييه متوسلاً :

- اعمل معروفًا ! حدد اليوم الذى ستأتى فيه .

ثم وهو ينهض مستأذنًا :

- نقول مساء الأربعاء ؟ هل يروقك الأربعاء ؟

- ممتاز، الأربعاء ممتاز . ربما تكون زوجتى فى حاجتى يوم الأربعاء ولكننى سوف أخبرك على كل حال وإلا انتظرنى الأربعاء مساء .

- وقبل أن ينصرف قال السيد پونتلييه :

- سأذهب فى رحلة عمل قريبًا إلى نيويورك . لدى مشروع تجارى كبير هناك ، وأريد أن أبقى فى الميدان حتى أمارس نفوذى . إذا أردت مشاركتنا شاركناك يا دكتور .

- لا ، أشكرك يا صاحبى ، أنا أترك هذه الأمور للشباب أمثالك، الذين لم تزل قوة الشباب تسرى فى دمائهم .

قال السيد پونتلييه ويده لم تزل على مقبض الباب :

- كنت أريد أن أقول إننى قد أغيب فترة . هل تنصحنى بأن أصطحب إدنا معى ؟

- بكل تأكيد، إذا رغبت هى فى ذلك ، إذا لم ترغب اتركها وشأنها لا تغصبها على شيء . حالتها هذه سوف تمضى بسلام، أؤكد لك . قد يستغرق الأمر شهرًا ، شهرين، ثلاثة أو حتى أكثر ولكنها سوف تزول ، فقط عليك بالصبر .

قال السيد پونتلييه وهو يهم بالخروج :

- حسنًا ، إلى اللقاء مساء الأربعاء .

عنَّ للطبيب أن يسأل السيد پونتلييه أثناء المحاورة إذا ما كان فى حياة زوجته رجلًا . ولكنه ضن بنفسه أن يثير سخط صاحبه الكريولى . لم يعاود القراءة فى كتابه على الفور، ولكنه جلس فترة يحدق فى أشجار الحديقة تحديق المتأمل .

- ٢٣ -

ذهب والد إدنا إلى المدينة ومكث فيها أيامًا لم تبدِ إدنا خلالها حماسًا أثناء وجوده ولم يأنس منها الحنان الذى كانت تغدقه عليه فى الماضي ، غير أنهما كانا يشتركان فى الميول والأهواء، وعندما تكون وحدها فى صحبته كانت حسنة الرفقة . كان مقدمه إيذانًا باضطراب محبب، بدا أنه شروع فى وجهة جديدة فى عواطفها .

جاء إلى المدينة ليشترى هدية العروس لابنته چانيت وحُلة

جديدة له حتى يظهر بها فى الحفل فى تمام أناقته . أناط مهمة اختيار الهدية للسيد بونتلييه الذى كان الجميع يذعنون لذوقه فى مثل هذه الأمور ، والذى كانت اقتراحاته فى شئون الأناقة واللبس - والتى تتخذ أحيانًا طابع المشكلة - لا تقدَّر بمال عند حماه . ولكن الشيخ الجليل كان خلال الأيام القليلة الماضية بين يدى إدنا لا يفارقها ، وكانت فى حضرته تجرب جملة من الأحاسيس البعيدة عن المألوفة . كان ضابطًا كبيرًا فى الجيش برتبة عقيد، ولم يزل يحتفظ مع اللقب بخيلاء العسكريين الذى لم يفارقه حتى بعد تركه الخدمة . كان شعره وشاربه أبيضين أشبه بالحرير فى النعومة، يتحد لونهما مع لون وجهه البرونزى فيضيف قسوة على قسوة عينيه . كان طويلا ضامر الجسم يرتدى معطفًا مبطنًا مما يضفى على منكبيه وصدره عرضًا واتساعًا زائفين . كانت إدنا وأبوها يلفتان إليهما الأنظار فى غدوهما ورواحهما . لدى وصوله أخذته إدنا إلى مرسمها لترسمه . ومن جانبه أخذ الأمر بكل الجدية اللازمة . فلم تكن موهبة إدنا فى الرسم أو مواهب بناته عمومًا مصدر دهشة بالنسبة له، فقد رسخ فى اعتقاده أنه أورثهن بذور التفوق، وما عليهن غير أن يكلأن تلك المواهب بالرعاية و الدراسة .

جلس أمام ريشتها صلبًا لا تطرف له عين، ولا يجفل له جفن، تذكر عندما كان يقف أمام المدفع فى أيام خلت . أبدى

امتعاضه حين تحرش به الصبيان اللذان راحا يحدقا فى جدهما بعيون ذاهلة، وهو ساكن أمام الفنانة فى مرسمها الذى يغمره الضياء . وعندما أحس باقترابهما منه أومأ إليهما بالخروج بإشارة من طرف قدمه ضنًا بقسمات وجهه الثابتة عن أن تضطرب وبذراعيه ومنكبيه عن أن يتحركا .

أرادت إدنا أن تروح عنه فدعت الآنسة ريز لتضرب له قطعة على البيانو . وعندما لم تلبِّ ريز الدعوة صحبته إلى السهرة الموسيقية التى تقيمها عائلة راتجنول . رحبت مدام راتجنول وزوجها به ترحابًا جمًا وأنزلاه منزلة ضيف الشرف من الحفل . ودعياه لتناول الغداء معهما الأحد التالى أو أى يوم يشاء . غمرته المدام بدلالها وإقبالها عليه، وراحت تعابثه بعينيها تارة وبالإيماءات تارة أخرى ويفيض من الثناء والإطراء تارة ثالثة ، حتى ألقى فى روع الشيخ أن سنه قد نقصت ثلاثين عامًا على الأقل . تعجبت إدنا دون أن تفهم شيئًا . فحياتها قد خلت من الغنج والدلال .

لفت انتباهها رجل أو رجلان فى الحفل، ولكنها لم تجد فى نفسها رغبة فى استعراض دلالها الأنثوى لاستمالتهما وإغوائهما أعجبت بشخصيتهما وداعبا هواها وخيالها، وانتهزت فرصة سكوت الموسيقى برهة فأقبلت عليهما وبادلتهما أطراف الحديث . كثيرًا ما كانت نظرات الغرباء فى الشارع تتردد فى ذاكرتها وأحيانًا تسبب لها القلق .

لم يكن السيد پونتلييه يهوى الذهاب إلى تلك الحفلات الموسيقية . كان يقول إنها بورجوازية، وكان يجد تسليته فى نادى المدينة . اعتذر لمدام راتجنول بأن الموسيقى التى تعزف فى حفلتها ثقيلة الوطأة على أذنيه، وأنه ربما لم يتلق التدريب الكافى حتى يفهمها ورضيت للإطراء الذى انطوى عليه اعتذاره . ولكنها لم ترض عن ذهابه إلى النادى بمفرده، وصارحت إدنا بذلك .

– من المؤسف أن يستقر السيد پونتلييه فى بيته وقتًا أطول فى المساء . واسمحى لى يا صديقتى بأن أقول لك إنه لو يجلس معك وقتًا أطول لكنت أكثر انسجامًا مع نفسك .

وردت إدنا هى تحدجها بنظرة خالية من المعنى :

– أوه، لا يا عزيزتى ! وماذا أجنى من مكثه فى البيت ؟ ليس لدى أى منا ما يقوله للآخر .

لم يكن لديها ما تقوله لأبيها فى هذا الشأن، بيد أنه لم يناصبها العداء . اكتشفت أنه موضع اهتمامها وبؤرة انتباهها، رغم أنها لم تتوقع أن يستمر ذلك طويلاً . ولأول مرة فى حياتها انتابها إحساس بأنها مرتبطة به ارتباطًا لا سبيل إلى الفكاك منه . ظلت تخدمه طوال الوقت وتلبى طلباته كلها . كان يسعدها أن تفعل ذلك . لم تكن تسمح لخادم أو أى من طفليها أن يعينه على شىء طلبه وتستطيع أن تفعله بنفسها . لاحظ الزوج ذلك وظن أن ذلك من قبيل الارتباط البنوى العميق الذى لا شك فيه .

كان العقيد يشرب كثيرًا من شراب عصارة النخيل كل يوم مما كان ينتهى به إلى الجمود ونقصان العاطفة . كان خبيرًا فى مزج ألوان الشراب . وكان يستطيع أن يبتكر بعضًا منها ويطلق عليها أسماء غريبة جميلة، وكانت صناعتها تحتاج إلى الكثير من العناصر الأمر الذى أناط به إدنا لكى تدبره .

عندما زارهما الدكتور ماندليه وتناول معهما طعام الغداء يوم الأربعاء لم يستطع أن يلحظ على إدنا أى أثر لمرض أو كآبة مما حدثه به زوجها بالأمس . كانت رشيقة الحركة متألقة مفعمة بالعاطفة . حضرت هى وأبوها سباق الخيل ذلك اليوم ولم يتجاوز حديثهما عند جلوسهما إلى المائدة أحداث الحلبة . ولم يستطع الطبيب أن يجاريهما فى الحديث عن شئون سباق الخيل . لم يجتمع لديه غير ذكريات قليلة عن السباقات استقرت فى ذاكرته من « الماضى الجميل » أيام ازدهار سباقات لكومت الشهيرة . راح يجتر تلك الذكريات حتى لا تجبر على الانسحاب أو يتهم بالتخلف عن روح العصر، ولكنه أخفق فى خداع العقيد، ولم يكن قريبًا من التأثير عليه بتلك المعلومات الملفقة عن أيام خالية كانت إدنا قد دعمت أباها بالمال فى رهانه الأخير، وعاد هذا الدعم عليهما بالخير الوفير، بالإضافة إلى أنهما تعرفا على الكثير من الشخصيات الآسرة فى رأى العقيد . لحق بهما السيد چيمس هايكامب و مدام مورتيمور ميريمان اللذان كانا فى رفقة ألسيه

أروبين . وجعل الجميع من ساعات اللهو رصيدًا لا ينفد من الذكريات .

أما السيد بونتلييه فلم يكن يجد ميلاً لحضور هذه السباقات، بل لم يكن يشجع على حضورها بوصفها تسلية لا تفيد ، لا سيما عندما يتذكر ما آلت إليه مزرعة العشب فى كنتكى . حاول أن يعبر عن عدم رضاه بصفة عامة، ولم ينجح إلا فى إثارة غيظ ومقاومة حماه الذى اشتبك معه فى نقاش خفيف كانت إدنا أثناءه تناصر رأى أبيها فى حين ظل الطبيب على الحياد .

راح الطبيب يراقب مضيفته باهتمام بالغ من تحت حاجبيه اللذين يغطيهما شعر كثيف ، ولاحظ تغيرًا حولها من المدام الخاملة التى يعرفها إلى كائن مفعم بالحماس للحياة . كان حديثها دافئًا مفعمًا بالنشاط، ولم يكن فى نظراتها أو إيماءاتها كآبة أو حزنًا . تخيلها مهرًا جميلاً ينضح بالعافية يتمشى تحت شمس مشرقة .

كان الغداء رائعًا ، وكان الشراب باردًا زلالاً اندثر كل ما من شأنه أن يعكر الصفو تحت أبخرة الكئوس المتصاعدة . نشط السيد بونتلييه وأصبح كثير التذكر . حكى بعض ذكرياته المسلية فى الريف ، وأيام شبابه فى أبرفيل عندما كان يصطاد الأبوسم مع أصحابه ، ويطحن أشجار الجوز ، ويطلق النار على طيور السنونو، ويجول فى الغابات والحقول فى فراغ عابث .

وشرع الكولونيل مدفوعًا بجو المرح الشائع ومناسبة الحال

يروى حكاية من حكاياته الحزينة التى يختزنها فى جراب ذكرياته عن أيام مريرة ماضية كان هو فيها البطل والحدث . ولم يكن الطبيب أكثر منه توفيقًا فى اختياره عندما قص عليهم قصة قديمة معروفة وتحدث كل يوم عن السيدة التى ابتليت فى حبها لزوجها وبيتها فراحت تبحث عن مصادر جديدة تشبع رغباتها الطارئة ، ولما لم تجد بغيتها عادت إلى عشها القديم بعد أيام من الشقاء الذى ما بعده شقاء . قال إنها قصة من القصص التى عرفها ذات يوم من مهنته الطويلة كطبيب . ويبدو أن القصة لم تقع من إدنا موقع القبول أو لفت الانتباه . وجاء دورها لتحكى قصتها عن السيدة التى هربت مع حبيبها فى قارب صغير ذات ليلة ولم تعد . تاها فى جزر الباراتاريا ، ولم يسمع عنهما أحد ، ولم يجد لهما أحد أثرا حتى يومنا هذا . كانت قصة من نسج خيالها . قالت إن مدام أنتوان هى التى حكتها لها . وكان ذلك من نسج خيالها أيضًا . قد يكون ذلك ما حلمت به . ولكن كلماتها بدت صادقة عند الذين كانوا يصغون إليها . أحسوا بنسمات ليل الجنوب الساخنة تلسع وجوههم، وسمعوا صوت القارب الصغير وهو يمخر المياه تحت أضواء القمر المتلألئة ، وخفقات أجنحة الطيور التى هربت من بين أعواد القصب فى البرك والأحواض وقد روعها صوت القارب القادم، ورأوا وجهى العاشقين شاحبين يستند كل منهما على الآخر ، وقد أذهلهما التيه والضياع ، ينجرفان إلى مجهول لا عودة منه . أبدعت

إدنا فى الوصف بعد أن لعبت الشمبانيا الباردة برأسها تلك الليلة فانصاعت لذكرياتها وأطلقت العنان لخيالها .

خارج البيت ، بعيدًا عن جو المدفأة المتقدة وضوء المصباح الخافت ، كان الليل يلسع الوجوه ببرودته ويثبط الهمم بظلمته . أرسل الطبيب عباءته القديمة على صدره وأغذَّ الخطى إلى البيت عبر الظلام الثقيل . قال فى نفسه إنه أكثر دراية ببنى البشر من أى شخص آخر ؛ على علم بتلك الحياة الباطنية التى قلما تتبدى لكل ذى عينين . ندم على قبول دعوة السيد پونتلييه ، فهو رجل طعن فى السن وفى حاجة إلى الدعة والطمأنينة . لم يكن يريد أسرار الآخرين تفرض عليه فرضًا . قال فى نفسه مدمًا :

آمل ألا يتعلق الأمر بأروبين ، أدعو الله ألا يكون الأمر متعلقًا بألسيه أروبين .

- ٢٤ -

كان لإدنا نقاش مع أبيها بدأ دافئًا رقيقًا ولم يلبث أن احتدم حول موضوع رفضها حضور حفل زواج أختها . لم يبد السيد پونتلييه رغبة فى التدخل بينهما ، أو رغبة فى بسط نفوذه أو سلطانه . كان يتبع فى ذلك نصيحة الدكتور ماندليه الذى نصحه بأن يتركها تفعل ما تريد . أنحى الكولونيل باللائمة على ابنته ؛ لافتقارها إلى : عاطفة البنوة ، وحب أختيها ، واحترام الأب الخليق بأية امرأة . كانت حججه ثقيلة غير مقنعة . وقال إنه يشك فى أن تقبل چانيت منها أية أعذار ، وقد نسى أن إدنا لم يكن لديها أى من الأسباب التى

تدعوها إلى ذلك . وقال إنه يشك فى أن چانيت سوف تكلمها مرة أخرى، وإنه متأكد من أن مارجريت لن تكلمها أبدًا .

كانت إدنا سعيدة حين تخلصت من أبيها فى النهاية، سافر بثياب الزفاف وهدايا العروس ومعطفه المبطن وإنجيله الذى لم يكن يمل القراءة فيه ومشروباته الحارة وأقسامه المملة . ذهب فى أثره السيد پونتلييه ، وقال له إنه سوف يعرج إلى الحفل وهو فى طريقه إلى نيويورك ليسعى بشتى الطرق، بالمال تارة وإظهار المودة تارة أخرى، إلى أن يعوض العروس ولو قليلاً من آثار فعلة إدنا التى لا يفهمها . ولكن الكولونيل قال له :

- أجل، إنك متساهل أكثر من اللازم، متساهل جدًا يا ليونس، أين سلطتك ؟ الإكراه هو ما تنصاع له إدنا وكل امرأة . إذلال المرأة والتقليل من شأنها هو الطريق الأوحد لأن تملك عليها أمرها . خذ نصيحتى .

ربما لم يكن الكولونيل يدرى أنه أوصل زوجته إلى قبرها بمثل هذا المسلك الذى ينصح به . وكان لدى السيد پونتلييه ريب غامض فيما قاله له الكولونيل ، ولم يجد حاجة فى الإفصاح عنه فى تلك الساعة المتأخرة من النهار .

لم تكن إدنا راضية كل الرضى عن سفر زوجها وتركه المنزل مثلما كانت عند رحيل أبيها . وكلما اقترب اليوم الذى يتركها فيه إلى رحلة طويلة أصبحت أكثر لينًا ورقة ، وتتذكر عندئذ أوقات

كانت تحس فيها برعايته لها وارتباطه المتقد بها . وكانت هى تهتم بصحته وسعادته أيما اهتمام ! كانت تنطلق فى الشقة تبحث عن ملابسه وتحضر له الملابس الداخلية الثقيلة ، مثلما كانت تفعل مدام راتجنول مع زوجها فى ظروف كتلك . كانت تنتحب عندما يذهب ، وتدعوه حبيبها وصديقها العزيز ، وكانت توقن أنها سوف تشعر بالوحدة ليس بعد وقت طويل ، وتذهب وتلحق به فى نيويورك .

ورغم كل شىء كانت تستسلم لفراقه وتشيع فى حياتها طمأنينة عندما تجد نفسها وحيدة آخر الأمر . حتى الطفلان ذهبا إلى جدتهما . جاءت مدام پونتلييه الكبيرة بنفسها وأخذتهما إلى أبرفيل مع خادمتهما الزنجية . ولم تجرؤ المدام العجوز على أن تقول لإدنا إن أخشى ما تخشاه أن يتعرض الطفلان للإهمال فى غياب ليونس؛ إنها لم تجرؤ حتى على التفكير فى ذلك . كانت مشتاقة إليهما وكفى . كانت تقول دائمًا عندما كانت تلح فى طلبهما إنها لا تريدهما أن يصبحا من « أطفال الرصيف » كانت تريدهما أن يألفا الريف وحياة الريف بترعه وغيطانه وأشجاره وحريته وانطلاقه، وهى أمور تعجب الصغار أيما إعجاب ! كانت تريدهما أن يذوقا طعم الحياة التى عاشها أبوهما وعرفها وعشقها عندما كان طفلاً صغيرًا هو الآخر .

عندما وجدت إدنا نفسها وحدها فى النهاية ندت عنها تنهيدة

صادقة تنم عن راحة أحست بها، وشعور غريب بيد أنه لذيذ ملك عليها كيانها كله . راحت تجول فى حجرات البيت من حجرة إلى أخرى وكأنها تحاول اكتشافها لأول مرة فى حياتها . عادت تجلس على المقاعد والأرائك كأنها لم تجلس عليها من قبل أو تضطجع . ودارت أيضًا دورة حول المنزل تتقصى وتتأكد من أن النوافذ مغلقة والمصاريع موصدة . بدت لها الأزهار أشبه بالأصدقاء الجدد ، أقبلت عليها بألفة بادية ومحبة ، وجلست بينها فى حميمية طارئة أحست بممرات الحديقة رطبة تحت قدميها فأمرت الخادمة بأن تحضر لها خفها المطاطى . وهناك لبثت زمنًا محنية تحفر الأرض حول النباتات أو تشذب الأوراق أو تلتقط أخرى ميتة . وخرج كلب الطفلين الصغير يسعى بين قدميها ويقف فى طريقها . أخذت توبخه تارة وتؤنبه تارة ثانية وتسخر منه وتداعبه تارة ثالثة . وجدت متعة فى استنشاق عبير الأزهار والأشجار، وفى رؤية الحديقة المتألقة تحت شمس الأصيل المرحة . قطفت إذنا جميع الأزهار المتألقة التى وجدتها، وعادت بها إلى البيت، وفى إثرها الكلب الصغير .

حتى المطبخ اتخذ طابعًا مشوقًا جديدًا على نحو لم تألفه إذنا من قبل . دلفت إليه لكى تصدر توجيهاتها للطاهية ، ولتقول لها إن الجزار سوف يحضر كمية أقل من اللحم ، وإنهم سوف يحتاجون إلى نصف كمية الخبز المعتادة، وكذلك من اللبن والبقالة . أخبرت الطاهية بأنها هى نفسها سوف تكون مشغولة

جدًا فى غياب السيد پونتلييه، ورجتها أن تأخذ بالها من كمية اللحوم المحفوظة .

فى تلك الليلة تناولت إدنا العشاء وحدها . غمرتها أضواء الشمعدانات وعدد قليل من الشموع التى استقرت وسط المائدة . وبعيدًا عن دائرة الضوء التى جلست إدنا فى وسطها بدت المائدة الضخمة وقورة غامضة . وقفت الطاهية بين يديها رهن إشارتها وهى مطمئنة على أنها أعدت وجبة شهية لسيدتها - قطعة من اللحم الطرى مشوية على هواها، وكأسًا من الخمرة القراح مع المارون - جلاسيه الذى تريده بالضبط . وزاد من رضاها وبهجتها أنها تتناول هذا الطعام وهى ترتدى ثوبها الفضفاض .

تذكرت بشىء من الحنين ليونس والطفلين، تساءلت عما عساهم يعملون فى تلك اللحظة . مسحت بباطن يدها الرقيقة على ظهر الكلب الصغير وتحدثت معه فى ود بالغ عن إتيان وراؤول . اضطرب سعادة ودهشة بسبب هذه الملاطفات الحانية، وعبر عن سعادته وامتنانه بحركات ذيله السريعة ونباحه النحيف المتصل واهتياجه القوى .

جلست إدنا پونتلييه فى المكتبة بعد أن فرغت من الغداء وما فتئت تقرأ من أشعار إمرسن حتى داعب الكرى عينيها . اكتشفت أنها أهملت فى القراءة، وحزمت أمرها على أن تدرك ما فاتها وتقرأ بجدية الدارس ، وقد أصبح الوقت ملكها دون

غيرها تفعل به ما تريد . وبعد أن فرغت من حمامها الذى أنعش كل ذرة من ذراتها، دلفت إدنا إلى حجرة نومها . راحت تضم اللحاف المحشو بزغب البط إلى جسدها برقة حتى بدأ يجتاحها شعور بالاستسلام والاسترخاء لم تشعر به من قبل .

- ٢٥ -

عندما يطبق الظلام وتتكاثف الغيوم تمسك إدنا عن العمل . كانت تحتاج إلى الشمس تدغدغ مشاعرها وتنعش حالتها النفسية المتداعية . لقد وصلت إلى مرحلة أحست عندها أنها لم تعد قادرة على أن تتلمس طريقها، أو تعمل، عندما تكون فى لياقتها النفسية، بالثقة القديمة . لم تكن تنشغل بطموح أو تأبه بإنجاز، ولكنها كانت تجد المتعة فى العمل ذاته .

فى الأيام التى يتساقط فيها المطر أو تجتاحها الكآبة ، كانت إدنا تخرج من المنزل لتبحث عن صاحباتها اللاتى عرفتهن فى جراند أيل، أو تقر فى بيتها تحاول أن تدفع عن نفسها تلك الكآبة التى تلم بها وتعكر عليها صفاء عقلها . لم تكن تعانى من يأس أو قنوط ، وإنما هو إحساس بأن الحياة على وشك الرحيل دون أن تفى بما وعدت به . ومع ذلك كانت تجىء أيام تصغى فيها إلى صوت الروح يبشرها بوعود جديدة سوف تنجز وآمال يحملها إليها شبابها الغض .

عرجت على مضمار السباق غير مرة وذات أصيل دعاها ألسيه

أروبين ومدام هايكامب إلى عربة أروبين . كانت مدام هايكامب سيدة شقراء فى الأربعين من عمرها خبيرة بشئون الحياة ، ولكنها لا تتكلف ولا تتصنع ، نحيفة الجسم طويلة القامة، معتدلة فى أناقتها، يطل الذكاء من عينيها الزرقاوين اللتين تحدقان فى كل ما تنظر إليه . كان لها ابنة تتخذها ذريعة لحضور مجتمعات الشباب، وكان ألسيه أروبين من هؤلاء الشباب . كان وجهًا مألوفًا فى حلبات سباق الخيل وحفلات الأوبرا والنوادى الراقية كانت عيناه تنطلقان بابتسامة مستمرة، لا ينظر إلى أحد من الناس أو يتحدث إلى أحد من الناس بصوته المرح إلا ويبادله ابتسام بابتسام ومرح بمرح . كان هادئ الطبع لا يحتدم أو يحتد إلا فيما ندر . كان حسن الصورة باش الوجه لا يثقل كاهله بعميق تفكير أو خفى شعور ، وأما أناقته فكانت تقليدية لا تكلف فيها ولا تصنع .

عبر عن إعجابه الجم بإدنا حين قابلها مع أبيها فى حلبات السباق . كان قد قابلها قبل ذلك فى مناسبات أخرى، ولكنها بدت فى ذلك الوقت عصية على المفاتحة . اليوم يوم مختلف . ولكن أثار حفيظته أن طلبت مدام هايكامب منها أن تذهب معهما إلى نادى الفروسية لمشاهدة سباق الخيل الأهم فى ذلك الموسم .

ربما كان هناك من الحاضرين من يفهم فى سباقات الخيول مثل إدنا ، ولكن لم يكن هناك بالتأكيد من يفهم أحسن منها فى

هذه الأمور . أخذت مقعدها بين مدام هايكامب والسيد أروبين وهى واثقة بأنها المرجع فى هذا الأمر . سخرت من تظاهر أروبين بالمعرفة وأسفت لجهل مدام هايكامب . لقد كان سباق الخيل رفيقها وخليها منذ نعومة أظفارها . هواء الإسطبلات وعبق العشب الأزرق فى مواقع تدريب الخيول تنتعش فى ذاكرتها وتتردد فى فتحتى أنفها . لم تدرك أنها كانت تتحدث مثل أبيها بينما تسير أمامها الخيول المدربة متمهلة فى أناقة وخيلاء فى استعراض جميل . تورطت فى رهانات كبيرة ولكن الحظ حالفها . سرت حمى اللعبة فى دمائها التى تدفقت إلى وجنتيها وعينيها ووصل إلى رأسها فأطربها . اشرأبت إليها الأعناق وراحت الآذان تنصت إلى ما تقول، على أمل الفوز بفكرة تعينهم على الفوز . وسرت عدوى الإثارة إلى أروبين فجذبته كالمغناطيس إلى إدنا . وظلت مدام هايكامب ساكنة لا تبدى حراكًا كالعادة تحدق دون أن تفهم شيئًا وترفع حاجبيها دون هدف .

بقيت إدنا حتى تناولت الغداء مع مدام هايكامب نزولاً على رغبة السيدة . وبقى أروبين أيضًا بعد أن أمر الخادم بأن يأخذ العربة إلى البيت .

كان الغداء باعثًا على الملل لولا جهود أروبين الحثيثة فى أن يضفى جوًا من المرح على الأشياء . أبدت مدام هايكامب

استياءها لغياب ابنتها عن السباق، وأرادت أن تعرفها خسارتها عندما فضلت قراءة دانتى على اللحاق بهم فى السباق . كانت الفتاة تمسك وردة حمراء فى يدها وترفعها إلى أنفها ولم تقل شيئًا ، ولكنها كانت تبدو عارفة غير آبهة . كان السيد هايكامب رجلاً بسيطًا ذا رأس عاطل من الشعر، لا يتحدث إلا إذا طلب منه الحديث . كان يلزم الصمت ولا يستجيب بسهولة لكل حديث . أما مدام هايكامب فقد كانت تغمر زوجها بآيات المجاملة والاحترام فى حضور الآخرين . توجهت إليه بجل حديثها أثناء تناول الطعام . وبعد العشاء جلسا فى المكتبة واشتركا فى تلاوة صلوات المساء على مرأى من ضوء يتدلى من السقف ، بينما جلست إدنا والسيد أروبين والآنسة هايكامب فى حجرة الجلوس وراحوا يتبادلون أطراف الحديث .

ضربت الآنسة هايكامب بعض القطع الموسيقية على البيانو للموسيقار النرويجى جريج . ولكن عزفها كان يفتقد إلى الشاعرية التى كان يتميز بها الموسيقار المعروف . وعندما سمعتها إدنا ظنت أن حاستها الموسيقية لم يعد لها وجود . وعندما حان وقت ذهابها إلى البيت عرض عليها السيد هايكامب باقتضاب أن يصحبها إلى بيتها وهو يلقى بنظرة سريعة على شبشبه ، تشى بعدم اكتراث واضح . كان أروبين هو الذى صحبها إلى البيت . كانت المسافة بعيدة استغرقت وقتًا طويلاً حتى وصلا إلى شارع إسبلاندى .

استأذن أروبين فى الدخول لثانية حتى يتمكن من إشعال سيجاره - كانت علبة الكبريت لديه فارغة . وعندما تمكن من ملئها لم يشعل سيجاره إلا بعد أن غادر إدنا، وبعد أن عبرت له عن رغبتها فى الذهاب إلى السباق معه مرة أخرى .

لم تكن إدنا تشكو من تعب أو إرهاق ، ولم تكن فى حاجة إلى نوم . أحست بالجوع يعضها من جديد . كان العشاء فى منزل السيد هايكامب جيدًا من ناحية النوع، بيد أنه لم يكن يفى بالغرض من ناحية الكم . فتحت الثلاجة وأخرجت شريحة من اللانشون وقطعة من الخبز الناشف . فتحت زجاجة بيرة وجدتها فى الثلاجة الصغيرة . استحوذ عليها إحساس بالقلق والإثارة . أخذت تغمغم على نحو خال من التعبير بلحن جميل وهى تدفع بجمرات الخشب إلى الموقد وتقضم قطع البسكويت .

كانت تريد لشىء ما أن يحدث - شىء وكفى، أى شىء ، دون أن تعرف ما هو . أحست بندم يخز جنبها لأنها لم تسمح لأروبين بأن يمكث نصف ساعة يتحدث معها عن الخيول والسباقات . راحت تحصى النقود التى ربحتها . ولكنها لم يكن لديها ما تفعله، ولذا عمدت إلى فراشها وأخذت تتقلب على السرير ساعات وقد استبد بها قلق قض مضجعها .

وعند منتصف الليل تذكرت أنها نسيت أن تكتب الرسالة التى تكتبها إلى زوجها بانتظام . وقررت أن تكتبها عندما ينبلج الصبح

وتخبره عن الوقت الذى قضته فى نادى الفروسية . لبثت مستلقية على الفراش وقد غادر الكرى عينيها تنظر فى سقف الحجرة وتخط بخيالها رسالة لزوجها لم تكن هى الرسالة التى كتبتها له فى اليوم التالى . عندما أيقظتها الخادمة فى الصباح كانت إدنا تحلم بالسيد هايكامب وهى تضرب على البيانو فى مدخل أحد المتاجر فى شارع القنال، بينما كانت زوجته تقول لألسيه أروبين بينما يهمان فى الصعود إلى عربة من عربات الترمواى فى شارع إسبلاندى :

- يا للأسف ، إن موهبة عظيمة أهدرها السيد هايكامب بإهماله ! ولكنى مضطرة إلى الذهاب .

وعندما زار ألسيه أروبين إدنا بعد ذلك ببضعة أيام لم تكن مدام هايكامب معه . قال لإدنا إنهما سيذهبان إليها لاصطحابها . ولكن مدام هايكامب لم تكن تعلم برغبة أروبين فى اصطحابها، ولذا كانت خارج البيت ، وكانت ابنتها تستعد لمغادرة البيت أيضًا فى طريقها إلى حضور اجتماع جمعية الفن الشعبى ، وقالت لهما إنها آسفة لأنها لم تستطع أن تكون فى رفقتهما . لم يبد على أروبين اهتمامًا بالأمر وسأل إدنا إذا ما كانت تعرف أحدًا آخر يمكن أن يذهب معهما .

رأت أن الأمر لا يستحق عناء البحث عن أية من سيدات المجتمع اللائى تركتهن فى جراند أيل . تذكرت مدام راتجنول

ولكنها تذكرت أيضًا أن مدام راتجنول لم تكن تغادر بيتها إلا لتتمشى ساعة حول البيت مع زوجها بعد حلول الظلام . أما الآنسة ريز فلن تقابل عرض إدنا إلا بالسخرية . ربما لن تمانع مدام لبرن ولكن لأمر ما إدنا لا تريدها . ومن ثم ذهبت هى وأروبين وحدهما .

كانت إدنا سعيدة فى صحبة أروبين ذلك المساء غاية السعادة . عادت إليها بهجتها وضحكاتها التى غابت عنها فترة من الزمن . بادلته أطراف الحديث كأنها تعرفه منذ زمن بعيد . كانت شخصيته سببًا فى تلك الألفة السريعة التى وجدتها لديه . كان خبيرًا فى أحوال النساء ، يعرف كيف يدبر عندما يقبلن ويقبل عندما يدبرن .

بقى حتى جاء وقت العشاء فتناولاه معًا أمام المدفأة . تبادلا الحديث والضحكات ، وقبل أن يهم بالذهاب أخبرها بأن الحياة كانت ستكون مختلفة لو أنه عرفها منذ سنوات . وفى صراحة ماكرة قال لها إنه كان فى مبتدأ حياته شابًا شقيًا لا يأبه بنظام ، ولم يلبث أن رفع لها عن كم قميصه فانحسر عن ندبة كانت فى معصمه قال لها إنها بسبب طعنة أصابته من سيف فى مبارزة فى باريس عندما كان فى التاسعة عشرة . وضعت يدها على أثر الجرح فى معصمه الأبيض فانتابتها قشعريرة جعلت أصابعها تنقبض فضمت على يده بقوة دون وعى منها . أحس بضغط أظفارها على راحته . نهضت مسرعة واتجهت إلى رف الموقد وهى تقول :

- منظر الجروح أو الندوب يفزعنى ويسبب لى الغثيان، لم يكن من المناسب أن أنظر إليه .

- أرجو أن تصفحى عنى، لم أكن أعلم أنها تثير اشمئزازك .

كان يقف قريبًا منها، وكانت عيناه تنضحان بالجرأة مما أعادها إلى طبيعتها الأولى . رأى فى عينيها ما شجعه على أن يتناول يدها بين يديه ويبقى عليها برهة من الزمان قبل أن يقول لها تصبحين على خير بتردد واضح . سألها :

- هل ستذهبين إلى السباق مرة أخرى ؟

قالت :

- لا ، يكفينى ما شاهدت منها . لا أريد أن أخسر كل النقود التى ربحتها، ولدى ما أعمله بعد أن يتحسن الجو بدلاً من . . .

- عمل، عظيم، ألم تعدينى بأن أرى بعض لوحاتك ؟ أى صباح يمكننى أن أزور فيه مرسمك ؟ صباح الغد ؟

- لا !

- بعد الغد ؟

- لا، لا .

آه، من فضلك لا ترفضى ! إننى أعرف فى هذه الأمور، وقد أقترح عليك شيئًا مفيدًا .

- لا، تصبح على خير . لماذا لم تذهب بعد أن قلت

تصبحين على خير ؟

ثم ارتفعت نبرة صوتها وهى تسحب يدها من بين يديه . ولكنها كانت تعرف أن كلماتها افتقرت إلى الوقار والصدق، وعرفت أنه شعر بذلك .

– أنا لا أحب هذه الطريقة .

– أنا آسف . آسف إذا كنت قد سببت لك ضيقًا هل سببت لك إهانة أو ضيقًا ؟ ماذا فعلت بالضبط ؟

ولم يلبث أن عاجلها بانحناءة ووضع قبلة رقيقة على يدها التى يمسك بها ولسان حاله يقول إنه لا يريد ليدها أن تغادر يده أبدًا قالت محتدمة :

– سيد أروبين، أنا مضطربة جدًا بسبب الإثارة التى شاهدتها فى السباق ؟ ومتعبة جدًا . وقد أكون بطريقتى أوحيت لك بشىء ليس صحيحًا . أرجو أن تذهب الآن من فضلك .

كانت تتحدث فى نبرة رتيبة فاترة . تناول قبعته من فوق المنضدة ، ونهض وقد حول عينيه بعيدًا عنها ، وراح يراقب النار الآفلة فى المدفأة . لاذ بالصمت العميق برهة أو أكثر . وفى النهاية قال :

– إن طريقتك لم توح لى بشىء خطأ يا مدام پونتلييه . مشاعرى هى التى ضللتنى . لم أستطع السيطرة على نفسى . كيف أكون قريبًا منك وأملك على نفسى أمرها ؟! لا تظنى بى

الظنون، لا تغضبى من فضلك . أرأيت ؟ هأنذا أمضى بعد أن سمعت أمرك . إذا أردت أن أذهب إلى الأبد فسأذهب إلى الأبد ، وإذا أردت أن أعود عدت . أوه - ترغبين فى أن أعود، أليس كذلك ؟

ورماها بنظرة متوسلة أخرى لم تبد حيالها أى رد فعل . كان ألسيه أروبين يتقن التودد والخداع حتى لينطلى خداعه على نفسه . ولم تكن إدنا تأبه لذلك . فعندما خرج وأصبحت بمفردها ألقت نظرة آلية على ظاهر يدها لتتحقق من أن آثار القبلة عليها لم تزل دافئة . أسندت رأسها على رف المستوقد وقاومت شعورًا استحوذ عليها بأنها اقترفت خيانة فى غمرة جيشان عاطفى لم تملك له ردًا ، أدركت جرم ما اقترفته دون أن تستيقظ من فتنته وطغيانه . همست فى نفسها همسة غامضة لم تستطع أن تفهم منها شيئًا : ماذا يقول عنى ؟

لم تكن تعنى زوجها ، كانت تفكر فى روبرت لبرن . بدا زوجها فى تلك اللحظة شخصًا تزوجته دون أن يكون الحب سببًا فى ذلك . أضاءت شمعة وصعدت إلى حجرتها . لم يكن ألسيه أروبين شيئًا مذكورًا بالنسبة لها . ولكن حضوره وطريقته فى التزلف والدفء الذى وجدته فى عينيه ومس شفتيه على يدها، كل ذلك كان له فعل المخدر على ذاتها المضطربة .

نامت نومًا متقطعًا تخللته أحلام تقدم ولا تلبث أن تدبر .

كتب ألسيه أروبين رسالة إلى إدنا تفيض صراحة واعتذارًا، ولكن الرسالة أصابتها بحيرة شديدة، ففى لحظة من الهدوء والتأمل قالت فى نفسها إنه من السخف أن تأخذ مسلكه مأخذ الجد . شعرت أن الأمر كله يرجع إلى درجة وعيها بذاتها لا أكثر ولا أقل . فإذا تجاهلت رسالته لربما يعنى ذلك أنها أعطت أهمية لشىء لا يستحق . وإذا أجابته عليها فربما أوحت إليه بأنها استسلمت لتودده فى لحظة من لحظات الضعف . الأمر كله لا يستحق، أن يقبل رجل يد امرأة لن يكون نهاية العالم . ولكن رسالته حرضتها آخر الأمر على أن تجيبه برسالة هادئة يختلط فيها الجد بالهزل ، وقالت له إنه يستطيع أن يعرج إلى مرسمها متى يشاء ومتى تسمح له ظروف عمله .

وأجاب على رسالتها بالحضور مباشرة إلى بيتها بكل ما لديه من سذاجة محببة . ولم يمض يوم بعد ذلك دون أن تراه أو تجد ما يذكرها به . كان يجد الذرائع دائمًا حتى أصبح حضوره مدفوعًا بخضوع محبب وافتتان مضمر . وطن نفسه على الإذعان لحالات غضبها ورضاها حتى اعتادت على وجوده وتوطدت بينهما درجة من الصداقة لم تك شيئًا فى البداية ولكنها لم تلبث أن اشتدت . فى بادئ الأمر كان يتحدث إليها بطريقة تثير دهشتها وتخضب وجهها بحمرة الخجل ، ثم لم تلبث أن وجدت فى طريقته متعة

وبهجة إذ كانت تخاطب جسدها الذى استيقظ من سباته هو الآخر .

كانت زياراتها للآنسة ريز أكثر الأشياء قدرة على تهدئة عواطفها وأحاسيسها المضطربة . كانت هذه الآنسة قادرة بما لها من شخصية خاصة على أن تخلص إدنا من عفريت الاضطراب الذى بدأ يسكنها فى الأيام الأخيرة . ذهبت إليها ذات مساء رغم أن الجو كان مضطربًا ينذر بسقوط الأمطار . صعدت إلى شقة العازفة وقد أصاب محبسها رذاذ من مطر خفيف . دخلت الشقة وهى ترتجف من البرد بينما كانت الآنسة تعين المستوقد على الاشتعال حتى يدفئ الحجرة ويساعدها على تسخين إناء الشيكولاتة بدت الحجرة لإدنا كئيبة وقذرة عندما دخلت . تمثال نصفى لبيتهوفن كاد التراب يحجب رأسه ينظر إلى إدنا فى تجهم وعبوس من فوق رف المستوقد . عندما رأتها الآنسة هتفت بها قائلة وهى تنهض من مكانها أمام المستوقد لاستقبالها :

- آه ! لقد أشرقت الشمس، الآن جاء الدفء والضوء ولا حاجة لاستخدام المستوقد .

أغلقت باب المستوقد فى عنف وأقبلت على إدنا تعينها على التخلص من معطفها المبتل وقالت لها :

- لقد أصابك البرد ؛ يبدو شكلك بائسًا . حالاً سوف تنضج الشيكولاتة، ولكن هل تأخذين كأسًا من البراندى ؟ لم ألمس الزجاجة التى أحضرتها لى منذ أن أصبت بالبرد .

كانت الآنسة تلف حول حلقها قطعة من القماش الناعم . كانت رقبتها متصلبة مما اضطرها إلى أن تمسك برأسها بإحدى يديها . قالت إدنا وهى لم تزل تخلع حذاءها وتزيل قفازها من فوق يديها المرتجفتين .

- سوف أتناول كأسًا من البراندى .

أفرغت إدنا كأسها فى حلقها كما يفعل الرجال ثم تهافتت على الأريكة المتداعية وقالت :

- آنسة ريز، سوف أنتقل من منزلى فى شارع إسبلاندى .

- آه !

لم تكن الآنسة مندهشة أو مهتمة بالأمر . لم تكن تندهش من شىء أو تأبه بشىء . كانت تحاول إعادة وردات البنفسج التى تثبتها على شعرها . جذبتها إدنا إليها وأخذت دبوسًا من رأسها وثبتت به وردات البنفسج البالية فى مكانها على رأس العازفة .

- ألست مندهشة ؟

- ربما، وأين ستذهبين ؟ إلى نيويورك ؟ أبرفيل ؟ إلى والدك فى الميسيسيبى ؟ أين ؟

ولكن إدنا ضحكت وهى تقول :

- على بعد عدة خطوات من منزلى . فى منزل من أربع حجرات قريب من هنا . إنه يبدو دافئًا ومريحًا وجذابًا للغاية

كلما مررت أمامه ؟ وهو إلى الآن ليس مؤجرًا لقد مللت العناية بهذا المنزل الكبير . إنه لا يروقنى ، لا يبدو بيتًا بمعنى الكلمة فى نظرى إنه يتعبنى كثيرًا ، ويضطرنى إلى الإبقاء على عدد كبير من الخدم . لقد تعبت من التعامل معهم .

- هذا ليس هو السبب الحقيقى يا حبيبتى . لا أجد مسوغًا يجعلك تحكين مبررات كاذبة . أنا لا أعرف الأسباب الحقيقية لتصرفك هذا، ولكنى أعلم أنك لم تخبرينى بالحقيقة .

ولم تعترض إدنا أو تحاول تسويغ ما تقول بيد أنها قالت :

- المنزل والمال الذى ينفق فيه ليس ملكى . أليس ذلك سببًا كافيًا ؟

قالت الآنسة وهى تهز منكبيها وترفع حاجبيها بخبث :

- المال مال زوجك و البيت بيت زوجك .

- آه ! لا فائدة من تضليلك . إذن دعينى أشرح لك : الأمر مجرد نزوة، ميل من ناحيتى لتغيير حياتى . لدى بعض النقود تأتينى من ضيعة كانت تملكها أمى يرسلها لى أبى على أقساط . وكسبت مبلغًا لا بأس به من الرهان فى السباقات ، وسوف أبدأ فى بيع لوحاتى . قال لى ليدبور إن رسوماتى تزداد تحسنًا مع الوقت؛ يقول إنها تزداد فى

الإتقان والتفرد . لا أستطيع أن أحكم بنفسى على نفسى ، ولكننى أشعر أننى أتحسن من ناحية السرعة والثقة . أستطيع أن أعيش فى البيت الصغير على القليل أو على لا شىء ، مع خادمة واحدة . قالت لى العجوز سلستين التى كانت تزورنى بين الوقت والآخر إنها مستعدة لأن تأتى لتعيش معى وتخدمنى . أعلم أننى سوف أحب التجربة . الحرية والاستقلال .

- وماذا يقول زوجك ؟

- لم أخبره إلى الآن . لم أفكر فى الموضوع إلا هذا الصباح . طبعًا سوف يظن أننى جننت . وربما تظنين أنت ذلك أيضًا .

وهزت الآنسة رأسها ببطء وقالت :

- لا أفهم حجتك إلى الآن .

ولم يكن ما تقوله إذنا مفهومًا تمامًا حتى لها شخصيًا ، ولكن الأمور كانت وليدة لحظة من الصمت خلت فيها إلى نفسها ، عرفت أن التوقف عن ولائها لزوجها معناه الاستغناء عن كرمه وحدبه عليها . لم تكن تعرف ماذا سيكون رد فعله عندما يعود . فليفهم ما يريد أن يفهم، وليعتنق التفسير الذى يريد، ولكن مهما حدث فقد قررت ألا تنتمى إلى أحد آخر غير ذاتها . قالت فى صوت مرتفع :

- سوف أدعو الناس إلى عشاء ضخم قبل أن أغادر المنزل الكبير ! لابد من أن تأتى يا آنسة ريز .

سوف أعطيك كل ما تحبين من أنواع الطعام والشراب . سوف نغنى ونضحك ونمرح .

ثم ندت منها تنهيدة بدت أنها قادمة من أعماق الصدر .

لو كانت الآنسة قد تلقت رسالة من روبرت خلال الفترة بين زيارة إدنا الأولى لها والزيارة الثانية، لكانت سلمتها الرسالة دون أن تنتظر منها استجداء . ولجلست أمام البيانو تضرب لها ما تريد من القطع الموسيقية بينما تنهمك المدام الشابة فى القراءة .

كان الموقد الصغير يهدر وقد استعرت تحته النار، وكانت الشكولاتة فى القدر تئز وتفرقع . تقدمت إدنا وفتحت باب الموقد ، وإذا بالآنسة تنهض وتأخذ الرسالة من تحت تمثال بيتهوفن النصفى وتعطيها إدنا التى أصيبت بالدهشة وامتلأت عيناها بالسعادة . وهتفت متعجبة :

- خطاب آخر ! بهذه السرعة ! أخبرينى يا آنسة : ريز هل يعلم أننى أقرأ خطاباته ؟

- أبدًا وحياتك ! وإلا لغضب بشدة وتوقف عن الكتابة إلىّ ثانية هل يكتب لك ؟ لا ، ولا سطرًا واحدًا . هل يبعث لك برسالة ما ؟ لا ، ولا كلمة واحدة ، هذا لأنه يحبك يا مسكينة ويحاول أن ينساك ، طالما كان الأمل مفقودًا فى أن تسمعيه

أو تنتمى له .

- ولماذا تعطيننى خطاباته إذن ؟!

- ألم ترجينى لذلك ؟ وهل أرفض لك طلبًا ؟ أوه ! لا يمكنك خداعى .

وأقبلت الآنسة على البيانو الذى تعشقه وبدأت تعزف . لم تبدأ إدنا فى قراءة الرسالة على الفور ، ظلت فترة تمسك بها فى يدها، بينما كانت الموسيقى تتسلل إلى مشاعرها وتحكم السيطرة على كيانها كله . ومثلما ترسل الشمس أشعتها إلى الأرض فينصرف الظلام ، بدأت الألحان تدفئ الأركان المظلمة فى روح إدنا وتغمرها بالضوء وكأنها تعدها للفرح ، للسعادة الطاغية .

هتفت بالآنسة متعجبة بينما تركت الخطاب يسقط على الأرض :

- أوه ! لماذا لم تخبرينى ؟! ثم وهى تمسك بيدى الآنسة وترفعهما من فوق مفاتيح البيانو :

- ويحك ! إنك قاسية ! ماكرة ! لماذا لم تخبرينى بأنه سيأتى قريبًا ؟

ليست هذه أخبار جديدة على أية حال .

إنى أعجب لعدم مجيئه حتى الآن .

سألت إدنا فى لهفة :

- ولكن متى ؟ متى ؟ كيف لا يقول متى يأتى ؟!
- قال إنه سيعود فى القريب العاجل . أنت تعرفين ذلك كما أعرف ؛ كل شىء فى الخطاب .
- ولكن لماذا ؟ لماذا يأتى ؟ أوه ، لو كان يعرف . . .

ثم التقطت الخطاب من على الأرض وقلبت صفحاته ظهرًا لبطن، تبحث عن السبب الذى لم يقله .

عندئذ قالت الآنسة ريز بعد أن استدارت بمقعدها ووضعت يديها النحيفتين بين ركبتيها وهى تمعن النظر فى إدنا التى كانت جالسة على الأرض وتمسك الخطاب بين يديها :

- لو كنت شابة وكان لى أن أحب رجلاً ، لأحببت الرجل ذا الأهداف الكبار والقدرة على تحقيقها ، رجلاً ترتفع قامته بين الرجال وهم يتطلعون إليه ويريدون أن يكونوا مثله . لو كنت شابة وكان لى أن أحب رجلاً لما أعرت اهتمامًا للرجل العادى، ولما جعلته جديرًا بحبى وإخلاصى .
- الآن أنت التى تقولين الأكاذيب وتريدين أن تخدعينى يا آنسة ؟ أو ربما لم تقعى فى الحب قبل الآن ولم تعرفى عنه شيئًا .

واستمرت إدنا تقول وهى تمسك بركبتى الآنسة وتمعن النظر فى وجهها التى أدارته عنها قليلاً .

- هل تريدين أن تقولى لى إنك تعرفين لماذا تحب المرأة ؟

هل هى التى تختار ؟ هل تقول لنفسها : حسنًا ! هاهو ذا رجل سياسة مشهور قد يصبح رئيس دولة فى يوم من الأيام وعلىّ أن أخطط للوقوع فى حبه . أو تقول : « سوف أقع فى حب هذا الموسيقار الكبير ؛ لأن شهرته على كل لسان ؟ » أو تقول : « رجل الأعمال الفلانى الذى يتحكم فى أسواق المال فى العالم هو الذى أريد أن أحبه ؟ » .

- أنت تسيئين فهمى عن قصد ياعزيزتى الملكة . هل تحبين روبرت .

قالت إدنا :

- نعم .

وجدت نفسها تعلن ذلك صراحة للمرة الأولى ، تألق وجهها بفرحة غامرة ظهرت فى الدم الأحمر الذى صعد إلى وجنتيها . سألتها صاحبتها :

- ولماذا تحبينه مع أنك لا يجب أن تفعلى ذلك ؟

وانتقلت إدنا لتجلس أمام الآنسة ريز التى تناولت وجه إدنا المخضب بين يديها . ثم قالت :

- لم ؟ قلت لى : لأن شعره بنى وينمو من عند صدغيه ؟ لأنه يفتح عينيه ويغلقهما ؟ ولأن أنفه كبير قليلاً ؟ لأن لديه شفتين وذقنًا مربعًا ؟ ولديه أصابع لا يستطيع أن يعدلها من كثرة لعب البيسبول بكل طاقته عندما كان شابًا ؟ لأن . . .

قالت الآنسة وهى تغرق فى الضحك :

- باختصار لأنك تحبينه وكفى . وماذا تفعلين عندما يأتى ؟

- أفعل ؟ لا شىء غير الشعور بالفرح والسعادة لإحساسى أننى أعيش .

لقد غمرها هذا الإحساس منذ اللحظة، الإحساس، بأنها تعيش لمجرد أخبار عودته القريبة . انقشعت غيوم سمائها الكئيبة التى كانت سببًا فى تعاستها وكآبتها منذ ساعات قلائل، تألقت روحها بفرحة طاغية وهى تمضى فى شوارع المدينة كمن يحتفل بنصر جديد . توقفت لدى حلوانى اشترت منه علبة كبيرة من الحلويات لطفليها فى أبرفيل . أدخلت بطاقة فى العلبة كتبت عليها رسالة رقيقة تفيض بالقبلات الحارة .

وقبل العشاء كتبت إدنا خطابًا ساحرًا وأرسلته إلى زوجها ، تخبره بنيتها فى الانتقال إلى المنزل الصغير المجاور وذلك لفترة صغيرة فقط ، وأنها ستقيم حفل عشاء قبل الشروع فى الانتقال ، وهى تأسف لأنه لن يكون موجودًا ليشاركها هذه الرغبة ، ويساعدها فى اختيار قائمة الطعام ويعينها على الترحيب بالضيوف . كان خطابها يتألق بالمرح ويفعم بالبهجة .

- ٢٧ -

قال لها أروبين ذلك المساء :

- ماذا بك ؟ لم أرك بهذه السعادة من قبل !

كانت إدنا متعبة ومستلقية على أريكة أمام المدفأة . أجابته :

- ألم تسمع أن النشرة الجوية أخبرتنا بأننا سنشاهد الشمس قريبًا جدًا ؟
- وأذعن للسبب وهو يقول :
- حسنًا ، هذا سبب معقول بما فيه الكفاية، لن تعطينى سببًا آخر إذا جلست طوال الليل أتوسل إليك .

جلس قريبًا منها على مقعد منخفض، وفى غمرة انشغالها بالحديث تسللت يده إلى شعرها المنساب على جبينها . أبدت ارتياحًا للمسات أصابعه وأغلقت عينيها برقة صافية قالت له :

- سيأتى اليوم الذى ألملم فيه شتات نفسى فترة من الوقت وأفكر فى أمر نفسى ، أية امرأة أكون ، لأننى ، أكلمك بصراحة ، لا أعرف من أنا . بموجب جميع دساتير العالم التى أعرفها، أعد نفسى نموذجًا شريراً، امرأة شيطانية بين النساء . ولكننى أحيانًا لا أستطيع أن أقنع نفسى بذلك . يجب أن أوفر الوقت لكى أفكر فى الأمر .

قال لها وقد تسللت أصابعه إلى وجنتيها الدافئتين البضتين وذقنها المكتنزة :

- لا تفعلى . وما الفائدة؟ ولماذ تتعبين نفسك بالتفكير فى هذا الأمر ما دمت أستطيع أن أقول لك أية امرأة أنت ؟
- لا تتعب نفسك، سوف تقول لى إنك امرأة محبوبة فاتنة

بكل معنى الكلمة .

- لا ، لن أقول لك شيئًا من هذا القبيل، رغم أننى لن أكون كذابًا إذا قلته .

سألته وقد أرادت أن تحول دفة الحديث :

- هل تعرف الآنسة ريز ؟

- عازفة البيانو رأيتها ذات مرة ، وسمعت عن عزفها .

- أحيانًا تقول أشياء على سبيل المزاح ولا تنتبه لها فى وقتها ثم تجد نفسك تفكر فيما قالت بعد ذلك .

- مثلاً ؟

- مثلاً قبيل مغادرتى بيتها اليوم وضعت يديها على عظمتى كتفى وراحت تتحسسهما لترى إذا ما كانت أجنحتى قوية أم لا ، وقالت لى : الطائر الذى يريد أن يحلق فوق سهل التقاليد والتحيز يجب أن تكون لديه أجنحة قوية . إنه لمشهد حزين أن نرى الضعفاء يسقطون وتنفد قواهم ويقعون على الأرض من جديد .

قال لها أروبين :

- أنا لا أفكر فى أى طيران غير عادى لم أفهم ما قالت لك جيدًا لقد سمعت أن لديها خللاً فى عقلها .

أجابت :

- بالنسبة لى تبدو فى منتهى العقل .

- قالوا لى إن الناس لا يحبونها . لماذا فرضت أمرها الآن علينا وأنا أريد أن أتحدث عنك أنت ؟

هتفت إدنا وهى تمسك رأسها بين يديها :

- أوه ! تحدث عنى كما تشاء، ولكن دعنى أفكر فى شىء آخر وأنت تتكلم .

- إنى أغار من أفكارك الليلة . إنها تجعلك أرق من المعتاد، بيد أننى أحس أنها أفكار عائمة، وكأنها ليست هنا معى .

ولم تنبس بكلمة ولكنها نظرت إليه وحانت منها ابتسامة . كانت عيناه قريبتين من عينيها . مال ناحية الأريكة وقد امتدت يده وراء ظهرها، بينما كانت اليد الأخرى مستقرة على شعرها . استمر ينظر كل منهما فى عين الآخر . وعندما أقبل عليها وقبلها تشبثت برأسه وأبقت شفتيه على شفتيها .

كانت القبلة الأولى فى حياتها التى استجابت لها جميع خلجات جسدها . كانت بمنزلة الشعلة المتقدة التى اضطرمت لها رغبتها .

- ٢٨ -

بكت إدنا قليلاً تلك الليلة بعد أن غادرها أروبين . انتابتها نوبة من العواطف المركبة اضطرب لها كيانها كله . استحوذ عليها شعور طاغ بأنها لا تقدر المسئولية ، زاد من وطأته تصرفها الغريب مع أروبين وتوبيخ زوجها الذى يطل عليها من كل ما تراه حولها،

من جميع الأشياء التى كانت تمنحها وجودها الظاهرى ، وتوبيخ روبرت الذى تشعر به من جراء ذلك الحب الذى بدأت تشعر به تجاهه طاغيًا مسيطرًا لا يتراجع . وفوق هذا وذاك، كان هناك الوعى . شعرت كأن غشاوة انقشعت من فوق عينيها فبدأت تتأمل الحياة وتفهم معناها، ذلك الوحش المصنوع من الجمال والقسوة . ولكن مشاعر الخجل وتأنيب الضمير لم تكن من بين المشاعر التى جربتها إدنا تلك الليلة . فيما عدا الألم الذى وخزها من إحساسها بأن القبلة التى أججت رغبتها فى الحياة من جديد لم تكن قبلة الحب، لم يكن الحب هو الذى أمسك كأس الحياة وقربه من شفتيها .

- ٢٩ -

ودون أن تنتظر أى رد من زوجها على رسالتها فيما يتعلق برغبته أو رأيه فى الموضوع مضت إدنا فى إنهاء ترتيبات الرحيل من البيت الكبير فى شارع إسبلاندى والانتقال إلى البيت الصغير الذى لم يكن يبتعد كثيرًا . كانت تتوقد لهفة وقلقًا فى كل عمل تعمله وكل حركة تقوم بها فى اتجاه الغاية . لم تتوان لحظة أو تتروى برهة، لم تسترح أو تتوقف بين التفكير والتنفيذ . ولم ينقص الصباح وقد انتهت من رفقة أروبين ساعة أو ساعتين حتى أسرعت إدنا فى الانتهاء من إعداد مقرها الجديد والاستعداد للإقامة فيه . فى بيتها انتاب إدنا شعور بأنها دلفت أبواب معبد محرم فسمعت آلاف الأصوات المكتومة تطالبها بالرحيل .

أخذت إلى بيتها الجديد كل ما كانت تملك، وكل ما ادخرته من عطاء زوجها وسخائه واشترت بمالها الخاص بعض الأشياء القليلة . وعندما زارها أروبين فى المساء وجدها فى صحبة خادمتها تعمل فى همة ونشاط وقد انحسر كماها عن ذراعيها البيضاوين . كان وجهها منطلقًا بالسعادة وروحها ممتلئة بالقوة . لم تبد أجمل من ذلك قبل الآن فى ثوبها الأزرق القديم وقد وضعت على رأسها منديلاً أحمر من الحرير ربطته كيفما اتفق ليحول بين شعرها وبين الأتربة . عندما دخل أروبين كانت تقف على سلم نقال طويل ، تحاول نزع صورة من جدار . لقد وجد الباب الأمامى مفتوحًا فدخل دون أن يعتد بالرسميات والتقاليد قال لها :

- انزلى، هل تريدين أن تقتلى نفسك ؟

ولكنها حيته بلامبالاة مصطنعة وتظاهرت بالاهتمام فى عملها .

لم يتوقع أن يجدها فاترة الهمة كثيرة التأنيب لمن حولها كثيرة الدموع . ولكنه كان مستعدًا لطارئ كهذا، متأهبًا لمواجهة أى موقف من المواقف الآنفة، مثلما كان قد وطن نفسه على مواجهة أى موقف . قال لها مصرًا وقد أمسك السلم وهو ينظر إليها فى موقعها المرتفع .

- من فضلك انزلى .

- لا ، إلين تخاف من صعود السلم . وچو يعمل فى بيت

الحمام – أو هكذا تسميه إلين ؛ لأنه صغير جدًا ويبدو مثل بيت الحمام فعلاً – وأنا أقوم بهذا العمل .

خلع أروبين معطفه وأظهر استعداده لأن يركب الخطر بدلاً منها . أحضرت له إلين واحدة من قبعاتها التى ترتديها لحماية شعرها من الأتربة، وأغرقت إلين فى الضحك عندما رأته يرتديها أمام المرآة بطريقة تبعث على الضحك . إدنا نفسها لم تستطع أن ترد ابتسامة استقرت على شفتيها . وجاء دوره للصعود على السلم، يفك الصور والستائر من فوق الجدران ويزيل الزخارف كما طلبت منه إدنا . وعندما فرغ من عمله خلع قبعته واتجه صوب الحمام ليغسل يديه .

كانت إدنا جالسة على مقعدها المنخفض تنظف البساط بأطراف مصنوعة من الريش فى كسل شديد عندما دخل أروبين مرة أخرى وسألها :

– وماذا عن العشاء ؟ المناسبة الكبيرة، الحدث الحاسم ؟

– سيكون بعد الغد . لماذا تسميه الحدث الحاسم ؟ نعم ، سيكون حفلاً بديعًا ؛ سأعرض أحسن ما عندى من كل شىء – الكريستال والفضة والذهب والخزف الفرنسى الجميل والموسيقى وسوف أجعل الجميع يسبحون فى الشمبانيا . ليونس هو الذى سيدفع الحساب . إنى فى حيرة من رد فعله عندما يرى الفواتير .

- ثم تقولين لى بعد ذلك لماذا أسميه الحدث الحاسم ؟

ارتدى أروبين معطفه من جديد ووقف أمامها وسألها إذا ما كان قد أحسن ارتداء رابطة عنقه وأخبرته بأنها مناسبة . لم تكن إدنا تتجاوز ياقة قميصه .

- ومتى تذهبين إلى بيت الحمام ؟ مع الشكر لإلين .
- بعد الغد ، بعد حفل العشاء . سوف أنام هناك .
- إلين من فضلك، هل تحضرى لى كوبًا من الماء ؟ الأتربة فى الستائر جعلت حلقى مثل رقاقة البطاطس المقلية .

قالت إدنا وهى تنهض :

- سأضطر إلى أن أقول لك مع السلامة بعد أن تحضر لك إلين الماء . على أن أنتهى من هذه الفوضى، ولدى مليون عمل ومليون شىء أفكر فيه .
- قال لها أروبين وهو يسعى لاحتجازها برهة بعد أن غادرت الخادمة الحجرة :
- ومتى أراك ؟
- فى حفل العشاء، أنت مدعو بالطبع .
- ليس قبل ذلك .
- الليلة أو صباح الغد أو غدًا ظهرًا أو ليلاً

أو حتى بعد الغد ، أو ظهر بعد الغد . ألا تعرفين ؟ سوف يمر الوقت بطيئًا لا أحتمله .

- وتبعها إلى الصالة حتى أول درجات السلم، وهو يتطلع إليها بينما كانت تصعد الدرج وهى تنظر إليه بنصف وجهها .

- ولا ثانية قبل ذلك .

ولكنها ضحكت ونظرت إليه بعينين شجعتاه فى الحال على التراجع عن الذهاب .

- ٣٠ -

رغم أن إدنا كانت تقول إن حفل العشاء سيكون حفلاً كبيرًا فإن الحفل كان فى الواقع محدودًا للغاية ومقصورًا على فئة بعينها من الناس . اختارت ضيوفها بعناية فائقة . قدرت أن تتسع مقاعد مجلسها المستديرة المصنوعة من خشب الماهوغانى لاثنى عشر ضيفًا . ولم تقدر أن مدام راتجنول كانت تعانى من تعب شديد ، ولم تكن تقدر أيضًا أن المدام لبرن سوف ترسل لها ألف اعتذار واعتذار عن عدم الحضور فى آخر لحظة . وكانت النتيجة أن عدد الضيوف لم يزد على العشرة مما جعل الحفل أكثر دفئًا وحميمية .

حضر السيد ميريمان وزوجته، سيدة أنيقة الملبس رشيقة الجسم مرحة مفعمة بالنشاط، فى الثلاثين من عمرها . كان زوجها مرحًا أيضًا خفيف الظل لا يتمتع بذكاء كثير ، يغرق فى الضحك عندما يسمع نكتة أو يشارك فى دعابة مما زاد من شعبيته وحب الناس فيه . حضرت مدام هايكامب، وكان ألسيه أروبين

بين الحاضرين بطبيعة الحال ، كانت الآنسة ريز قد لبت الدعوة وأرسلت لها إدنا حزمة من نباتات البنفسج لتزين بها شعرها . أما السيد راتجنول فقد جاء وقدم اعتذار زوجته . حضر ڤكتور لبرن الذى كان وجوده فى المدينة مصادفة وكان حضوره رغبة منه فى التغيير، لبى دعوة إدنا فى لهفة وفرح . حضرت الآنسة مايبلنت التى تعدت سنوات المراهقة وتنظر إلى العالم من خلال نظارة سميكة واهتمام بالغ . كان الناس يعدونها مفكرة لما كانوا يرونه من ذكائها ورجاحة عقلها . كانت تكتب فى الصحف تحت اسم مستعار . حضرت الحفل فى صحبة رجل من الوجهاء يدعى چوفرنيل يعمل فى صحيفة يومية، لا يميز شخصيته شىء غير أنه بدا مسالمًا هادئ الطبع شديد الملاحظة . لم يكتمل عدد العشرة إلا بإدنا نفسها وما جاءت الساعة الثامنة والنصف حتى أخذ كل مقعده على المائدة : مدام راتجنول على يمين إدنا وألسيه أروبين على يسارها .

جلست مدام هايكامب بين أروبين وڤكتور لبرن ، ثم جاءت مدام ميريمان والسيد چوڤرنيل والآنسة مايبلنت والسيد ميريمان ، وجلست الآنسة ريز إلى جوار السيد راتجنول . كانت المائدة مرتبة حسنة المظهر رائعة الزينة عليها مسحة من فخامة ترجع إلى الغطاء الأصفر الخفيف المصنوع يدويًا من أشغال الحرير، يتوسطها شمعدان نحاسى كبير تتلألأ أضواء شموعه فى خفة ورقة

تحت أغطية رقيقة من الحرير الأصفر وعلى مشهد من عدد كبير من الأزهار التى راحت توزع عبيرها الفواح على الحاضرين والحاضرات . كانت المائدة تزدان بالأوانى الفضية والقطع الذهبية التى جلبتها إدنا خصيصًا لهذه المناسبة، وكذلك قطع الكريستال التى كانت تتلألأ فتستجيب لها قطع الذهب التى تحلى آذان النساء وأعناقهن ومعاصمهن . تخلصت إدنا من مقاعد السفرة القديمة واستبدلت بها مقاعد وثيرة فاخرة كانت تنتشر فى أرجاء البيت الكبير وحجراته الفسيحة . ولصغر حجمها وضعت الآنسة ريز بعض الوسائد على مقعدها مثلما يفعل الأطفال عندما يضعون الوسائد على المقاعد حتى يصلوا إلى المائدة . ألقت الآنسة مايلنت نظرة إعجاب على قطع الماس التى كانت تزين بها إدنا شعرها ، كانت الماسات تلمع على رأس إدنا وعلى مقربة من جبينها .

- أشياء جديدة يا إدنا ؟

قالت إدنا :

- جديدة تمامًا ، فى الواقع هى هدية من زوجى . وصلتنى اليوم من نيويورك . وأريد أن أعترف لكم أن هذا هو يوم ميلادى ، وأننى الآن فى التاسعة والعشرين . وأريدكم الآن أن تشربوا نخبى ، وأطلب منكم فى الوقت نفسه أن تبدءوا بهذا الشراب المختلط ، هل يمكنكم أن تقولوا مختلط ؟ ثم

وهى تنظر إلى الآنسة مايلنت : « أبى الذى صنعه خصيصًا بمناسبة زواج أختى چانيت » .

وأمام كل ضيف من الضيوف وضع كأس صغير بدا فى لونه وتألقه أشبه بجوهرة من العقيق الأحمر . تكلم أروبين:

- إذن أنت عملت حساب كل شىء ، ولكنى أرى أن الأوفق أن نشرب نخب الكولونيل لأنه هو الذى ألف الشراب فى عيد ميلاد أجمل سيدة فى العالم- الابنة التى أبدعها .

وكانت دعابة أروبين سببًا فى انفجار السيد ميريمان بالضحك الذى سرت عدواه إلى باقى الحضور الذين لم يعودوا إلى هدوئهم وصمتهم بعد ذلك واستأذنت الآنسة مايلنت فى أن يظل كأسها دون أن تشرب منه قانعة بالنظر إليه . قالت إن لونه يعجبها جدًا ولا تضاهيه بأى لون آخر ، وإن الأضواء العقيقية التى يتلألأ بها من النوع النادر . وقالت أيضًا إن الكولونيل فنان عبقرى وأكدت ذلك .

ولكن السيد راتجنول كان يأخذ الأمور مأخذ الجد : الأطباق والمائدة وما حوله من زخارف وحتى الناس . تحول إلى أروبين وسأله إذا ما كان قريبًا لمحام شهير يدعى لاتنر . وقال له الشاب إن لاتنر صديقه الحميم، وهو الذى كتب اسم أروبين على واجهة مكتبه وزين به لافتاته التى تزين شارع بيرديدو .

- إن « البلد يمتلئ بالفضوليين الذين يسألون عن عمل المرء

وأردت أن أبدو ذا عمل محترم .

اتسعت عينا السيد راتجنول قليلا ثم مال ناحية الآنسة ريز وسألها عن حفلات الموسيقى السمفونية التى شاهدتها، هل كانت على مستوى الإعداد لها ؟ وردت الآنسة ريز بالفرنسية على أسئلة السيد راتجنول مما عدته إدنا أمرًا بعيدًا عن حسن الأدب ولكنه ظريف . لم يكن عند الآنسة غير الانطباعات السيئة بشأن حفلات الموسيقى السمفونية، وبعض التعليقات التى تحط من قدر الموسيقيين فى نيو أورليانز وتسخر منهم فرادى ومجتمعين . لقد كان جل اهتمامها منصبًا، أو هكذا بدا، على الأطباق الشهية التى وضعت أمامها .

قال السيد ميريمان إن ملاحظة السيد أروبين عن الفضوليين من الناس تذكره بذلك الرجل الذى قابله بالأمس فى فندق القديس تشارلز – ولم يستطع السيد ميريمان أن يمضى فى روايته إلى نهايتها بسبب زوجته التى كانت ترى أن حكاياته تعوزها الحيوية أغلب الأحيان . قاطعته لتسأله عن اسم ذلك المؤلف الذى ابتاعت كتابه الأسبوع الفائت لكى ترسله إلى صديقة لها فى چنيف . كانت تتحدث مع السيد چوفنيل- حول الكتب تريد أن تقف على رأيه حول الأدب وموضوعاته هذه الأيام . أما زوجها فقد أخذ على عاتقه سرد قصته للآنسة مايبلنت التى تظاهرت بالإصغاء الشديد والإعجاب أيضًا .

أما مدام هايكامب فقد تظاهرت بشيء من الاهتمام لحديث جارها الذى يجلس على يسارها، ڤكتور لبرن، وهو ماض فى هزله لا يلوى على شيء . لم تهمله لحظة واحدة منذ أن جلست إلى جواره على المائدة، وحتى عندما استدار ناحية مدام مربمان التى كانت أكثر منها أناقة وحيوية، كانت تنتظر الفرصة السانحة لكى تعيده من جديد إلى عالمها . كان صوت آلة المندولين يغازل آذان الجالسين بين الحين والآخر، صوت رقيق لا يقطع الحديث ولا يتطلب انتباهًا خاصًا، يختلط مع صوت تطاير المياه من نافورة قريبة، كان صوتًا رتيبًا ناعمًا يخترق الجدران والنوافذ ليحط على رؤوس الأشهاد محملا بعبق الياسمين القادم عبر النوافذ المفتوحة .

كانت إدنا جالسة يلمع فستانها الطيلسانى بلون الذهب، ينتشر عن يمينها وشمالها فى ثنيات أنيقة وطيات رقيقة، يضفى وميضه على الضوء نورًا يضاف إلى نور المصابيح . يزدان أعلاه بشريط زينة شفاف يطوق منكبيها كما يطوق السوار المعصم فى لون جلدها دون بريقه ودون مالا يحصى عددًا من بقع الألوان الأصيلة التى تنتشر على الصفحة البيضاء للجسد النابض بالعافية . فى هيئتها شيء ما يخلب الألباب، وفى مظهرها حين تميل برأسها إلى الخلف لتستند على مقعدها العالى وتنشر ذراعيها سحر الأميرات، وجمال الملكات، وتسلط من ملكت أمر القلوب وسحرت العقول .

ولكنها وهى تجلس بين ضيوفها كانت تحس بوخز الهم ينخس جنبها الأيسر، وبألم القنوط يقض المضجع ولا يبرحها إلا لكى يعود إليها من جديد، كزائر لا ترغب فى رؤيته يلح على زيارتها، زائر لا قبل لها بدفعه أو رده . زفير فاتر يخرج من أعماقها محملاً بعلامات الحزن فتستجيب له الضلوع بالوجيب . الحنين الشديد يأخذ بتلابيب روحها فتستحضر شبح الحبيب الغائب، عندئذ يستولى عليها إحساس اللقاء المستحيل .

كانت اللحظات تمر كالأرانب المذعورة، بينما الحضور سادرون فى لهوهم ومزاحهم لا يحول بينهم شىء . وكان السيد راتجنول أول من يطلق النكات فتستجيب له الأفواه بالضحك والقلوب بالمرح . وعندما جاءت الثامنة استأذن بالرحيل . كانت مدام راتجنول فى انتظاره فى البيت . كان قلبها يمتلئ بخوف غامض لا يخفف من وطأته غير حضور زوجها .

نهضت الآنسة ريز مع السيد راتجنول الذى أبدى استعداده لاصطحابها إلى سيارتها . لقد ملأت معدتها بالطعام؛ وشربت من الخمر حتى تجاوبت ضلوعها وبدأت رأسها تميل . أخذت تودع الحضور بالانحناءات المتتالية وهى تغادر المائدة . عاجلت إدنا بقبلة على منكبها وهى تهمس فى أذنيها : «تصبحين على خير يا ملكتى، مع السلامة» . وهى تنهض اختل توازنها، أو قل وهى تنزل من فوق وسائدها . مد لها السيد راتجنول يده فى تودد وصحبها إلى الخارج .

كانت مدام هايكامب تنسج إكليلاً من الزهور الصفراء والحمراء . وعندما فرغت من عملها وضعته برقة على خصلات شعر ڤكتور السوداء . كان يضطجع على كرسيه الوثير فى نشوة واضحة ممسكًا بكأس من الشمبانيا فى محاذاة أحد المصابيح .

وكأنما قد مسته عصا ساحر، حوله إكليل الزهور حين وضع على رأسه إلى صورة بديعة من صور الجمال الشرقى . تحول لون وجنتيه إلى لون العنب المسحوق . وتألقت عيناه اللتان فى لون الغسق ببريق خافت . هتف أروبين بالفرنسية :

- يا إلهى !

ولكن مدام هايكامب أرادت أن تضيف لمسة أخرى على الصورة . تناولت من خلف مقعدها وشاحًا من الحرير الأبيض كانت تضعه على منكبيها فى ساعات المساء الأولى . وضعته على عاتق الصبى فى طيات ساحرة حتى لم يظهر شىء من زيه المسائى الأسود . أما هو فقد تظاهر بعدم الاهتمام إلا بابتسامة لاحت من بين شفتيه دل عليها بريق خفيف من أسنانه وهو يواصل التحديق بعينين تزدادان ضيقًا فى الضوء من خلال كأس الشمبانيا الذى يمسك به . هتفت الآنسة مايلنت وهى ترمقه بالإعجاب وقد تاهت فى حلمها العاطفى .

- الآن تستطيع أن ترسم بالألوان عوضًا عن الكلمات !

وهمس چوفرنيل من بين أسنانه :

ثمة صورة للرغبة مرسومة بدم أحمر على خلفية من ذهب .
مالت الخمر برأس ڤكتور فبدا جنوحه إلى الصمت أكثر من جنوحه إلى المزاح . بدا أنه قد أسلم نفسه إلى حلم غامض، وبدا أنه يشاهد رؤوس بهيجة على حبات مسبحته الكهرمانية .

قالت مدام هايكامب متوسلة :

– ألا تريد أن تغنى لنا ؟

وقالت له مدام مريمان وهى تضحك :

– أنا أعتقد أنه مشلول .

ثم أقبلت على مقعد الصبى ، وتناولت من بين يديه الكأس وقربته من شفتيه . طفق يرتشف الخمرة قطرة قطرة ببطء شديد، وما كاد يفرغ منه حتى أخذته من بين يديه ووضعته على المائدة ومسحت شفتيه بمنديلها الصغير الشفاف . عندئذ استدار بمقعده ناحية مدام هايكامب وقال :

– أجل سأغنى لك .

أرسل يديه خلف أذنيه واتجه بعينيه إلى سقف الحجرة وبدأ يهمهم قليلا ، وكأنما هو يجرب صوته مثل عازف يجرب أوتار عوده . وبدأ صوته يرتفع بالغناء وعينيه فى اتجاه إدنا :

وضعت إدنا الكأس على المائدة بسرعة وعصبية فاصطدم

الكأس بالإبريق وكاد يحطمه . انسكبت الخمر على ساقى أروبين وذهبت بعض قطرات منها إلى ثوب السيد هايكامب الأسود الشفاف . أما ڤكتور فلم يدر بخلده أن يجامل إدنا أو قل إنه لم يكن يدرك أن مضيفته كانت جادة فيما قالت، فقد أغرب فى الضحك واستمر يقول :

- آه لو كنت تعرف ما تقول لى عيناك !

عندئذ هتفت إدنا وهى ترجع بمقعدها إلى الوراء وتهم بالنهوض وتضع يديها على فمه :

- كفى ! كفى ! لا تكمل . . . !

أخذ ڤكتور يقبل باطن يديها البضتين اللتين تلتصقان بشفتيه . وقال لها وهو يحدق فى وجهها بعينين ملاطفتين :

- فهمت ، فهمت يا مدام پونتلييه، لم أكن أعرف أنك تعنين هذا حقًا .

أحست بمس شفتيه على يديها مثل لدغات الحبيب . رفعت إكليل الزهور من فوق رأسه وقذفت به فى أرجاء الحجرة وهى تقول :

- تعال يا ڤكتور، لقد جلست بما فيه الكفاية، رد لمدام هايكامب وشاحها .

تناولت مدام هايكامب الوشاح من فوق جسد ڤكتور

بيديها ، وفهمت الآنسة مايبلنت والسيد چوفرنيل أن الوقت قد حان للذهاب، واستغرب السيد ميريمان وزوجته كيف أن الوقت قد مر بسرعة فائقة . وقبل أن تغادر دعته مدام هايكامب لزيارة ابنتها التى تعرف أنها سوف تفتن به وبالحديث معه بالفرنسية . وأبدى ڤكتور استعداده ونيته لزيارة الآنسة هايكامب فى أول فرصة سانحة .

كان عازفوا المندولين قد تسللوا قبل الحضور جميعًا . غرق الشارع الواسع الجميل فى صمت عميق . كانت الأصوات الصادرة من ضيوف إدنا المنصرفين أشبه بألحان شاذة فى إيقاع الليل الهادئ .

- ٣١ -

لم يبق غير أروبين بعد أن غادر الجميع .

- حسنًا .

- حسنًا .

ردت إدنا بالكلمة نفسها، ونهضت وهى تمد ذراعيها تريد أن تصدر إليه الإحساس بأنها تريد أن تأخذ راحتها وترخى عضلاتها بعد أن جلست كثيرًا على المقعد . سألها :

- وماذا بعد ؟

- لقد ذهب الخدم، غادروا مع العازفين . صرفتهم قبل الجميع . لابد من أن تكون جميع أبواب المنزل مغلقة .

وعلىَ أن أذهب إلى برج الحمام لأتأكد من طعامه .
جال بعينيه فى المكان وبدأ يطفئ الأنوار وسألها :
- وماذا عن الطابق الأعلى ؟
- أظن أن الأمور هناك على مايرام، فيما عدا نافذة أو اثنتين لم تغلقا . الأفضل أن نلقى نظرة . خذ شمعة وألق نظرة . أحضر معك الشال والقبعة، ستجدهما فى أسفل السرير فى الحجرة الوسطى .

صعد أروبين إلى الطابق الأعلى وهو يمسك بالشمعة بينما استمرت إدنا فى إغلاق الأبواب والنوافذ . لم تحب أن تغلق النوافذ على بقايا أدخنة المدفأة وأبخرة الخمر . وجد أروبين شالها وقبعتها وأحضرهما وساعدها على ارتدائهما .

وعندما تم لهما غلق الأبواب، وإطفاء جميع الأنوار، غادرا إلى الباب الأمامى، أغلقه أروبين وأخذ المفتاح، وحمله إلى إدنا، وساعدها أيضًا على نزول السلم . سألها فجأة :
- ألا تريدين بعضًا من أزهار الياسمين ؟
- لا . لا أريد أى شىء .

بدت مثبطة الهمة، لا ترغب فى الحديث . تناولت يده التى قدمها لها وهو يساعدها على رفع ذيل فستانها الطويل باليد

الأخرى نظرت أسفلها فوجدت ساقيه يسيران على مقربة من ساقيها تناهى إلى مسمعيهما صوت بوق قطار مار على مبعدة من البيت، وأصوات أجراس منتصف الليل التى تطلق صفيرها المعهود . لم يصادفا أحدًا فى مشوارهما القصير .

كان برج الحمام يقع وراء باب موصد وروضة بين أحواض الزرع عرضة للإهمال الواضح ، وشرفة أمامية صغيرة على متنها نافذة طويلة وبابًا أماميًا مفتوحًا . كان الباب يفتح مباشرة على الردهة، لم يكن ثمة مدخل جانبى . وفى الخلف فى الفناء ثمة حجرة للخدم كان ينام بها العجوز سلستين .

رفعت إدنا مصباحًا قليل الضوء من فوق المائدة . لقد نجحت فى أن تجعل الحجرة تبدو صالحة للسكن ومريحة . ثمة كتب على المائدة وأريكة تتوسط الحجرة . على الأرض حصيرة صغيرة، تغطيها سجادة أو اثنتين؟ وعلى الحائط علقت صور بهيجة ولكن الحجرة مليئة بالزهور كان ذلك مفاجأة لها لقد اشتراها أروبين وأمر الخادم بأن يوزعها فى أنحاء الحجرة فى غيابها . كانت حجرة نومها على مقربة من تلك الحجرة ، وكانت حجرة السفرة والمطبخ بعد ممر قصير . تهافتت إدنا على الأريكة وقد تمكن منها التعب الشديد . سألها :

- هل أنت متعبة ؟

- نعم، متعبة، وأشعر بالبرد الشديد، وبائسة . أشعر كأنه

قذف بى فى مكان سحيق . وأن شيئًا ما فى داخلى يقطع
جسدى .
وضعت رأسها على المنضدة متكئة على ذراعها العارية .
- تريدين الراحة، وتريدين الهدوء . سوف أذهب : سوف
أذهب لكى ترتاحى .
و أجابت :
- نعم .
توقف إلى جوارها ومسح على شعرها بيده الناعمة
مسحات رقيقة استجاب لها جسدها كله بالاسترخاء . كان
يمكن أن يسلمها إلى النوم لو أنه استمر فى إرسال تلك
المسحات الرقيقة على شعرها . كان يمسح على شعرها
من بداية مؤخرة رقبتها منتهيًا بخصلات شعرها الجميل .
قال لها :
- أتمنى أن تشعرى بالتحسن مع الغد . لقد أجهدت نفسك
خلال الأيام المنصرمة فى أشياء كثيرة، وكان العشاء آخر
الجهود الجبارة، لم أكن أرى له داعيًا .
- نعم، كان ذلك غباء منى .
- لا ، لقد كان العشاء هو سبب البهجة ، ولكنى أعنى أنه هو
الذى سبب لك التعب والإرهاق .
وصلت يده الطريق إلى منكبيها، وكان فى وسعه أن

يشعر برد جسدها للمساته الحانية . اقترب من مقعده أكثر وطبع قبلة على كتفها ارتعش لها جسدها كله . قالت فى صوت مرهق :

- كنت أظن أنك ذاهب .

- أنا ذاهب فعلاً، ولكن بعد أن أقول لك تصبحين على خير .

قالت هامسة :

- تصبح على خير .

ولم يجب تحيتها، ولكنه تمادى فى الملاطفة . لم يقل لها تصبحين على خير إلا بعد أن أصبحت ريشة فى الهواء تتقاذفها رياح حديثه المعسول .

- ٣٢ -

عندما علم السيد پونتلييه بنية زوجته فى هجر بيت الزوجية والانتقال إلى مكان آخر كتب لها فى الحال خطابًا يعرب لها فيه عن رفضه واستنكاره لمسلكها . كانت قد أبدت له الأسباب التى لم يستطع أن يقبلها ويقر بها . قال لها إنه يأمل ألا تكون قد تصرفت بدافع من نزوة أو اندفاع، وتوسل إليها أن تحسب حسابًا قبل كل شىء لما سوف يقوله الناس . لم يقصد أن زوجته كانت فى طريقها إلى عمل فضيحة، هذا لم يخطر له على بال نظرًا لما لزوجته من سمعة طيبة ولما له هو من سمعة طيبة . كان كل تفكيره فى وضعه المالى وسمعته فى السوق . فقد يشيع بين الناس

أنه وزوجته قد صادفا الفشل فى حياتهما الزوجية ، وأنهما كانا مجبرين طوال الفترة الماضية على العيش معًا . حتى الآن . وهذا من شأنه أن يلحق الضرر الكبير بتجارته ومستقبله .

ولكنه عندما تذكر إدنا وما عرفه من اندفاع فى طبعها فى الآونة الأخيرة، توقع أن تتصرف كما كانت تفعل بوحى من هذا الاندفاع الغريب . ولكنه فهم الموقف كما يفهمه رجل الأعمال الناجح، وتصدى له بما لديه من براعة رجل الأعمال الناجح وحكمته .

لقد أرسل مع رجل البريد نفسه الذى حمل خطابه إلى إدنا الذى يخبرها فيه بعدم رضاه عن ما فعلت، رسالة أخرى إلى مهندس معروف تحمل تعليماته الدقيقة والواضحة؛ يقول له فيها إنه يرغب فى إعادة بناء بيته، أو إجراء التغييرات التى طالما حلم بها ، ويقول له أيضًا إنه يريده أن يجرى تلك التغييرات فى غيابه .

استأجر المهندس خبراء فى نقل الأمتعة وكل ما فى البيت من أثاث وسجاد وصور وكل ما يمكن حمله إلى مكان أمين بعيدًا عن التعرض للكسر . وفى وقت قياسى كان منزل پونتلييه جاهزًا أمام الحرفيين ليعملوا فيه معاولهم وأدواتهم . اتسعت تلك الحجرات للأشياء التى لا يجرى عليها التغيير والهدم ، والأشياء التى ينبغى الاحتفاظ بها مثل اللوحات الجصية وخشب الباركيه .

أضف إلى ذلك أن السيد پونتلييه أعلن فى الجريدة اليومية أن السيد ومدام پونتلييه كانا ينويان السفر لقضاء الصيف فى مكان

بعيد، وأن منزلهما الأنيق فى شارع إسبلاندى سوف يخضع لتعديلات وتجديدات كثيرة ، ولن يكون جاهزا للسكن حتى عودتهما . لقد حافظ السيد پونتلييه على مظهر الأسرة !

أعجبت إدنا بخطته ولم ترد أن تحبطها بأى حال من الأحوال . وعندما استقرت الأمور على النحو الذى أراده السيد پونتلييه كانت راضية كل الرضى بما فعل . أصبح البيت الجديد مبعث سرورها وغبطتها . رأته قريبًا من نفسها وروحها بعد أن خلعت عليه من تألقها سحرًا وفتنة كما يفيض نور الجواهر على الأركان . انتابها إحساس بأنها نزلت درجة من درجات السلم الاجتماعى ، رافقه إحساس بأن روحها ارتقت درجة من درجات الوعى واليقظة . مع كل خطوة تخطوها نحو التحرر من الواجبات المفروضة والالتزامات المملة تكسب خطوة نحو القوة الروحية وبناء الشخصية . لقد بدأت ترى بعينيها هى ، وتفهم وتعى خفايا الحياة وأسرارها العميقة . لم تعد تقنع بالتعويل على رأى الآخرين بعد أن أصبحت لها من شخصيتها وروحها ما تعول عليه .

بعد أقل من أسبوع ذهبت إدنا لتقضى أيامًا مع طفليها فى أبرفيل . كانت المدينة ترفل فى جو الربيع وتستعد لدخول الصيف الوشيك . استولت عليها سعادة غامرة عندما رأت طفليها . ذرفت دموعها على وجنتيها من فرط السعادة عندما أحست بأياديهما الرقيقة، تتعلق برقبتها، وبخدودهما الوردية تصافح وجنتيها

المتألقتين بالعافية . حدقت فى وجهيهما بعينين نهمتين لا يشبعهما النظر . كانت جعبة الطفلين مليئة بالحكايات والقصص عن الخنازير والأبقار والبغال ! وعن ركوب الطاحونة والصيد فى البحيرة مع عمهما جاسبر، وعن التقاط ثمار الجوز مع أطفال ليدى الزنجية وسحب قطع الخشب إلى عربتهما، وأن جمع قطع الخشب الصغيرة لنار التدفئة الحقيقية التى توقدها العمة سوزى العجوز أفضل ألف مرة من سحب الكتل الخشبية إلى نار المائدة فى شارع إسبلاندى !

ذهبت معهما لترى بنفسها الخنازير والأبقار، لتتفرج على الزنوج وهم يضربون عيدان القصب ويطرحونها أرضًا، ويهرسون أشجار الجوز، ويصطادون الأسماك من البحيرة . عاشت معهما أسبوعًا بكامله، أعطتهم من نفسها الكثير، ملأت روحها بوجودهما الغض . استمعا إليها مندهشين عندما حكت لهما أن المنزل فى شارع إسبلاندى يزدحم بالناس والعمال الذين يعملون فيه بمناشيرهم ومطارقهم ويملؤونه بالجلبة والفوضى . كانا يريدان أن يعرفا أين يقع سريرهما الآن، وما حدث لحصانهما الهزاز، وأين ينام چو الآن، وأين ذهبت إلين، والطباخة ؟ وقبل كل شىء كانا يريدان رؤية المنزل الصغير الذى تسكن فيه أمهما الآن . هل يتسع للعبهما ؟ هل ثمة أطفال فى البيت المجاور ؟ أما راؤول، وبشىء من التشاؤم، فقد كان يشعر أن البيت المجاور يمتلئ فقط بالبنات . ولكن أين سينامون بعد هدم البيت ؟ وأين

سينام أبوهما ؟ أخبرتهما بأن العفاريت سوف ترجع كل شىء إلى أصله .

كانت السيدة العجوز سعيدة لزيارة إدنا . غمرتها بكل صنوف الحفاوة والتكريم . وكانت سعيدة بأن عرفت أن بيت شارع إسبلاندى يخضع للهدم والتجديد الأمر الذى وفر لها الذريعة لأن تبقى الطفلين لديها أطول مدة ممكنة .

حزنت إدنا حزنًا شديدًا عندما اضطرت لترك طفليها ، حملت معها أصداء صوتهما يتردد بين جنبيها، ولمسات وجنتيهما تحس بها ناعمة رقيقة على يديها وصدرها . فى طريق العودة لم يكن الطفلان يغادران خيالها مثل لحن جميل يتردد صداه فى الذاكرة . ولكن صدى اللحن لم يعد يتردد فى روحها . عندما طالعت عيناها بيوت المدينة ومبانيها الشاهقة أصبحت وحدها من جديد .

- ٣٣ -

كانت إدنا أحيانًا تذهب إلى الآنسة ريز ولا تجدها فى البيت؛ تكون قد ذهبت لشأن من شؤونها، أو لتعطى دروسًا فى البيانو، أو لتشترى حاجاتها المنزلية المتواضعة . وكانت الآنسة تضع المفتاح فى مكان سرى فى مدخل الشقة، تعرفه إدنا وتأخذه لتفتح به الباب وتدخل وتنتظرها حتى تعود .

طرقت باب شقة ريز ذات أصيل ولم يجبها أحد . فتحت كما كانت تفعل فى الماضى فلم تجد الآنسة كما توقعت . كانت تنشد الراحة لدى صديقتها بعد يوم كامل من العناء، هى الملاذ بعد أن

يكون الهم قد استولى عليها، وهى الملجأ حين تريد أن تتحدث عن روبرت وتعرف أخباره .

لقد أكبت منذ الصباح على إتمام صورة زيتية بدأت ترسمها منذ فترة كانت تنوى أن تكمل العمل دون أن يكون أمامها النموذج الذى ترسمه، ولكن أكثر من طرق على الباب قطع خلوتها وحال بينها وبين الرسم ، البعض جاء لشأن من الشئون ، والبعض الآخر جاء لرؤيتها .

زارتها مدام راتجنول متجنبة الشوارع المزدحمة بالناس كما قالت . اشتكت من أن إدنا أهملتها فى الآونة الأخيرة، إلى جانب أنها جاءت مدفوعة برغبة شديدة فى رؤية البيت والطريقة التى تدار بها الأمور الجديدة . كانت تريد أيضًا أن تسمع منها كل شىء عن حفل العشاء المنصرم؛ لقد غادر السيد راتجنول قبل الجميع . ماذا حدث بعد أن غادر ؟ أعجبها العنب والشمبانيا اللذين أرسلتهما إليها إدنا . إنها لا تأكل كثيرًا ولكن تلك الأشياء أنعشت شهيتها وأعادت الانسجام إلى معدتها . ترى أين موقع السيد پونتلييه من هذا المنزل الصغير ؟ وأين سينام الطفلان ؟ وبعد ذلك أعطت إدنا وعدًا بأنها سوف تزورها كلما أمكن لها ذلك ، قالت لها إدنا مؤكدة :

– فى أى وقت، فى أى وقت تشائين : من الليل أو النهار يا عزيزتى .

وقبل أن تغادر قالت مدام راتجنول :

- بعض الأحيان أراك أمامى مثل طفلة يا إدنا . تتصرفين دون أن تفكرى جيدًا فيما أنت مقدمة عليه . وهذا هو السبب فى أننى أريد أن أقول إنك لا يجب أن تغضبى إذا نصحتك أن تأخذى حذرك وأنت تعيشين هنا بمفردك . لماذا لا تجعلى أحد الناس يأتى ليمكث معك ؟ ولتكن الآنسة ريز مثلاً .

- لا ، إنها لا ترغب فى ذلك، وأنا لا أحب أن تكون إلى جوارى طوال الوقت .

- السبب فى أننى أقول لك ذلك هو - وأنت تعرفين - أن العالم مليء بالشر ، إن البعض يقول : إن السيد أروبين يزورك . طبعًا لم يكن ذلك لديهم لو أن السيد أروبين لا يتمتع بهذه السمعة السيئة . إن السيد راتجنول كان يقول لى : إن مجرد اهتمامه بامرأة يكفى لتدمير سمعتها نهائيًا .

قالت إدنا بسرعة وهى تحدج الصورة بنظرة سريعة :

- وهل يفاخر بمغامراته مع النساء ؟

- لا ، لا أعتقد ذلك، الرجل لطيف كما يقولون ولكن شخصيته معروفة جيدًا لدى الرجال أمثاله . قد لا أكون قادرة على العودة لزيارتك مرة أخرى يا إدنا ، لقد كان اليوم متعبًا بالنسبة لى .

صاحت بها إدنا :

- انتبهى للدرج !

قالت لها مدام راتجنول متوسلة :

- لا تهملينى تمامًا، لا تفكرى كثيرًا فيما قلته لك عن السيد أروبين أو أننى طلبت منك أن تأتى بأحد للجلوس معك حتى لا تكونى بمفردك .

قالت إدنا وهى تضحك :

- لا ، طبعًا ، يمكنك أن تقولى ما تريدين وفى أى وقت .

وبعد أن تعانقا غادرت مدام راتجنول . لم يكن أمامها مسافة طويلة لتمشيها . وقفت إدنا فى الشرفة تراقب مدام راتجنول وهى تتهادى فى الشارع .

وفى المساء زارتها مدام هايكامب ومدام ميريمان فى وقت واحد . وكانت إدنا تشعر أنهما كان ينبغى عليهما أن يتخليا عن الشكليات الفارغة . جاءا لدعوتها أيضًا لكى تلعب معهما (الكوتشينة) فى أحد الأمسيات فى منزل مدام ميريمان . طلبا منها أن تأتى مبكرًا، وقت تناول العشاء وإلا فسوف يضطر السيد ميريمان أوالسيد أروبين إلى اصطحابها إلى بيتها . قبلت إدنا بشىء من التردد، كانت أحيانًا تحس بالزهق من مدام هايكامب ومدام ميريمان .

وفى آخر المساء لجأت إلى الآنسة ريز وجلست وحدها هناك

تنتظرها . انتابتها راحة طارئة أحست بها تغزو جسدها كله وهى فى تلك الحجرة المتواضعة الرثة . جلست إذنا عند النافذة التى تشرف على أسطح البيوت تطالع منها النهر القريب . كان إطار النافذة الخشبى يمتلئ بأصص الزهر ، جلست هناك وراحت تلتقط بعضًا من أوراق الزهر الجافة . كان الجو دافئًا ، وكان النسيم القادم من النهر يصافح الوجوه فى سحر ورقة . خلعت قبعتها ووضعتها على البيانو وطفقت تقطف أوراق الورد من الأصيص وتحفر حول النباتات بدبوس كان معها . ظنت أن الآنسة قادمة عندما سمعت من يقترب من الباب . كانت فتاة زنجية شابة دخلت ومعها حزمة صغيرة من الملابس المغسولة وضعتها فى الحجرة المجاورة وذهبت إلى حال سبيلها .

جلست إذنا على مقعد البيانو وتناولت نوتة موسيقية كانت مفتوحة على مقربة من يدها . مرت نصف ساعة لم تسمع خلالها إلا أصوات حركة الغادين والرائحين فى الصالة الكبيرة . حين بدأ اهتمامها يزيد باللحن سمعت طرقًا خفيفًا على الباب تشاغلت فيما بينها وبين نفسها ترى ماذا يفعل هؤلاء الناس حين كانوا يجدون باب شقة الآنسة مغلقًا ؟ قالت وهى تحول وجهها ناحية الباب :

- ادخل .

وكان القادم هذه المرة روبرت لبرن . حاولت الوقوف ولكنها لم تكن لتفعل ذلك دون أن تفضحها الدهشة التى استولت عليها

لدى رؤيته، لذا آثرت العودة إلى مقعدها واكتفت بسؤال مشوب بالدهشة :

- روبرت نفسه !

تقدم إليها وصافحها بحرارة دون أن يعرف ماذا يقول وماذا يفعل .

- مدام پونتلييه ! يا لها من صدفة ! أه ! لقد تغيرت ! أليست الآنسة ريز هنا ؟ لم أتوقع قط أن أجدك هنا .

سألته إدنا فى صوت متهدج وهى تمسح وجهها بمنديلها ولم تعد تشعر بالراحة وهى تجلس على مقعدها أمام البيانو فطلب منها أن تجلس على مقعد بجوار النافذة وفعلت إدنا ما طلبه منها دون أن تعى ماذا تفعل بينما جلس هو على مقعد البيانو .

- متى رجعت ؟

أجاب وهو يضع يديه على مفاتيح البيانو مصدرًا صوتًا قويًا متنافر النغمات :

- عدت أول أمس .

رددت عبارته أكثر من مرة بصوت عال وعلى نحو غير مفهوم :

- أول أمس ! أول أمس !

كانت تظن أنها ستكون أول من يسعى لرؤيته بعد

وصوله إلى المدينة، ولكن ها هما ذان يستظلان بسماء واحدة منذ أمس الأول ولم يفكر فى رؤيتها، ولولا أنهما تقابلا بالمصادفة لما تقابلا . لم تكن الآنسة على صواب إذن عندما قالت المسكين الولهان، إنه يحبك .

قالت مكررة :

– أول أمس ! إذن لو لم تكن قابلتنى هنا اليوم لما حاولت زيارتى ومقابلتى ؟

– كلا ، كان لابد من أن آتى لزيارتك . ولكن كان لدى الكثير من الأمور .

ثم أردف وهو يعدل من شأن نوتة الآنسة الموسيقية بتوتر واضح :

– لقد بدأت العمل فى الحال مع الشركة القديمة . رغم كل شىء ثمة فرصة متوفرة لى ؛ لأن العمل هنا أفضل من العمل هناك، ولعلى أرى العمل هنا مريحًا ومربحًا فى يوم من الأيام . لا أرتاح للمكسيكيين على أية حال .

إذن لقد عاد لأنه لم يرتح مع المكسيكيين ؛ ولأن الربح لم يختلف عن الربح هنا ، أو لأى سبب آخر غير أنه يريد رؤيتها وأن يكون قريبًا منها . تذكرت حين جلست على الأرض تقلب فى خطابه الذى لم تجد فيه سببًا لذهابه دون أن يحيطها علمًا بنيته .

لم تنتبه إلى أنها يجب أن تنظر فى وجهه لترى كيف تغير، كان وجوده يكفيها ، ولكنها اختلست مع ذلك نظرة إلى وجهه .

هل تغير فى تلك الأشهر الخمسة التى غابها . شعره الذى يشبه شعرها ، يجرى على صدغيه مثلما كان فى الماضى . لم تصبح بشرته أكثر سمرة مما كنت عليه عندما كان فى جراند أيل . عندما نظر إليها وجدت فى عينيه تلك الرقة السابقة التى أضافت إليها دفئًا ولطفًا لم تعهدهما فيه من قبل، والنظرة نفسها التى كانت فى السابق تصل إلى المناطق النائمة فى روحها لتوقظها .

كانت عودة روبرت هاجسها فى الفترة الماضية . مر بذاكرتها لقاؤهما الأول فى بيتها . لم يبرح خيالها منذ ذلك الحين، تحلم فى يقظتها بأنه يعبر عن حبه لها أو يتقرب إليها على نحو صريح لا التواء فيه . والآن لا ترى غير الحقيقة ماثلة أمامها حيث يجلسان لا يفصل بينهما أكثر من عشرة أقدام، تجلس هى بجوار النافذة تسحق بيديها أوراق الزهر اليابسة ثم تقربها إلى أنفها لتشمها، بينما يجلس هو على مقعد البيانو يدور به نصف دائرة ويقول :

- تعجبت كثيرا لغياب السيد پونتلييه وانتقالك إلى بيت جديد . قالت لى أمى ذلك أمس . اعتقدت أنك ذهبت معه إلى نيويورك أو إلى أيرڤيل مع الطفلين ، قلت : إن ذلك أفضل من أن تهتمى هنا بالغسل والطبخ بنفسك، وسمعت أنك تريدين السفر أيضًا . إذن لن نراك فى جراند أيل فى الصيف المقبل على ما يبدو . هل ترين الآنسة ريز باستمرار ؟ إنها تتكلم عنك كثيرًا فى خطاباتها القليلة التى أرسلتها لى .

- هل تتذكر أنك وعدتنى بأن تكتب لى عندما سافرت ؟
اجتاحت وجهه حمرة طاغية وقال :
- لم أكن أظن أن رسائلى كانت ستثير اهتمامك ألبتة .
- هذا مجرد عذر لا أكثر .
تناولت إدنا قبعتها التى كانت تضعها على البيانو ووضعتها على رأسها وثبتت دبوسها على خصلة شعرها الكثيفة بنية مبيتة .
سألها روبرت :
- ألا تنوين انتظار الآنسة ريز حتى تأتى ؟
- لا . . لقد تعلمت أنها عندما تتأخر كل هذا الوقت فإنها لا تأتى مبكرًا .
ارتدت قفازيها وتناول روبرت قبعته سألته إدنا :
- ألا تريد أن تنتظرها ؟
- ألم تقولى إنها لن تأتى الآن ؟
ثم أردف وكأنه أحس بشىء من الجفاف فى إجابته :
- وحتى لا أخسر متعة المشى معك إلى بيتك الجديد .
أغلقت إدنا باب شقة الآنسة وأعادت المفتاح إلى مخبئه الأول .
مضيا معًا يشقان طريقهما عبر شوارع موحلة وأرصفة يغطيها الباعة الجائلون بما يعرضونه من بضاعة رخيصة .

قطعا بعضًا من المسافة فى حافلة وعندما ترجلا مرة أخرى مرا بقصر السيد پونتلييه الذى أصابه الهدم . لم يكن روبرت يعرف البيت أصلا فراح ينظر إليه باهتمام بالغ وهو يقول :

- لم نتعرف فى هذا البيت .
- وأنا سعيدة أنك لم ترنى فيه .
- لماذا ؟

لم تجبه . ومضيا فى طريقهما حتى تجاوزا البيت الكبير . بدا لها أن أحلامها مشرفة على التحقيق آخر الأمر عندما تبعها حتى دخلت بيتها الصغير .

- يجب أن تجلس وتتناول معى العشاء يا روبرت . أنت ترى أننى أعيش وحدى ، وقد مرت الشهور دون أن أراك . لدى الكثير من الأمور التى أريد أن أسألك عنها .

خلعت قفازيها وقبعتها . وقف برهة مترددًا ، يقدم الأعذار ، عن أمه التى تنتظره، وميعاد مرتبط به . أشعلت عود ثقاب وأضاءت المصباح القائم على المائدة كى يخفف من الظلام المتعاظم . وعندما طالع وجهها الذى كشف عنه نور المصباح أحس بشقاء يكسو عينيها ، غادرته قسماته الجميلة التى تضيئه سحرًا وفتنة . عندئذ ألقى بقبعته إلى جواره وجلس وهو يردف قائلاً :

- أنت تعرفين أننى لا أعصى لك أمرًا !

عاد وجهها ينطلق بالفرح ، وندت عنها ضحكة مدوية وهى تقترب منه لتضع يدها على عاتقه وتقول :

- هذه أول مرة تبدو فيها مثل روبرت الذى عرفته . سوف أخبر سلستين .

وأسرعت لتخبر سلستين لكى تعد له مكانًا زيادة على المائدة . ثم أرسلتها لكى تحضر بعض الأطعمة الشهية التى لا تطلبها عادة لنفسها ، ونصحتها بالعناية الشديدة فى تقطير القهوة وصنع الأوملت .

وعندما عادت كان روبرت يقلب فى صفحات المجلات التى وضعت فى متناول يده ، ويطالع الرسومات والأشياء الموضوعة على المائدة فى فوضى عظيمة . تناول صورة فوتوغرافية وراح ينظر إليها وهو يقول وقد ملكته الدهشة :

ألسيه أروبين ! وماذا تفعل صورته هنا بحق الجحيم ؟

قالت إدنا :

- حاولت أن أرسم صورة له ذات يوم، وكان يظن أن الصورة الفوتوغرافية يمكن أن تساعدنى على ذلك . كان ذلك فى المنزل القديم . كنت أظن أننى تركتها هناك . لابد من أننى أخذتها ضمن أدوات الرسم التى جئت بها إلى هنا .

- أعتقد أنك سوف تردينها إليه إذا كنت قد فرغت من الرسم الذى تتحدثين عنه .

- أوه ، لدى الكثير من مثل هذه الصور . لم أفكر مطلقًا فى إعادتها إلى أصحابها . إنها لا تعنى أى شىء .

كان روبرت لم يزل يحدق فى الصورة ثم قال :

- وهل وجهه يستحق أن يرسم ؟ أليس هو صديق السيد پونتلييه ؟ ولكنك لم تقولى إنك كنت تعرفينه .

- لم يكن صديقًا لعائلة السيد پونتلييه، إنه صديقى أنا .

كنت أعرفه منذ فترة طويلة ، وفى الأيام الأخيرة زادت معرفتى به . ولكنى أفضل أن أتحدث عنك أنت ، وأسألك عما كنت تفعل وتأكل وتشرب وترى وتحس به هناك فى المكسيك .

ترك روبرت الصورة وقال :

- كنت أرى أمواج البحر والشاطئ الأبيض فى جراند أيل، وشارع تشنيير الهادئ الذى يحوطه العشب، وقلعة جراند تير القديمة . كنت أعمل مثل الآلة، وأشعر بما تشعر به الروح التائهة .

لم يكن هناك شىء يشد الانتباه .

أسندت رأسها على يدها لكى تدفع عن عينيها أشعة الضوء القادمة من المصباح . سألها :

- وماذا كنت ترين وتفعلين ؟ وبم كنت تشعرين خلال كل هذه الأيام ؟

- كنت أرى الأمواج والشاطئ الأبيض فى جراند أيل، كنت أرى الشارع الهادئ الجميل فى تشنيير كامينادا ، وكنت أرى قلعة جراند تير المشمسة . كنت أعمل مثل الآلة دون وعى أو إحساس، كنت أحس وكأننى روحًا ضائعة . لم يكن لدى ما يثير الاهتمام .

قال وهو يغلق عينيه ويسند رأسه على ظهر مقعده :

- أنت قاسية حقًا يا سيدتى .

ثم لفهما الصمت حتى أعلنت الخادمة العجوز سلستين عن حضور العشاء .

- ٣٤ -

كانت حجرة الطعام صغيرة جدًا تكاد تملؤها مائدة إدنا المصنوعة من خشب الماهوجنى . لم يكن يفصل المائدة الصغيرة عن المطبخ والموقد وصوان السفرة غير خطوة أو خطوتين، على مقربة من الباب الجانبى الذى يفتح على فناء ضيق فرشت أرضيته من طوب صغير الحجم .

وعندما أعلن عن حضور العشاء كانت إدنا ودودة حين دعته للطعام بكل حفاوة وتكريم . توقفا عن لوم كلٍّ الآخر لغيابه وعدم اكتراثه . حكى روبرت أحداثًا وقعت له فى رحلته إلى المكسيك، وتحدثت إدنا عما حدث لها أثناء غيابه وكانت تعرف أنها تروق له . كان العشاء عاديًا ما خلا الطعام الذى بعثت الخادمة لشرائه

من خارج البيت . كانت سلستين تقف متأهبة للقيام بما يطلب منها فى الحال، وكانت تتحدث مع روبرت الذى كانت تعرفه منذ صباه .

خرج روبرت ليشترى علبة من لفائف التبغ من كشك قريب من البيت ، وعندما عاد كانت سلستين قد فرغت من إعداد القهوة فى الردهة . قال لإدنا :

– ربما لم يكن يجب أن أرجع . عندما تملين منى أخبرينى حتى أذهب لحال سبيلى .

– أنا لا أملّ منك أبدًا . لابد من أنك نسيت الساعات والساعات التى كنا نقضيها فى جراند أيل التى توطدت فيها معرفتنا وكنا لا نفترق .

كان كيس التبغ الذى وضعه على المائدة يلفت الأنظار لما به من تطريز جميل . تزينه خيوط حريرية، أيقنت إدنا أن امرأة هى التى صنعته له بيديها . قال لها وهو يحاول ألا ينظر إليها متظاهرًا بأنه مشغول بإعداد سيجارة :

– لم أنس شيئًا من أحاديثنا فى جراند أيل .

قالت إدنا وهى تتناول كيس التبغ بينما كانت عينيها تفحص التطريز بعناية مفرطة :

– فى الماضى كنت تضع التبغ فى كيس من المطاط .

– نعم، ولكن الكيس المطاطى ضاع .

- ومن أين اشتريت هذا الكيس ؟ من المكسيك ؟

أجاب وهو يحك عود الثقاب ويشعل سيجارته :

- أهدته لى فتاة من فيرا كروز، إنهم كرماء جدًا هناك .

- وأعتقد أنهن فاتنات الجمال، هؤلاء المكسيكيات بعيونهن السوداء وأوشحتهن الحريرية .

- بعضهن جميلات فعلا، ولكن من بينهن من لا تطاق . مثل أى نساء فى أى مكان فى العالم .

- وبالنسبة للفتاة التى أهدتك العلبة ؟ لابد من أن معرفتكما كانت وثيقة جدًا .

- كانت فتاة عادية جدًا . لم تكن بالأهمية التى تظنين . ولكن معرفتى بها كانت كافية لأن تهدينى هذه العلبة .

- وهل زرتها فى منزلها ؟ وهل كانت زيارة لا تنسى ؟ يجب أن تخبرنى عن كل من قابلتهم وعرفتهم هناك، والانطباعات التى تركوها فى نفسك .

- من الناس من لا يترك فيك أثرًا أكثر مما يتركه القارب أثناء مروره على مياه النهر .

- وهل كانت من هذا النوع ؟

قال وهو يدس العلبة فى جيبه كأنما يريد أن يختم الموضوع حتى لا ينتهى إلى سخف :

- أكون قد جانبت الصواب إذا قلت إنها كانت من هذا النوع .

جاء أروبين برسالة من مدام ميريمان تقول فيها إنها قد أجلت حفل الكوتشينة لأن أحد أبنائها يمر بوعكة صحية .

قال روبرت ولم يكن أروبين قد رآه بعد :

- وكيف حالك أنت يا أروبين ؟

- أوه ! لبرن . سمعت أمس أنك عدت . كيف كان الناس يعاملونك فى المكسيك ؟

- معاملة جيدة .

- ولكنك عدت بسرعة غير متوقعة . على كل حال البنات هناك فاتنات . كنت فى فيرا كروز منذ عامين ولم أكن أريد أن أعود أبدًا .

سألت إدنا :

- وهل كنّ يزينّ لك الشباشب وعلب التبغ وأربطة القبعات وأشياء من هذا القبيل ؟

- أوه ! لى أنا ! لا ! لم أكن أتدخل فى شئونهن إلى هذا الحد . لقد كان تأثيرهن علىّ أكثر من تأثيرى عليهن .

- إذن أنت لم تكن محظوظًا مثل روبرت .

- دائمًا أنا أقل حظًا من روبرت . هل حكى لك أشياء أخرى أكثر سرية ؟

قال روبرت وهو ينهض ويهم بمصافحة إدنا :

- لقد أطلت أكثر من اللازم، من فضلك بلغى سلامى للسيد

پونتلييه عندما تكتبين له . ثم صافح أروبين وغادر المكان .
قال أروبين فى إثره :
- شخص ظريف هذا المدعو لبرن . لم أسمعك تتحدثين عنه .
قالت إدنا :
- عرفته الصيف الماضى فى جراند أيل . ها هى ذى صورتك ، ألا تريدها ؟
- وفيم أريدها ؟ ألقى بها فى أى مكان .
ألقت بها على المائدة وقالت :
لن أذهب إلى منزل مدام ميريمان ، إذا رأيتها أخبرها بذلك . ولكن ربما علىّ أن أكتب لها رسالة بذلك . وأظن أنه علىّ أن أكتب لها الآن ، وأعرب لها عن أسفى لمرض ابنها وأخبرها بألاّ تعوّل علىّ كثيرًا .
قال أروبين مذعنًا :
- هذه فكرة ممتازة ، أنا لا ألومك على ذلك ، إنه الحظ السيئ !
فتحت إدنا نوتة كانت معها وتناولت قلمًا وبدأت تكتب رسالة إلى مدام مريمان . أشعل أروبين سيجارة وأخذ يقرأ جريدة المساء التى كان يضعها فى جيبه . سألته إدنا عن تاريخ اليوم وأخبرها به .

– إذا سمحت خذ هذه الرسالة معك عندما تخرج لتضعها في صندوق البريد ؟

– طبعًا ، بالتأكيد .

قرأ أروبين بعض الأخبار في الجريدة ثم وضعها جانبًا وسألها فجأة بينما كانت مشغولة بترتيب بعض الأشياء على المائدة :

– وماذا تنوين فعله الآن ؟ هل تنوين الخروج والتنزه ؟ الليلة جميلة للتنزه .

– لا ، لا أريد أن أفعل أى شيء غير أن أرتاح وأسترخى . اذهب الآن للتنزه واتركنى .

– سأذهب إذا كان يجب أن أذهب ، أما التنزه فلن يتحقق . أنت تعرفين أننى أعيش عندما تكونين بجوارى فحسب .

نهض فجأة وودعها مغادرًا .

– هل هذا ما تقوله لكل امرأة تقابلها ؟

قال لها وقد افتعل ابتسامة على شفتيه :

– لقد قلت ذلك لسيدات كثيرات ، ولكنى لم أشعر قبل الآن أننى أعنى ما أقول .

لم تشرق عيناها بضوء السعادة هذه المرة ، لم تعلُها غير ابتسامة حالمة . قال لها وهو يطبع قبلة على يدها ويهم بالذهاب :

– تصبحين على خير . أنا أحبك . اهتمى بنومك .

أصبحت وحدها ذاهلة فى حلمها وشيئًا فشيئًا عادت تستعيد كل لحظة من لحظات الزمن التى قضتها مع روبرت بعد دخوله شقة الآنسة ريز . استعادت كل كلمة نطق بها، وكل التفاتة حانت من عينيه إلى عينيها . كم بدت تلك اللحظات قليلة لقلبها الذى أنهكه الشوق . عكر صفو الحلم فاتنة مكسيكية رأتها ماثلة أمامها، أحست بألم الغيرة ينخس جنبها الأيسر . تساءلت متى يعود ؟ لم يقل متى يعود . لقد كانت معه منذ قليل، سمعت صوته وشعرت بمس يديه . ولكن لأمر ما أحست أنه كان أقرب إليها وهو هناك، فى المكسيك .

– ٣٥ –

أقبل الصبح بالشمس المشرقة والأمل . لا شىء يحول بين إدنا والسعادة المرجوة . كانت مستلقية على سريرها مستيقظة تتألق عيناها بحلم الأمس . « إنه يحبك، المسكين ! » . لو استطاعت أن تصدق ما قالته لها الآنسة ريز لما همها ما يحدث بعد ذلك . كم كانت سخيفة حمقاء حين أسلمت نفسها بالأمس لليأس والقنوط . لقد كان تقديرها للأسباب التى جعلت روبرت متحفظًا فى حديثه معها بعيدًا عن الواقع . لم يكن تحفظه هذا عصيًا على التذليل . فإذا كان يحبها حقًا فلن يحول بينها وبينه شىء . يجب أن يعرف أنها تحبه . أشرقت الشمس عن صباح

جميل وهى تراه الآن خارجًا إلى عمله . إنها ترى الآن أية ملابس يرتدى، وكيف يمشى فى شارع وينعطف منه إلى آخر، وكيف يجلس على مكتبه، وكيف يتحدث مع الزائرين ، تراه ذاهبًا الآن لتناول الغداء، أو منتظرًا على ناصية أحد الشوارع حتى تجىء . سوف يرجع إليها فى الأصيل أو مع حلول المساء ، وسوف يجلس ويلف سيجارته ويتحدث قليلاً، وسوف يذهب كما فعل فى الليلة المنصرمة . ولكن يا لها من سعادة غامرة تلك التى تحس بها فى وجوده ! لن تندم على شىء ، ولن تسعى إلى أن تفسد عليه تحفظه إذا كان ذلك خياره .

وضعت إدنا الروب على جسدها وتناولت إفطارها . أحضرت لها الخادمة رسالة فرحت بها جدًا . من ابنها راؤول مكتوبة بخط يده المتعثر، يعبر لها فيها عن حبه وشوقه ويطلب منها أن ترسل له بعض الحلوى ، ويخبرها بأنهم وجدوا هذا الصباح عشرة خنازير صغيرة تضطجع فى صف طويل بجوار الخنزيرة البيضاء الأم التى تملكها ليدى .

كما جاءتها رسالة من زوجها يقول فيها إنه يأمل أن يأتى فى أول مارس القادم ، إنه سوف يصطحبها فى رحلة إلى الخارج كان قد وعدها بها منذ زمن بعيد، ويشعر الآن أنه مستعد لها من الناحية المادية . يستطيع الآن أن يسافر كما يفعل سائر الناس دون التفكير فى المال، وهذا بفضل مضارباته الأخيرة فى وولستريت .

واندهشت عندما تلقت رسالة من أروبين، كتبها كما يقول فى منتصف الليل من النادى . إنه يقول لها صباح الخير ويتمنى أن تكون قد نامت جيدًا، ويجدد فيها أشواقه وحبه الذى يقول إنها بادلته إياه بشكل أو بآخر .

كانت هذه الرسائل مصدر سعادة لها . ردت على رسالة طفليها برسالة مليئة بالفرحة والوعد بشراء الحلوى، وهنأتهما على العثور على الخنازير الصغيرة . وردت على رسالة زوجها بشىء من الغموض الودود، لم تجزم بأنها سوف تتخلف عنه فى رحلته الموعودة؛ لأن حياتها ببساطة قد افتقرت إلى أى واقع ملموس، وأنها قد تركت نفسها لتصاريف القدر، وتنتظر الآن ما يسفر عنه دون اكتراث يذكر . لم تجب على رسالة أروبين . وضعتها تحت غطاء موقد الخادمة سلستين .

لبثت إدنا فى مرسمها تعمل ساعات طوال بفرحة غامرة ونفس راضية . لم تر أحدًا سوى تاجر لوحات أراد أن يعرف حقيقة سفرها إلى باريس للدراسة قالت له إنها قد تذهب فعلاً ، وطلب منها أن ترسل له بعض الدراسات الباريسية فى الرسم لكى يوزعها فى عطلة التجارة فى ديسمبر .

لم يأت روبرت ذلك اليوم . خاب الأمل وأحبط الرجاء ولم يأت فى اليوم التالى، ولا اليوم الذى تلاه . تستيقظ كل صباح على أمل رؤياه، وتنام كل ليلة محبطة باليأس والقنوط . فكرت

فى أن تبحث عنه بنفسها . ولكنها لم تطع قلبها، ولم تضع نفسها فى طريق قد يمر به . لم تذهب إلى الآنسة ريز، ولم تمر ببيت مدام لبرن كما كانت تفعل عندما كان هو فى المكسيك .

وعندما ألح عليها أروبين ذات ليلة فى أن تذهب معه للتنزه فى عربة من عرباته، خرجت معه إلى البحيرة، على طريق شل . كان جواداه يمتلئان بالحيوية والنشاط حتى إنه كان قادرًا بالكاد على كبح جماحهما . أعجب إدنا ركضهما وسرعتهما التى كانا يقطعان بها الطريق، وأسكرتها وقع حوافر الجوادين وهى تضرب الطريق المرصوفة . لم يتوقفا فى أى مكان لتناول طعامًا أو شرابًا . ولم يكن أروبين مفتقرًا للأدب والذوق . لم يتناولا طعامًا أو شرابًا إلا عندما عادا إلى حجرة طعام إدنا الصغيرة فى أول المساء . كان الوقت متأخرًا عندما انصرف . لم تعد رغبة أروبين فى مقابلتها أو القرب منها مجرد نزوة عابرة لديه . لقد آنس لديها رغبة حسية كامنة كعبير الزهر الفواح . نامت تلك الليلة دون أن يستبد بها قنوط، واستيقظت ذلك الصباح دون أن يحدوها أمل .

- ٣٦ -

ثمة حديقة صغيرة على أطراف المدينة تنتشر بها المقاعد والمناضد الصغيرة التى تظللها بعض أشجار البرتقال القصيرة هناك كان ينام قط مسن طوال النهار على حجر كبير لا يتأثر بأشعة الشمس العاتية . وهناك كانت تنام سيدة من الملونين جل ساعات

فراغها على مقعدها فى كشك بنافذة مفتوحة على الدوام حتى يأتى من ينقر على منضدة من المناضد المنتشرة فى الحديقة . كانت تبيع اللبن الساخن والجبن والقشدة والخبز والزبد . وكانت تشتهر بقهوتها الممتازة والدجاج المشوى الذى يأخذ لون الذهب بعد شيه . لم يكن المكان بتلك الفخامة التى تجذب أبناء الطبقة الممتازة، ولم يكن بهدوئه الشديد يروق للباحثين عن المتعة والتسلية . اكتشفت إذنا هذا المكان بالمصادفة ذات يوم عندما كان باب الحديقة مفتوحًا على مصراعيه . رأت منضدة خضراء صغيرة من بعيد لفحتها أشعة الشمس المتسللة من بين أوراق الشجر التى تظللها . وعندما دخلت وجدت السيدة نائمة والقط العجوز يتثاءب فى كسل واضح، وكوبًا من اللبن على المنضدة ذكرها باللبن الذى كانت تشربه فى أبرفيل .

اعتادت أن تتوقف هناك أثناء تجوالها تتفحص كتابًا تأخذه معها، وتجلس ساعة أو ساعتين تحت الأشجار عندما تجد المكان مهجورًا تعشت هناك مرة أو مرتين وحدها بعد أن تكون قد أعطت تعليماتها لسلستين بأن لا تعمل حسابها فى العشاء . لم تتصور لحظة أن تقابل فى هذا المكان من تعرفهم .

ورغم ذلك لم تتملكها الدهشة عندما كانت تتناول عشاءها المتواضع ذات مساء، وتنظر فى كتاب مفتوح بين يديها، وتمسح على ظهر القط العجوز الذى عقد صداقة معها، لم تتملكها

الدهشة تمامًا عندما رأت القادم عبر الباب الكبير وكان روبرت . قالت له وهى تضع القط بعيدًا عنها على مقعد مجاور .

– قدرى أن أراك دائمًا بالمصادفة .

كان هو مندهشًا ومرتبكًا لمقابلتها على ذلك النحو المفاجئ ، سألها :

– وهل تأتين هنا كثيرًا ؟

– تقريبًا أعيش هنا .

– تعودت أن أتناول هنا كوبًا من قهوة كاتشى الرائعة، هذه أول مرة آتى فيها إلى هنا منذ عودتى .

– سأطلب منها أن تحضر لك طبقًا وتقاسمنى العشاء . إنه يكفى لاثنين دائمًا بل لثلاثة .

بيتت إدنا النية فى أن تتظاهر بعدم الاكتراث لقدومه . عقدت العزم على أن تخلع على مشاعرها ثوب التحفظ الذى قابلها به فى المرة الماضية . استعانت بالعزم الذى شيدته فى نفسها بتؤدة ومران العقل . اجترت حالة من حالات القنوط التى كانت تنتابها حين اليأس . ولكنها لم تصمد عندما رأته أمامها، ضاع العزم وخارت القوى حين جلس إلى جوارها فى الحديقة الصغيرة، وكأنما دفعت به فى طريقها أقدار السماء . أغلقت الكتاب الذى كان مفتوحًا على المنضدة وسألته :

- لماذا تحاول الابتعاد عنى يا روبرت ؟

قال روبرت بنبرة جادة مشوبة بالدفء :

- ولماذا تأخذى الأمور بحساسية زائدة يا مدام پونتلييه ؟ لماذا تضطرينى لاختلاق الأعذار الحمقاء ؟ أعتقد أنه لا داعى لأن أقول لك إننى مشغول جدًا، أو إننى كنت مريضًا، أو إننى ذهبت لزيارتك ولم أجدك فى البيت . أرجو أن تقبلى أيًا من هذه الأعذار الآن .

قالت :

- أنت أنانى للغاية، بل الأنانية مجسدة . ثمة شىء لم تقله، لا أعرف ما هو، ولكن ثمة دافع أنانى هو الذى دفع بك إلى هذا التصرف معى، لقد أعفيت نفسك من المسئولية ولم تهتم لحظة بما أفكر، وكيف أتحمل عدم اكتراثك وإهمالك المتعمد . قد تقول إن هذه مكاشفة لا تليق بامرأة، ولكنى تعودت على أن أفصح عما فى نفسى . لا يهمنى أن تستغرب هذا المسلك .

- لا، أنا لا أعتقد إلا فى أنك قاسية كما قلت لك بالأمس . ربما لا تقصدين هذه القسوة، ولكن من الواضح أنك تضطريننى إلى إفضاءات قد لا تؤدى إلى شىء يذكر، وكأنك تريديننى أن أكشف عن جرح لأننى أسعد برؤياك، دون نية أو قدرة على أن أعالجه .

- إننى أفسد عليك عشاءك يا روبرت . لا تهتم بما أقول . إنك لم تأكل شيئًا ألبتة .
- لقد جئت فى الواقع من أجل كوب من القهوة .

كانت ملامح وجهه الرقيقة تضطرب بالانفعال والإثارة . قالت له على سبيل الملاحظة :

- أليس هذا مكانًا جميلاً حقًّا ؟ إننى سعيدة لأن الناس لم يكتشفوه . إنه هادئ جدًا، وجميل جدًا . ألم تلاحظ أنك لم تسمع صوتًا واحدًا ؟ أحسن شىء أنه بعيد عن الطريق العام ؟ ويضطر المرء للمشى مسافة لا بأس بها بعد أن يتوقف بالسيارة . أنا لا يهمنى المشى . بالعكس ، أحزن دائمًا لهؤلاء النسوة اللائى لا يردن المشى، إنهن يفقدن الكثير من مناظر الحياة البهيجة ، على العموم نحن النساء خبرتنا بالحياة قليلة .
- قهوة كاتشى ساخنة دائمًا ، لا أعلم كيف تتحمل ذلك فى هذا المكان المكشوف ! القهوه تبرد فى يد سلستين حين تأتى بها من المطبخ إلى حجرة السفرة . أربعة قطع من السكر ! كيف تشربه بكل هذه الكمية من السكر ؟ خذ بعض النعناع عليه، مذاقه جميل . ثم إنه توجد ميزة أنك تستطيع أن تدخن مع القهوة هنا . والآن ألا تريد أن تدخن ؟

قال وهو لم يزل يضع السيجارة على المنضدة :

- بعد فترة .

قالت وهى تضحك :

- ومن الذى أعطاك هذه السيجارة ؟

- اشتريتها ، سوف لا أهتم بكلامك ، لقد اشتريت علبة بأكملها .

عقدت العزم على ألا تكون هجومية مرة أخرى حتى لا تسبب له الضيق .

انعقدت الصداقة بينه وبين القط الذى تسلق إلى حجره وهو يهم بتدخين سيجارته . راح يمسح على فروته الناعمة وتحدث عنها قليلًا . ألقى نظرة على الكتاب الذى بين يدى إدنا ، كان قد قرأه وأخبرها بالنهاية لكى يوفر عليها عناء تكملة قراءته .

اصطحبها مرة أخرى إلى منزلها الجديد الذى وصلا إليه قبيل الغسق . لم تطلب منه أن يبقى هذه المرة الأمر الذى كان ممتنًا له إذ وفر عليه مؤونة البحث عن عذر مقبول لم يكن لديه النية فى البحث عنه . ساعدها على إضاءة المصباح، ثم دلفت إلى حجرتها لكى تخلع قبعتها وتغسل وجهها ويديها .

وعندما رجعت لم يكن يتأمل الصور أو يتصفح المجلات كما فعل فى المرة الماضية . كان يجلس فى العتمة الجزئية يسند رأسه على مقعده وكأنما كان يستسلم لحلم جميل . تلكأت إدنا قليلًا بجوار المنضدة تتظاهر بأنها ترتب ما عليها من كتب، ثم عبرت

الحجرة إلى حيث يجلس . أقبلت عليه حتى أصبحت قريبًا من أذنيه وهتفت :

- روبرت ! هل أنت نائم ؟

أجاب وهو يتطلع إليها :

- لا .

أقبلت عليه وعاجلته بقبلة رقيقة ناعمة اضطرب لها جسده كله وعندما همت بالانصراف تبعها وأخذها بين يديه وضمها إلى صدره ضمة قوية . أحاطت وجهه بيدها وجذبت خده إلى خدها مما زاد من شوقه وضعفه فراح يبحث عن شفتيها مرة أخرى ثم جذبها إلى الأريكة وأخذ يديها بين يديه وهو يقول :

الآن عرفت ما كنت أحارب من أجله منذ الصيف الماضى فى جراند أيل ، ما الذى دفع بى إلى الهرب ، وما الذى دفع بى إلى العودة من جديد ؟!

سألته وقد انطلق وجهها بسعادة طاغية :

- ولماذا تحارب من أجل ذلك طوال تلك المدة ؟

- لماذا ؟ لأنك لست خالية، لأنك زوجة لليونس پونتلييه . ولكنى لم أملك إلا أن أحبك حتى ولو كنت زوجته عشر مرات، ولكننى ذهبت بعيدًا عنك حتى لا تسمعين منى هذا الكلام .

وضعت يدها الخالية على منكبيه ثم تحولت لتمسح بها

على خديه فى رقة ونعومة . قبلها مرة أخرى كان وجهها دافئًا مخضبًا بحمرة الورد .

- كنت فى المكسيك أفكر فيك طوال الوقت ويعصف بى الشوق إليك .

قالت مقاطعة :

ولكنك لم تكتب لى رسالة واحدة .

- لأمر ما أحسست أنك تشاركيننى مشاعرى مما أفقدنى الإحساس بكل شىء إلا أن أشعر بوجودك قريبة منى . نسيت كل شىء ما خلا الحلم بأن تكونى زوجتى فى يوم من الأيام .

- زوجتك !

- كل شىء يهون فى سبيلك .

- أنسيت أننى زوجة ليونس پونتلييه ؟!

- نعم، لقد فقدت صوابى، وكنت أحلم بالمستحيل وأتذكر رجالاً منحوا الحرية لزوجاتهم، لقد سمعت عن أمور كهذه

- نعم وأنا سمعت عن مثل هذه الأشياء .

- رجعت وأنا محمل بالنوايا المجنونة الغامضة، وعندما وصلت إلى هنا . . .

قالت ولم تزل تلاطف خديه :

- وعندما وصلت إلى هنا لم تقترب منى ؟

– أدركت أنه من الجبن والخسة أن أفكر فى أمر كهذا، حتى وإن كانت هذه رغبتك .

أخذت وجهه بين يديها وراحت تحدق فى صفحته وكأنما لم تكن تنوى أن تغلق عينيها مرة أخرى ألبتة طبعت قبلة متمهلة على جبينه وأخرى على عينيه وثالثة على وجنتيه وأخيرة على شفتيه .

– لقد كنت صبيًا أحمق فعلاً حين أضعت وقتك فى التفكير فى الأمور المستحيلة كأن يخلى السيد پونتلييه سبيلى إلى الأبد ! أنا لم أعد من ممتلكات السيد پونتلييه حتى يعتقنى أو لا يعتقنى . إننى أضع نفسى فى المكان الذى أريد . حتى لو فرضنا أنه قال لك : روبرت لقد تركتها لك ، خذها وانصرف ! إننى سوف أضحك على كليكما .

سألها وقد تحول وجهه إلى اللون الأبيض من كثرة الدهشة :

– ماذا تقصدين ؟

سمعت طرقًا على الباب أقبلت سلستين العجوز لتقول إن خادمة مدام راتجنول جات لتخبر إدنا بأن مدام راتجنول قد ألم بها مرض مفاجئ وترجو مدام پونتلييه أن تذهب إليها فى الحال . قالت إدنا :

– نعم، نعم، لقد وعدتها . أخبريها بأن تنتظرنى . سوف

أذهب معها .

قال روبرت :

- سنخرج سويًا .

قالت :

- لا ، سأذهب مع الخادمة .

ودلفت إلى حجرتها لكى تضع قبعتها على رأسها وعندما رجعت جلست مرة ثانية على الأريكة إلى جواره . لم يضطرب هذه المرة ولم يثر . أحاطت عنقه بيديها وقالت :

- إلى اللقاء يا عزيزى روبرت . قل لى إلى اللقاء .

وقبلها بحرارة غير معهودة وجذبها نحوه بقوة وهى تهمس فى أذنيه :

- أحبك، أحبك أنت فقط، لا أحب أحدًا غيرك . إنك أنت الذى أيقظنى الصيف الماضى من حلم أحمق عشته طوال حياتى . أوه ! لقد سببت لى الشقاء بعدم اكتراثك . أوه ! لقد عانيت، عانيت الكثير ! والآن سوف أحبك إلى الأبد ما دمت معى يا حبيبى روبرت . سوف يكون كل منا كل شىء بالنسبة للآخر . لن يهمنى شىء آخر فى هذا الكون . سأذهب إلى صديقتى، وسوف تنتظرنى؟ مهما تأخرت سوف تنتظرنى يا روبرت ؟

قال متوسلاً :

– لا تذهبى يا إدنا ! أوه ! إدنا، ابقى معى . لماذا تذهبين ؟ ابقى معى .

– سوف أعود فى أقرب وقت . وسوف أجدك فى انتظارى .

دفنت وجهها فى صدره وودعته مرة أخرى . صوتها الخالب، وحبه العظيم لها قد أثارا حواسه كلها، حرماه من كل رغبة غير الرغبة فى الإمساك بها والاحتفاظ بها .

– ٣٧ –

مرت إدنا بالصيدلية القريبة ورأت السيد راتجنول يمزج الدواء بنفسه بعناية شديدة، يخلط سائلاً أحمر فى كأس صغير . أظهر فرحة لدى قدومها وأبدى لها امتنانه . حضورها سوف يكون عزاء لزوجته وأى عزاء ! لم تستطع أخت مدام راتجنول الحضور من المزرعة هذه المرة مثلما كانت تفعل دائمًا فى مثل تلك الأوقات العصيبة . فاستولى القنوط على آديل حتى وعدت مدام پونتلييه بالحضور . كانت الممرضة فى صحبتهما فى الليل طوال الأسبوع المنصرم ؛ لأنها تعيش على مسافة بعيدة منهما . وكان الدكتور ماندليه يأتى ويذهب طوال المساء . كانوا يبحثون عنه فى كل لحظة .

انطلقت إدنا تعدو على درج منزل يبدأ أوله وراء المتجر ويؤدى

إلى الشقق فى الطابق الثانى . كان الأطفال نائمون جميعًا فى حجرة خلفية . كانت مدام راتجنول فى حجرة الاستقبال الأمامية حيث انتهى بها المطاف بعد نوبة المرض المفاجئة . تهافتت على الأريكة فى ثوبها الفضفاض تمسك بقوة بمنديل فى يدها المرتعشة . كان وجهها متجعدًا شاحبًا، أما عيناها الزرقاوان فقد كانت تشع منهما نظرات شرسة بعيدة عن المألوف . أرسلت شعرها الجميل خلف ظهرها فى ضفائر لم يحكم طيها، يقع بجوارها على وسادة الأريكة ملتفًا فى جديلة واحدة طويلة أشبه بثعبان ذهبى . كانت الممرضة نصف الزنجية تقف بجوارها فى مريلتها البيضاء تحثها على الانتقال إلى حجرتها . قالت لإدنا فجأة :

- لا فائدة، لا فائدة . يجب أن نتخلص من مانdليه ؛ لقد طعن فى السن وأصبح لا يأبه بشىء . قال إنه سوف يأتى فى السابعة والنصف، ولابد من أن الساعة الثامنة الآن . كم الساعة الآن ياچوزفين ؟

كانت الممرضة ذات طبيعة مرحة لا تأخذ الأمور مأخذ الجد الزائد ولا سيما تلك المواقف التى تعرفها جيدًا . ألحت على المدام أن تتجمل بالشجاعة والصبر ولكن المدام عضت على شفتيها وعندئذ رأت إدنا حبات العرق على جبهتها تتجمع مثل حبات المسبحة . وما هى إلى لحظات حتى أرسلت تنهيدة عميقة ومسحت وجهها

بمنديل راحت تعصره بيدها . كانت متعبة غاية التعب أعطتها الممرضة منديلاً آخر جديدًا معطرًا بماء الورد .
صاحت فجأة :
- هذا كثير جدًا ! ماندليه يستحق القتل ! أين ألفونس ؟ هل يتركوننى هكذا ؟! كلهم يهملوننى ؟!
قالت الممرضة فى تهكم حذر :
- صحيح يهملونك !

أليست الممرضة بجوارها ؟ ألم تترك مدام پونتلييه حفلاً جميلاً لكى تبقى بجوارها ؟ وها هو ذا السيد راتجنول قادم قد تجاوز الصالة . وها هى ذى چوزفين تجزم بأنها سمعت عربة الدكتور ماندليه قادمة وهى الآن أمام الباب .

وافقت آديل على أن تعود إلى حجرتها كانت تجلس على حافة الأريكة المنخفضة بجوار السرير لم يعرها الدكتور ماندليه انتباهًا عندما حضر . لقد اعتاد على ثوراتها فى مثل تلك الأوقات، ورغم ذلك لم يكن يخالجه الشك فى ولائها له .

كان مبتهجًا لدى رؤية إدنا، وطلب منها أن تأتى معه إلى الصالون لكى يتحدث معها . ولكن مدام راتجنول رفضت رفضًا قاطعًا أن تغادرها إدنا لحظة واحدة . قالت إنها تخفف عنها متاعبها . بدأت إدنا تشعر بقلق مفاجئ . استولى عليها خوف طارئ لم تعرف له كنهًا . لقد مرت بنوبات من المرض فى الماضى لا تكاد تتذكر أغلبها الآن . تتذكر الآن نوبة من الألم

المبرح ألمت بها، تذكرت رائحة الكلوروفورم الثقيلة، والغيبوبة التى تميت الإحساس، ويقظة بعدها وجدت حياة جديدة وهبتها كل كيانها .

بدأت تتمنى لو لم تكن قد جاءت إلى الوجود؟ لم تر لوجودها ضرورة . لابد من أنها قد اختلقت ذريعة للبقاء بعيدًا ، قد تكون اختلقت ذريعة الآن للذهاب . ولكن إدنا لم تذهب . رأت مشهد العذاب بالحزن الداخلى، بالتوقد، بالثورة المضمرة ضد طرائق الطبيعة .

كانت لم تزل ذاهلة صامتة من فرط التأثر العاطفى عندما أقبلت على صديقتها لتقبلها وتقول لها تصبحين على خير فى نعومة ورفق . ضغطت آديل على خدها وهمست لها فى صوت مرهق :

فكرى فى أولادك يا إدنا . فكرى فى أطفالك يا ابنتى ! تذكريهما دائمًا .

- ٣٨ -

كانت إدنا مضطربة حين خرجت من منزل مدام راتجنول . أقبلت عربة الطبيب لاستقباله أمام المدخل الكبير . لم تبد إدنا رغبة فى ركوب عربة الطبيب ، أخبرته بأنها ترغب فى المشى ، لم تكن تخشى الطريق، وكانت نيتها خالصة فى الوصول إلى بيتها بمفردها . أمر الدكتور ماندليه سائق العربة بالتوجه بدونه حتى

يتقابلا عند منزل مدام پونتلييه عاقدًا العزم على المشى معها فى طريقها إلى بيتها .

كان الأفق مرصعًا بالنجوم التى تلمع بين المبانى الشاهقة على جانبى الشارع الضيق . داعبت وجهيهما نسمات باردة امتزجت بأنفاس الربيع والليل . كان الطبيب يمشى متثاقلاً عاقدًا يديه خلف ظهره يطؤ الأرض بخطوات محسوبة ، وكانت إدنا تمشى شاردة الذهن على نحو ذكرها بليلة من ليالى جراند أيل حين كانت تمشى تسبقها أفكارها مثل ظلها وهى تسعى للحاق بها دون جدوى . قال لها الطبيب :

- كان يجب ألا تذهبى إلى هناك يا مدام پونتلييه ، هذا ليس مكانك . إن آديل تصبح غاية فى السخف فى تلك الأوقات . وثمة عدد كاف من السيدات اللاتى لم يؤذين حساسيتك سوف تجدهن حول سريرها . لقد كنت أشعر بك، لم يكن ينبغى مجيئك .

- حسنًا، على أية حال لا أظن أن ما حدث يهمنى كثيرًا .

- متى يأتى ليونس ؟

- قريبًا جدًا . سيأتى فى مارس .

- وهل انتويت الذهاب إلى الخارج كما يقولون ؟

- ربما . . . لا، لن أذهب . لن أضطر إلى عمل شىء لا أريد أن أفعله . لا أريد أن أذهب إلى الخارج . أريد فقط

أن يتركونى وشأنى . لا حق لأحد، فيما عدا الطفلين ، ربما ، وحتى عندئذ ، يبدو لى ، أو لا يبدو لى . . .

توقفت عن الكلام فجأة لأنها أحست أن الكلمات لا تتسق مع ما فى ذهنها من أفكار . قال الطبيب وهو يرسل تنهيدة عميقة ويسعى لفهم ما تقصد :

– المشكلة هى أن الشباب قد استسلم للأوهام . يبدو أن ذلك من شروط الطبيعة ، طعم لضمان الأمهات اللاتى يحفظن النسل . أما الطبيعة فلا تهتم بالعواقب الأخلاقية، لا تهتم بالشروط المتعسفة التى نخلقها والتى نشعر أننا مضطرون إلى الحفاظ عليها بأى ثمن .

– نعم . تبدو الأيام الماضية أشبه بالأحلام، لو يستمر المرء فى النوم والأحلام، ولكننا نستيقظ لنجد . . . أوه ! حسنًا ! ربما من الأفضل أن نستيقظ رغم كل شىء، حتى لو عانينا أفضل من أن نبقى نهبًا للأوهام طوال العمر .

قال الطبيب وهو يهم بالإمساك بيدها :

– يبدو لى يا طفلتى العزيزة أنك تمرين بمشكلة . لن أسألك ما هى هذه المشكلة، أقول لك فقط : إذا أحسست بأنك تريدين أن تحكى لى شيئًا ، ربما أستطيع مساعدتك حقًا . أعرف أننى سوف أفهم مشكلتك، وأقول لك أيضًا إن القليلين هم الذين فى مقدورهم ذلك ، القليلين يا عزيزتى .

- عمومًا أنا لا أشعر برغبة فى أن أحكى مشاكلى لأحد . ولا تظن أننى غير ممتنة لك أو أننى لا أقدر لك تعاطفك معى . أمر أحيانًا بنوبات من القنوط والمعاناة النفسية يضطرب لها كيانى كله . ولكنى لا أريد غير الحل الذى أريده لنفسي . وهذا يتطلب الكثير بطبيعة الحال، عندما يكون عليك أن تدوس على حيوات الآخرين، وقلوب الآخرين، وأهواء الآخرين- ولكن لا يهم- لم أزل غير راغبة فى أن أدوس على حيوات الآخرين الصغيرة . أوه ! لا أعرف ما أقول يا دكتور . دكتور، تصبح على خير يا دكتور . لا تلومنى على أى شىء .

- نعم، سوف ألومك إذا لم تأت لأراك فى أقرب فرصة . سوف نتحدث فى أشياء لم تتخيلى أننا يمكن أن نتحدث فيها من قبل . سوف تفيدنا نحن الاثنين . لا أريدك تلومين نفسك مهما حصل . تصبحين على خير يا عزيزتى .

دلفت إلى مدخل البيت وبدلاً من أن تدخل جلست على إحدى درجات المدخل المؤدى إلى الشرفة كان الليل هادئًا وناعمًا . بدأت تتخفف من عواطفها الجياشة التى انتابتها فى الساعات المنصرمة كما تتخفف من ثوب قديم لم تعد تطيقه . عادت بخيالها إلى الساعة التى سبقت استدعاء آديل لها، وبدأت حواسها تنتعش من جديد برؤية روبرت والتفكير فى كلماته،

وضغط ذراعيه، والإحساس بشفتيه على شفتيها . لن تعدل بهذه السعادة سعادة أخرى على الأرض . عندما كانت تتذكر أنه هنا على مقربة منها ، فى انتظارها ، كانت تصبح ثملة بتوقع مجيئه . كان الوقت متأخرًا لابد من أنه قد نام . سوف توقظه بقبلة . تمنت لو كان نائمًا حتى توقظه بملاطفاتها .

ولكن صوت آديل كان لم يزل يتردد فى أذنيها وهى تهمس فيهما : « فكرى فى طفليك يا إدنا ، فكرى فيهما » . لقد كانت آديل تعنى ما تقول؛ هذا الحكم سيق إلى وعيها مثل جرح الموت ، ولكن ليس الليلة . غدًا سيكون الوقت متاحًا للتفكير فى كل شىء .

لم يكن روبرت فى انتظارها فى الردهة الضيقة . لم يكن موجودًا على مقربة منها . كان المنزل خاليًا . ولكنه كان قد كتب لها ورقة على عجل وضعها على المصباح يقول فيها : «أحبك . الوداع- لأننى أحبك» .

كادت إدنا تقع على الأرض حين قرأت الورقة . رجعت وجلست على الأريكة ، ثم مدت رجليها دون أن تنبس بكلمة أو صوت . لم تنم . لم تذهب إلى الفراش . أحدث المصباح فرقعة وانطفأ . كانت لم تزل مستيقظة حتى الصباح عندما أغلقت سلستين باب المطبخ وجاءت لكى توقد النار .

- ٣٩ -

كان فكتور يصلح أحد جوانب المائدة بمطرقة ومسامير

وقصاصات من خشب . جلست ماركويتا قريبة منه على مقعد مادة قدميها بينما تشاهده وهو يعمل بهمة ونشاط، وتناوله المسامير بين الحين والآخر من صندوق الأدوات الذى بجوارها . كانت أشعة الشمس تنال من رأسيهما مما دفع بالفتاة لتغطية رأسها بوسادة رقيقة مربعة صنعتها من مريلتها . لبثا ساعة أو أكثر يتبادلان أطراف الحديث فى كل شىء . لم تمل من سماع ڤكتور وهو يصف حفل العشاء الذى أقامته مدام پونتلييه . راح يسرف فى الوصف، ويضيف من عنده من تهاويل لم تحدث حتى خيل لها أن الوليمة كانت لأحد الملوك أو الأمراء . قال : إن الزهور كانت فى أحواض ضخمة أشبه بأحواض الغسيل، وإن الخمر كانت تصب صبًا فى كئوس ضخمة من الذهب، وإن مشهد مدام پونتلييه وهى مقبلة على ضيوفها لا يضاهيه مشهد ڤينوس نفسها عند خروجها من البحر متألقة سحرًا وجمالاً والذهب يلمع فى معصميها، والماس يزين جيدها بينما تحيط بها الأخريات وكأنهن حوريات جئن من جنة عدن لا يقارن بشىء فى الفتنة والجمال .

ظنت الفتاة فى البداية أن ڤكتور قد وقع فى غرام مدام پونتلييه . ومن جانبه أمعن ڤكتور فى تأكيد ظنونها بإجاباته المضللة . لاذت بالصمت فترة ثم همت بالبكاء وهددت بتركه يهيم وحده مع نسائه وحورياته . قالت : إنها عندما كانت فى تشنيير كانت محل إعجاب الرجال جميعًا، وما دامت الموضة

هذه الأيام هى أن تهرب النساء مع الرجال المتزوجين فلماذا لا تهرب هى أيضًا إلى نيو أورليانز مع زوج سلينا .

واستشاط ڤكتور غضبًا وقال إن زوج سلينا جبان رعديد ، وغبى وخنزير ، ولكى يثبت لها ذلك قال إنه ينوى أن يطحن رأسه بهذه المطرقة عندما يراه . وأثلج ذلك صدر ماركويتا فجففت دموعها وتطلق وجهها بالابتسام .

لم يزالا يتحدثان عن حفل العشاء وإغراءات الحياة فى المدينة وإذ بمدام پونتلييه تظهر للعيان ، تمشى متثاقلة أمام المدخل وتهم بدخول البيت . وقف الشابان مندهشين أمام المشهد وقد ظنا فى البداية أنهما أمام شبح من تلك الأشباح التى تظهر فى أول النهار . كانت هى بشحمها ولحمها، يبدو عليها التعب ووعثاء السفر قالت :

– لقد مشيت كل هذه المسافة من الميناء . سمعت الطرق وعرفت أنك أنت، قلت إنك ربما تصلح ألواح المعديات الخشبية . جميل ، لقد كانت قدماى تزلان فى الصيف الماضى على هذه الألواح الخشبية التى لم تثبت جيدًا . كم يبدو كل شىء كئيبًا ومهجورًا !

فهم ڤكتور أنها جاءت فى قارب بودليت ، وأنها جاءت بمفردها ولم يكن لها أى غرض سوى أن تنشد قسطًا من الراحة .

- كما ترين ليس ثمة مكان جاهز الآن ، فى وسعك أن ترتاحى فى حجرتى ؛ إنها المكان الوحيد .

ردت بنبرة مطمئنة :

- أى مكان يفى بالغرض .

استمر يقول :

- وإذا تحملت طريقة فيلوميل فى الطبخ، رغم أنى أحاول أن أستدعى أمها إذا كنت سوف تتناولين عشاءك معنا .

ثم وهو يتحول إلى ماركويتا :

- أو تظنين أنها سوف تعود ؟

رأت ماركويتا أن فيلوميل قد يكون فى مقدورها أن تأتى لأيام قليلة إذا أخذت من النقود ما يكفى .

عندما ظهرت مدام پونتلييه ظنت الفتاة فى البداية أن ثمة موعدًا بينها وبين ڤكتور . ولكن الدهشة كانت بادية على وجه ڤكتور حقًا، وظهر لها عدم اكتراث مدام پونتلييه، فلم تلبث أن تبخرت ظنونها وعادت إلى رشدها . راحت تتأمل بكل اهتمام تلك المرأة التى أعدت لضيوفها أفخم حفل عشاء فى أمريكا ، والتى كان الرجال فى نيو أرليانز يركعون تحت قدميها .

قالت إدنا مستفسرة :

- متى تتناولون العشاء ؟ أنا جائعة حقًا ؟ ولكن لا تأتون بأى شىء زيادة .

قال ڤكتور وهو يجمع أدواته بسرعة :
سنجهزه على الفور، يمكنك الانتظار فى حجرتى حتى نجهزه . ماركويتا سوف تريك كل شىء .
قالت إدنا :
- أشكرك، ولكن تعرف أن لدى رغبة شديدة فى أن أعود إلى البحر والعوم فى مياه المحيط مرة أخرى قبل العشاء ؟
قالا فى صوت واحد وشىء من الدهشة :
- ولكن الماء بارد جدًا ، لا تفعلى ذلك ، أرجوك .
- حسنًا ، سأذهب وأجرب ، سوف أضع أصابعى أولاً وأرى . ألا ترون أن حرارة شمس اليوم تكفى لتسخين أعماق المحيط ؟ هل يمكن أن آخذ من هنا منشفة أو منشفتين ؟ من الأفضل أن أذهب الآن حتى أعود فى الوقت المناسب . سوف يكون الماء أكثر برودة فى الأصيل .
أسرعت ماركويتا إلى حجرة ڤكتور وعادت بالمنشفتين وأعطتهما لإدنا . وهى تهم بالخروج . قالت :
- أحب أن آكل سمكًا على العشاء . ولكن لا تعدوا أى شىء زيادة إذا لم يكن لديكم .
وجه ڤكتور تعليماته إلى الفتاة :
أسرعى إلى أم فيلوميل وأحضريها معك . سوف أذهب إلى المطبخ وأرى ما يمكن أن أفعل .

يا إلهى ! النساء لا يرين اهتمامًا لاعتبارات كثيرة . كان ينبغى أن تخبرنى .

مضت إدنا إلى الشاطئ بخطوات متثاقلة . لم تكن تعى شيئًا أو تسمع صوتًا . لم تكن تحس بغير حرارة الشمس التى تلسع بوهجها الأنوف والظهور . لم تفكر فى شىء أو تتذكر شيئًا من هواجس الليالى الماضية . نفد مخزون ذكرياتها من كثرة تفكير الليلة المنصرمة التى قضتها مستيقظة على الأريكة تفكر فى روبرت .

ظلت تقول لنفسها المرة تلو المرة : « اليوم أروبين، وغدًا شخص آخر وما الفرق بين هذا وذاك بالنسبة لليونس پونتلييه لا يهمنى، ولكن راؤول وإتيان !» .

إنها تفهم الآن بوضوح ما كانت تعنيه منذ زمن بعيد حين قالت : لآديل راتجنول إنها قد تستطيع التخلى عن الجوهر، ولكنها لن تضحى بنفسها من أجل أطفالها .

لقد استولى عليها قنوط شديد وهى تسعى نحو الشاطئ يظلها الليل والسكون . فقدت الرغبة فى كل ما يتعلق بهذا العالم . مر روبرت بذاكرتها مرورًا عابرًا، قالت فى نفسها إن الزمن كفيل بنسيانه هو أيضًا . قفز أمام عينيها طفلاها مثل عدوين غلباها على أمرها وأجبراها على العودة إلى عبودية الروح إلى الأبد، ولكنها عرفت كيف تتخلص منهما . أصبح ذهنها خاليًا لدى اقترابها من الشاطئ .

كانت مياه المحيط تمتد على مساحات شاسعة أمام عينيها، تلمع بما لا يحصى عددًا من الألوان التى أرسلتها الشمس . ناداها البحر بصوت رقيق مثل عاشق ظل دهورًا فى انتظار الحبيب . سمعت همسه وتصفيقه، وشعرت بدمدمته وهيامه وهو يدعو روحها إلى التجوال فى مهاوى الوحدة والعزلة . لم تسمع نأمة على الأرض أو ترى نسمة فى السماء ما خلا طائر يضرب الهواء بجناح مكسور ما لبث أن هوى على صفحة المحيط .

وجدت إدنا بذلة السباحة لم تزل معلقة على حبل الغسيل وقد نصل لونها . خلعت ملابسها وتركتها فى حجرة صغيرة على الشاطئ . تأملت نفسها وهى تقف عارية بجوار البحر بعد أن تخففت من ملابسها الكئيبة . استقبل جسدها العارى وهج الشمس ولفحات النسيم، واستجابت روحها لنداء الأمواج . كان المشهد غريبًا ومهولاً ، ولكنه كان سببًا فى لذة لم تختبرها من قبل ! أحست أنها أشبه بمولود جديد يستقبل الطبيعة أول مرة . فتحت عينيها على عالم جديد لم تعرفه من قبل . كانت الأمواج الصغيرة برغوتها القليلة تغازل قدميها البيضاوين ثم لا تلبث أن تنحسر عنهما فى كر وفر بعد أن تتموج تحت كاحليها بحركات أشبه بحركات الحيَّات . تركت المياه ومشت خارج الشاطئ . كان الماء باردًا حقًا ولكنها ما لبثت أن عادت من جديد . كان الماء عميقًا ولكنها رفعت جسدها الأبيض واستسلمت لموجة

قوية دفعتها إلى الأمام أكثر مما كانت تتوقع . شعرت بمس الماء لذيذًا يعانق جسدها فى حب لم تألفه .

لم تتوقف عن التقدم فى المياه . تذكرت الليلة التى سبحت فيها بعيدًا عن الشاطئ، وتذكرت الخوف الشديد الذى استولى عليها حينئذ من أن تفقد القدرة على العودة . توقفت عن النظر خلفها وواصلت التقدم . تذكرت المروج الزرقاء التى كان عليها أن تجتازها وهى طفلة صغيرة وهى تعتقد أنها بلا بداية ولا نهاية .

بدت يداها وساقاها لا يقويان على حملها ، تذكرت ليونس والطفلين، كانا جزءًا من حياتها، ولكن هل امتلكاها روحًا وجسدًا ؟ كم ستضحك الآنسة ريز، وربما قالت ساخرة : «إذًا عرفت ! وتسمين نفسك فنانة ! يا لها من ادعاءات فارغة يا سيدتى ! الفنان يجب أن يمتلك الروح والشجاعة اللتين يتحدى بهما ويقتحم .»

لقد استنفد التعب والإعياء قوتها كلها .

« الوداع – لأنى أحبك » . لم يكن يعرف ، لم يكن يفهم ، لن يفهم أبدًا . ربما فهم الدكتور ماندليه إذا زارته مرة أخرى كما يقول ، ولكن السيف قد سبق العذل، لقد اتسعت المسافة بينها وبين الشاطئ، لم تعد تراه، لقد خارت قواها .

نظرت فى الفراغ والبعد، تملكها الرعب القديم لحظات لا تذكر، ولم يلبث أن ذهب . سمعت إدنا صوت أبيها وصوت أختها مارجريت . سمعت نباح كلب هرم قد شد وثاقه إلى شجرة

جميز قديمة . سمعت صوت ضابط فرسان يستحث رجاله وهو ينظر من شرفة أحست بطنين النحل يملأ أذنيها، ورائحة أزهار القرنفل تنتشر فى الهواء وتملأ الجو .

* * *

هوامش

(١) سليلو المستوطنين الفرنسيين والإسبان الذين كانوا يقطنون منطقة نيـو أورليانز . منـذ بداية القـرن الثامن عشر طور الكريوليون ثقافة مـدنية شديـدة التعقيـد .

(٢) عربة خفيفة وحيدة المقعد يجرها عادة جواد احد . (المترجم) .

(٣) أكاديا مستعمرة فرنسية قديمة ١٦٠٤ - ١٧١٣ فى الساحلا لشمالى الشرقى من أمريكا الشمالية ، تشمل ما يسمى الآن نوڤا سكوتيا ، وبرونسك الجديدة ، وجزيرة الأمير إدوارد وأجزاء من كيبك . (المترجم) .

(٤) فردريك فرانسوا شوپان مؤلف موسيقا وعازف مشهور على البيانو من أصل بولندى . ولد فى إحدى قرى وارسو عام ١٨١٠ ودرس فى وارسو واستقر فى باريخ وتجول فى إنجلترا وإسكتلندا ، ولم يعد إلى بولندا أثناء احتلال الروس لها . لم يتزوج ولكنه كان صديقًا لجورج صاند وعاش معها حتى عام ١٨٤٧ ومات فى باريس عام ١٨٤٨ . (المترجم) .

صدر من آفاق عالمية

١ - تنبؤات

شعر : بيفر / زجراجن
ترجمة : د. يسرى خميس
يوليو ٢٠٠١

٢ - اعتراف منتصف الليل

رواية : چورچ ديهامل
تعريب : د. شكرى عياد
أغسطس ٢٠٠١

٣ - الزيتونة والسنديانة

نصوص شعرية مترجمة ودراسة عن الشاعر :
عادل قرشولى
د. عبد الغفار مكاوى
سبتمبر ٢٠٠١

٤ - بلبل واحد لا يصنع ربيعا

مختارات من القصة العالمية
ترجمة د. حمادة إبراهيم
أكتوبر ٢٠٠١

٥ - شراك القدر

مسرحية : أنطونيو بوريو بييخو
ترجمة : د. طلعت شاهين
نوفمبر ٢٠٠١

٦ - **الأرض الخراب وقصائد أخرى**
شعر : ت . س . إليوت
ترجمة : د. لويس عوض
تقديم : د. ماهر شفيق فريد
ديسمبر ٢٠٠١

٧ - **فى البحث عن ڤاليرى**
تأليف : ليج مايكلز
ترجمة : مى رفعت سلطان
يناير ٢٠٠٢

٨ - **زديج أو القضاء (قصة شرقية)**
تأليف : ڤولتير
ترجمة : د. طه حسين
تقديم : نبيل فرج
فبراير ٢٠٠٢

٩ - **قصائد امرأة سوداء بدينة**
شعر : جريس نيكولز
ترجمة : نانسى سمير
مارس ٢٠٠٢

١٠ - **عاشق من مونت كارلو (مختارات قصصية)**
تعريب وتقديم : عبد القادر حميدة
إبريل ٢٠٠٢

١١ - **الحب والأسى (مسرحية صينية)**
تأليف : (باى فنجكس)
ترجمة وتقديم : سمير عبد ربه
مايو ٢٠٠٢

١٢ - **ذلك العالم المدهش**
(حوارات مع كتاب عالميين)
ترجمة وتقديم : حسين عيد
يونيو ٢٠٠٢

١٣ - **شعر السبعينيات فى إسبانيا (دراسة ومختارات مترجمة)**
د. حامد أبو أحمد
يوليو ٢٠٠٢

١٤ - **المسرح الهندى (التراث والتواصل والتغير)**

تأليف : د. نيميتشاندا جين
ترجمة : د. مصطفى يوسف منصور
مراجعة : أ.د. منى أبو سنة
أغسطس ٢٠٠٢

١٥ - **مختارات من روائع المسرح العالمى**

ترجمة وتقديم د. نعيم عطية

١٦ - **الأغنية الأخيرة**
مختارات من الشعر الصينى
تأليف : تشانج شيانج - هو
ترجمة : زكريا محمد

١٧ - **أفضل صديقاتى**
ترجمة : مفــرح كريم

١٨ - **الطاغية**
ترجمة د. جمال عبد الناصر

آفاق
عالمية

« .. كشف غياب الحبيب عن
الأبعاد الغافية فى ذاتها الكبيرة المنطوية
على جوهر حافل بالوعود ، شاءت
الظروف أن تطمسه ، وتقمعه ، وتخفيه
خلف تقاليد وأعراف دأبت على تحويل
المرأة إلى شيء للاقتناء ، وجس
للمتعة ، ورحم للإنجاب ، وظل
للرجل ... رواية مكتوبة بإدرا
للتموجات الشعورية التى تنتاب أنث
تخرج من ظلام الغفلة إلى نور الوعي
بإمكاناتها الفكرية والعاطفية
والفنية ... » .

الشركة الدولية للطباعة

الثمن: جنيهان